سيرج سونيرون

الكهان في مصر القديمة

ترجمة: عيسى طنوس



العنوان الفرنسي للكتاب

Les Prêtres de L'ancienne Egypte

الكهان
في مصر القديمة

* الكهان في مصر القديمة
* سيرج سونيرون ـ ترجمة: عيسى طنوس
* الطبعة الأولى ـ ١ / ١٩٩٤

* الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق ـ هاتف : ٣٣٢٠٢٩٩ ـ ص.ب ٩٥٠٣ ـ تلكس: ٤١٢٤١٦
فاكس : ٣٣٣٥٤٢٧
* التوزيع :
قسم التوزيع ـ الأهالي للنشر والتوزيع
دمشق ـ هاتف: ٢٢١٣٩٦٢ ـ ص.ب: ٩٢٢٣ ـ تلكس: ٤١٢٤١٦

تصميم الغلاف عوض عمايري

سيرج سونيرون

الكهان في مصر القديمة

ترجمة : عيسى طنوس

مقدمة

مازالت مصر القديمة تدهش جميع الباحثين المعاصرين. فلم يعد بالامكان حصر أعداد المؤلفات الصادرة سنوياً، والمكرسة جميعها للحضارة الفرعونية؛ ولم تكن تلك المؤلفات على قدر واحد من الأهمية، فكان لبعضها صفات البسيط والعادي، وجاءت غالبيتها في دائرة عدم صلاحيتها للنشر. ومع ذلك، لايسعنا إلا بتوجيه الشكر لاعادة نشر كتاب «**سيرج سونيرون**»، **الكهّان في مصر القديمة**، هذه الدراسة التي ظهرت قبل ثلاثين عاماً، ونفذت منذ زمن طويل، تبدو المثال الحي لعملية نشر رائعة، حيث تخلى الأخصائيون للآخرين بمهمة التوجه مباشرة للجمهور.

ظل هاجس **سيرج سونيرون** الوحيد، بأن يشاركه الآخرون معارفه. فقد خلف عشية معركة المأساوي في الخمسين ربيعاً، عملاً علمياً وافراً، يستقي منه جميع المهتمين بتاريخ الحضارة المصرية القديمة ـ أكثر من مائتي مؤلف ومقال تناول فيها مختلف نواحي العلوم الخاصة بالحضارة المصرية؛ ـ معظمها يتحدث عن الانسان الوقور، والكهان في مصر القديمة، وقد بلغ فيها درجة عالية من النجاح، لأنه، بدون شك لايوجد من هو أبلغ منه في الحديث عن هذا الموضوع.

والحقيقة أن معارفه كانت تتمثل في مايطلق عليه اسم «**المادة المصرية**» وكانت مصر بنظره واحدة منذ فجر التاريخ حتى اليوم ـ وكان اندفاعه وحماسه المحصورين في بلاد النيل لامثيل له ، فقد أنهى كتابه «**معبد اسنا**» اليوناني الروماني بنظرية رائعة مخصصة للأعياد الدينية في تلك المدينة في أواخر العصر الباغوني «المجوسي» ، فجاء واحداً من أكبر الباحثين والعارفين في الأعياد الدينية المصرية القديمة.

كان التركيب الأساسي للحضارة الفرعونية معروفاً في عهد هير ودوت ، وأشارت إليه النقوش البارزة على جدران المعابد، والرسوم الجنائزية على القبور، والكتابات المحفورة على النصب والتماثيل التي مازالت قائمة حتى اليوم ، والشاهد الأكبر على ذلك. الآلهة منتشرون في كل مكان : ومعرفة من هم الذين كانوا خدمهم بالمعنى المألوف للعبارة، يتطلب امتلاك أفضل المفاتيح لفهم عالم غريب كلياً. ونتساءل هنا : من كان هؤلاء المصريون المتدينون الذين عاشوا في العصور الغابرة ورُسموا كهاناً؟ ماهو دورهم؟ ماذا يُعرف عن إيمانهم؟ ماهو علمهم المقدس، الذي حاول علماء وفلاسفة اليونان أن يتعلموا مبادئه؟

يجيب العالم التاريخي «**سيرج سونيرون**» عن تلك التساؤلات من داخل النصوص المصرية ، وبشهادات المؤلفين الكلاسيكيين. لندخل معه الحصون الالهية المساة «**المعابد**» لنلتقي بكبار أحبار طيبة ، وأعضاء الاكليروس المتواضعين ، والكهان من مختلف المراتب؛ ولنكتشف شخصية الحكيم «**بيتوزيريس**» المشهور في عصره بفكره الروحي السامي ، وشخصيات أخرى أقل شأناً ، ضالعة في فضيحة «**اليفانتين**» ، ولندخل قدس الأقداس ، ولنتابع معه ماهو مألوف عن الأموات ، وتوالي مراسيم الطقوس اليومية الأشبه بالشعوذة ، التي تمنع المخلوق من العودة إلى الفوضى. ولنحضر إلى داخل سر الولادة الالهية ، ولندفع محراب «بيت الحياة» لنرى كيف يعمل الكتبة ، ولنبحث بين الكتابات المحفورة ، علنا نعثر على فهارس كتب الطقوس والتراتيل ، والكتب السرية الأخرى.

وفي نهاية الرحلة ، وبعد طي صفحات كتاب كهان مصر القديمة ، نكون قد قطعنا شوطاً بعيداً داخل النظام الفكري ، وفهمنا بشكل أفضل الأخلاق الانسانية العميقة لحضارة تعتبر من أهم وأكبر الحضارات القديمة .

لنهنيء أنفسنا بهذا الكتاب الذهبي الجديد، ولنتمتع بقراءة فقراته، التي بلغت حد الكمال .

جان بيير كورتجياني

المدخل

مفاجأتان تنتظران السائح على ضفاف النيل، متحف القاهرة مختزن الفن المصري، ذلك الفن القديم قدم التاريخ، الجميل والكامل في نوعه كجمال وكمال ماقدمته اليونان والحضارات الحديثة في عصورها الذهبية. كما تتكشف له في الأيام التالية الأبنية الأثرية المصرية التي تؤكد جميعها بأنها تعود **لاهتمامات دينية**. من هضبة الجيزة إلى صخور الشلال، إلى ظلال الأيك والنخيل في ممفيس، والرمال الجرداء المحرقة في وادي الملوك، وفي جزيرة اليفانتين الهادئة، إلى القوارب البيضاء التي تجوب سواحلها، في كل بناء أثري جديد، في كل زيارة جديدة، ستصادفه الحقيقة نفسها: اهرامات، معابد، مدافن، كل ماشيد «**للتخليد**» ـ كل ما عبرته الأزمنة فعلاً ـ كان مخصصاً لعبادة الآلهة والحياة الآخرة للبشر.

ولم تكن رغبة الخلود في أي بلد أكثر وضوحاً وأشد فاعلية عما هي عليه في مصر. . . ، البيوت، القرى، القصور، هذه الهندسة المعمارية جاءت طلباً لرغبة عابرة للعيش على الأرض، اعتقاداً بأن الطين الطري كاف لتلك الحياة المؤقتة. هكذا لم يبق من تلك المدنية شيء ـ عدا أكوام التراب ـ لكن وراء هذا العالم حيث فرح الأحياء واضح للعيان، خلف الأشكال المخلوقة المغمورة بالظلام كل مساء،

تظهر كل صباح بطفولة جديدة، وإدراك مجال المجهول يظل ممكناً كل لحظة: خارج الزمن الأرضي، في عالم كوني آخر محدود، الآلهة والأموات يقهرون قوى الظلمات السابقة للخلق، ويسعدون بفرح الشباب الدائم. ومن أجل القوى الالهية والكائنات الموجودة خارج هذا الزمن، وجب اقامة منازل أزلية كأزلية الأرض التي تحملها: الأهرامات المعابد، الرابضة كالجبال التي وهبتها حجارتها، ومثلها القبور والمدافن الأزلية الخالدة خلود الصخر الذي يحضنها.

وبمرور الدهشة الأولى، يتكون لدى السائح انطباع، بأن قدماء المصريين، هم أكثر تعلقاً وإيماناً وتديناً من سائر البشر. هذه الملاحظة، ليست كافية للسائح للأخذ بمفاتيح الحضارة الفرعونية: فمازال هناك خطر كبير يكتنفه وينزع منه كل فائدة من رحلته؛ هو رؤية المصريين قريبين جداً منا.

وبدون شك، لاشيء يبدو أكثر عصرية من تلك الرؤوس الحجرية المندثرة على المصاطب ـ التمثال النصفي للملكة نفرتيتي؛ ولاشيء أشد حيوية، وإنسانية، بطريقة تدعو إلى الاطمئنان، أكثر من مشاهد الحياة اليومية، التي تكشف عنها مدافن سقّارة وطيبة؛ ولاشيء يبدو مؤلفاً، أكثر من القصص والروايات الشعبية لضفاف النيل... لنحتفظ بالاعتقاد بأن المصري القديم كان انساناً شبيهاً بنا من سائر النواحي، وإن قواعد حضارته كانت مشابهة أيضاً لحضارتنا، وإن فكره كان على مستوى العالم الذي لم يعرف تصوراً مسبقاً لما يكون عليه الفكر الحديث.

وبغية فهم مصر القديمة، يجب إهمال الفكرة التي سنجد من خلالها، مانجده في ثقافتنا وميولنا: كما يجب القبول بالاغتراب، وعدم الانخداع بظواهر مشابهة.. لقد عاش المصريون في عالم غريب كلياً عن عالمنا، أحرزوا من خلاله تقدماً مدهشاً في بعض الانجازات التقنية: الهندسة المعمارية، والنحت في الصخر والنقش على المعادن، وأعمال فنية أخرى إضافة إلى تفكير أخلاقي رفيع

المستوى ـ ومع ذلك ظل هذا العالم بدائياً هشاً في بناه الرئيسة وخاصة في الحياة العقلية، والتفكير المجرد وسذاجة الاعتقاد في قداسة عالم خلق الانسان.

وتشدنا الرغبة هنا، في الحديث عن حضارة البحر المتوسط، وننسب كل ماهو رائع وعظيم إلى كل ماجرى على شواطىء هذا البحر. وبما أن نهر النيل يصب في المتوسط بأفرعه السبعة، فإنه يخلف وراءه الحضارة المصرية بكل أصالتها....

ومن أجل فينيقية، قرطاجة، اليونان وروما، فقد ظل البحر المتوسط صلة وصل في العلاقات البشرية والمبادلات التجارية، والفتوحات، وبتعبير آخر مركزاً متقدماً لعالم يراقب بعضه من شاطىء لآخر.

وبالمقابل، فإن مصر تشكل حداً لعالم خاص، إنه عالم أفريقيا، كذلك تمدنا تجليات **اغوتوملي** أو الفلسفية البانتية (نسبة إلى قبائل البانتو) بعناصر هامة، تساعدنا على فهم عميق لبعض جوانب الفكر الديني لقدماء المصريين: ولكن يجب عدم انتظار شيء في هذا المجال لدى قراءة أفلاطون.

إن البحث في الحضارة المصرية، في صيغتها الأولى، عن الانسانية اليونانية الاغريقية، مازال ناقصاً غير كامل، كما يعد خطأً فادحاً، وتوجهاً عقيماً. وبالمقابل يجب، الفهم، بأن شكلاً من الانسانية مستقلاً كلياً من انسانيتنا، ناتج عن مجتمع لايمت بصلة إلى انسانيتنا، استطاع انتاج الأعمال التي تضاهي مثيلاتها، والتي اقتضت ظروف الحياة صنعها.

وإذا ماتخلى السائح عن كبريائه كانسان عصري، وقبل لفترة من الوقت، بأن لايقارن معبد الأقصر بكاتدرائية، والفرعون بملك حالي، وضريح ملكي بقبر نابليون؛ وإذا استطاع الاذعان لواقع أن الكائنات الالهية المعبودة في مصر، ليس لها سوى نقاط مشتركة مع آلهة أولمب ومراثي رونسار ـ وعلاقات أقل إدراكاً مع إله اليهود والمسيحيين أو المسلمين، عندها تتولد لديه الفرصة لفهم ماتكون عليه

الـديـانـة المصـريـة . سوف لن يندهش من منظر الأضرحة الممجدة لقوى الحياة ، حيث يظهـر الالهي عبر كل شيء قادر على الحـركـة والفعـل . سيتمكن بصـدفة المعابد ، من فهم كل مايلزم لعالم كامل لكنه مؤقت ، متبعاً الحذر والأناة ، ليحفظ استقرار قناعته .

هنـالـك طرق عديـدة للتـوغـل بعيـداً في صميم الحياة الخاصة للمصريين القـدمـاء ، يفصح كل منها عن بعض وجوه حياتهم اليومية ، ويرسم معالم سلوكهم وبعضاً من مشاهد تاريخهم القومي . . . وإذا تمسكنا بعودة الحياة لقدماء الفراعنة ، فإننا سنطوي واحدة من صفحات الماضي المجيد وفتراته المؤلمة ، لكننا لانستطيع إعادة تكوين البناء الرسمي للحياة المصرية .

وإذا اتجهنـا إلى تحديـد مختلف جوانب حيـاة عامـة للشعب ، من صناع في الأريـاف وفـلاحـين في الحقـول ، فإننـا لن نتـوصـل (ماعدا بعض الاستثناءات النادرة) إلى وضع تاريخ مدعم بصورة متفاوتة عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، دون الدخول إلى أعماق الحياة الخاصة للناس في سالف العصور .

وإذا مادخلنـا في عمق كتـابـات أدبـاء مصـر القـديمـة ، فسـوف تظهـر لنا حينئـذ ، وجـوهـا عديـدة للحيـاة الفكـرية والادارية والاجتماعية بكل تفاصيلها ، وسنخرج منها بصورة مليئة بالحقية ومثيرة للاعجاب .

وباختيار الكهان في مصر القديمة كادلاّء ، فإن قصدنا من وراء ذلك ، حث القـارىء على السـير وراء عالم متميـز للغـاية : إنه عالم الفكر والحياة الدينية ؛ لقد تبـدلت جذريـاً وعـبر القـرون مختلف النظم السيـاسيـة ، والظروف الاقتصادية ، والعوامل الاجتماعية ، لكن مظهراً واحداً على الأقل من مصر القديمة ظل ثابتاً : إنـه ارتبـاط هذا الشعب منـذ ثلاث آلاف سنـة بمعتقـداتـه الدينية ، والخط العام الـذي حدد بواسطتـه علاقـات النـاس بالكون والقوى المسيطرة عليه . قد لايتوفر

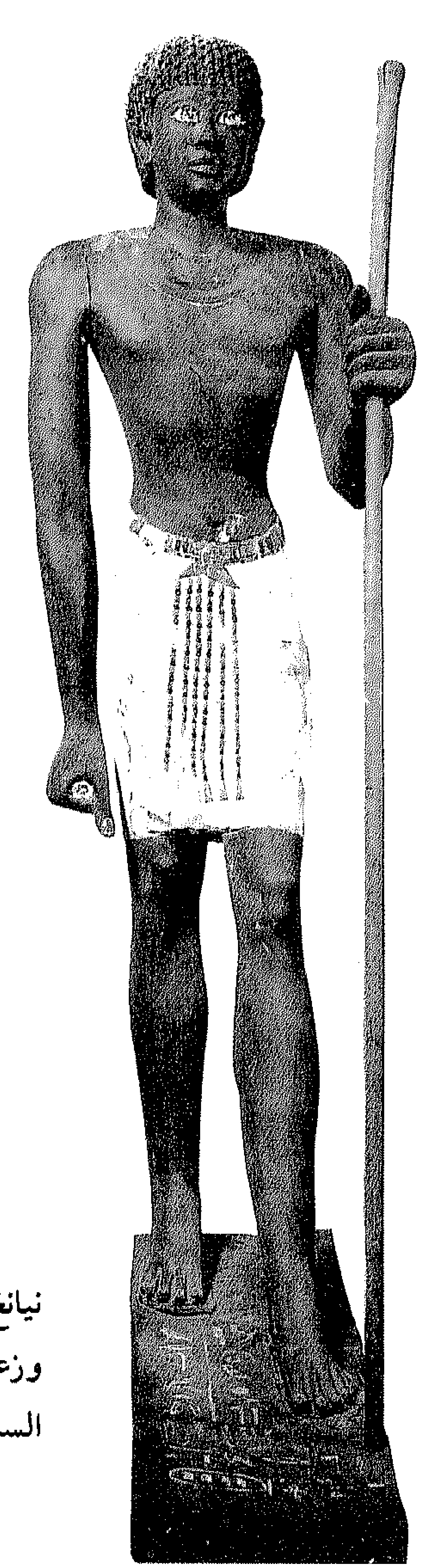
هناك، أي تحقيق أو بحث غير مانقوم به، يمكنه الاجابة على بعض التساؤلات التي تولد حتماً خلال الرحلة في الربوع المصرية:

لِمَ كل هذه المعابد والأضرحة؟

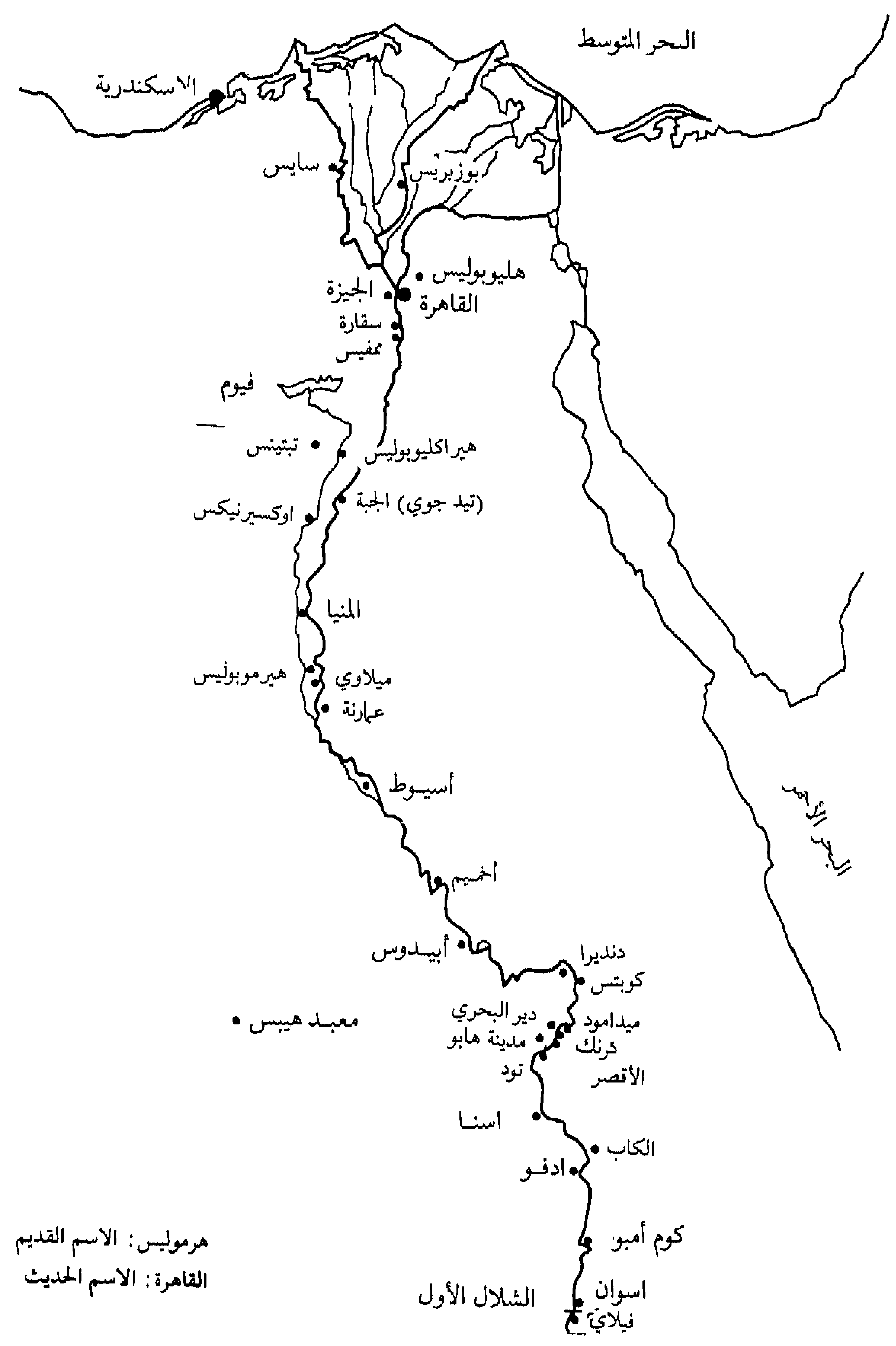
ولِمَ جميع هذه النقوش التي لاتحصى والتماثيل المنحوتة في الصخور الصلبة؟

ولِمَ هذه الآلاف من الكتابات الهيروغليفية الموجودة على كل جدار ومسلة وعلى كل شيء؟

من هم هؤلاء الناس الذين عاشوا في هذه المعابد، وماذا كانت أفكارهم؟



نيانخ بيبي الأسود، كاهن كاتب، وزعيم الأنبياء في عهد السلالة السادسة. متحف القاهرة.


البحر المتوسط
الاسكندرية
سايس
بوزيريس
هليوبوليس
الجيزة
القاهرة
سقارة
ممفيس
فيوم
تبتينس
هيراكليوبوليس
(تيد جوي) الجبة
اوكسيرنيكس
المنيا
هيرموبوليس
ميلاوي
عمارنة
أسيوط
اخميم
أبيدوس
دنديرا
كوبتس
معبد هيبس
دير البحري
ميدامود
مدينة هابو
كرنك
تود
الأقصر
اسنا
الكاب
ادفو
كوم أمبو
اسوان
الشلال الأول
فيلاي
البحر الأحمر
هرموليس: الاسم القديم
القاهرة: الاسم الحديث

١

في متاهات النصوص القديمة

من هو الزائر الذي لا يتوقف ولو لبضع لحظات في متاهات المتاحف، أمام هذه التماثيل الرائعة للكهان الذين أوضحوا لنا المشاهد الأخيرة من الفن المصري؟ إن جمودية الوضعية، والكمال التقني في العمل، وجمال المادة، رخام صنعي، حجر طبقي داكن، غرانيت رمادي جعلت منها أعمالاً في آية الروعة والجمال. لكن ماهو سر النجاح الباهر في صنع اللدائن التي عبرت عن لغز الوجوه القلقة؟ وأية أفكار مخبأة خلف هذه القسمات الهادئة، وأية مشاهد رأت تلك العيون الكبيرة المفتوحة، التي لا يحركها أي وضوح داخلي؟

وعلى مدى النصوص المقروءة سريعاً، تظهر بعض الصيغ المدائحية:

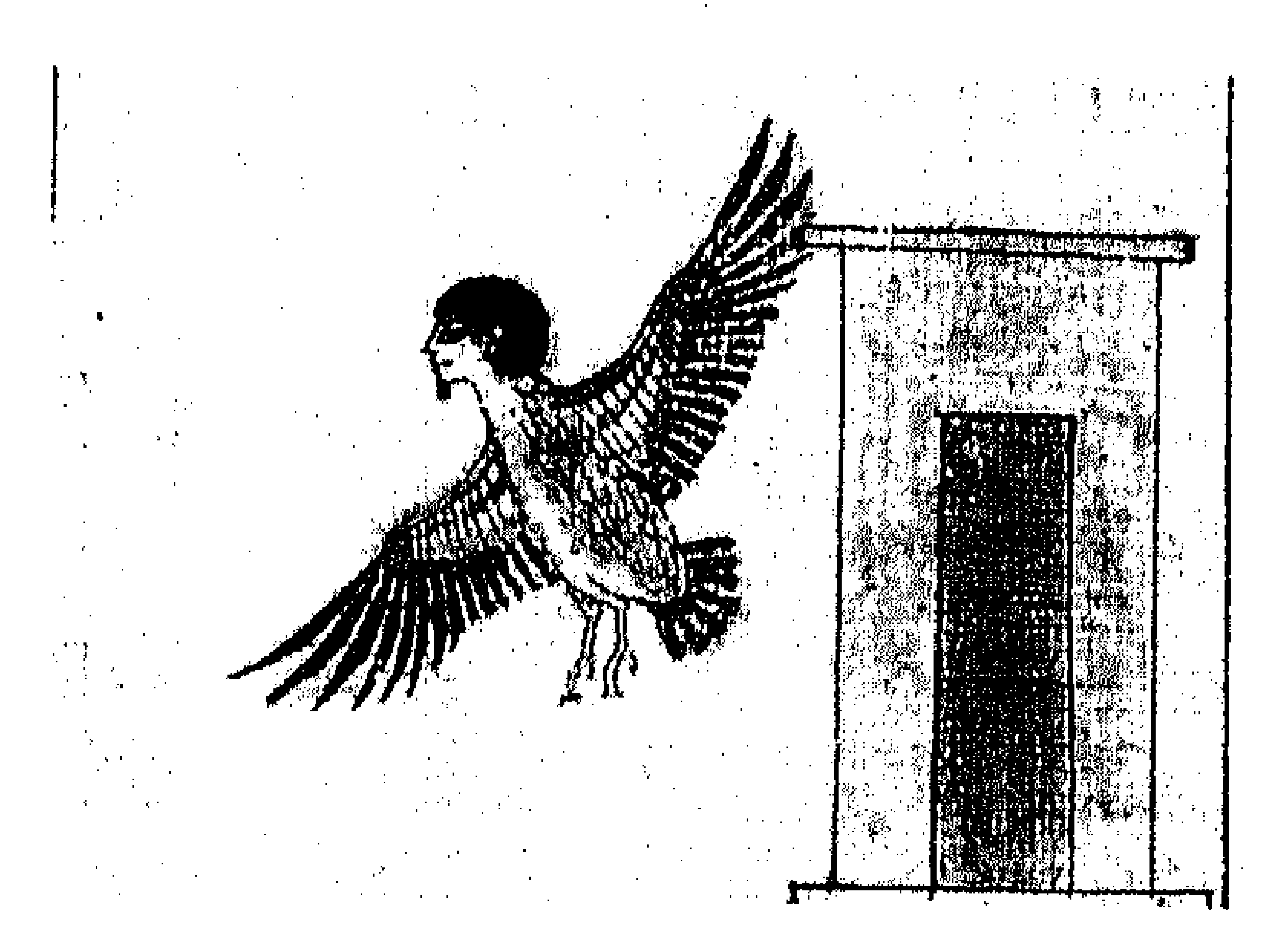
كان رجلاً كتوماً على مايراه، عالماً، ماهراً بمهنته، محبوباً من مواطنيه؛ رجلٌ كان حضوره واضحاً، محترمٌ من مدينته، مبارك من أبيه، مدلّل من أمه، محبوب جداً من إخوته. .

وتتابع هذه الكلمات العذبة من قاعدة عمود لآخرى ومن تمثال لآخر، متنوعة في عباراتها أحياناً وممجدة هذه الناحية أو تلك من حياة الميت باعثة على

التقوى دائماً، جامعة بلا توقف الخصائل الاجتماعية إلى أعلى درجات القلق الروحي.

جزء قديم من الحياة يولد من جديد أمام أعيننا: هذه الصورة الباردة، التي تضم بحنان تمثال الهها، تصبح كأنها كائنات من لحم ودم؛ وإن صفاء ابتسامة الوجوه الغامضة يبدووكأنه يعبر عن تسامح الروح المتطلعة كلياً إلى الملأ الأعلى، مصغية باستمرار إلى الارشادات الربانية... لكأننا نسمع أيضاً كاتباً يونانياً قديماً يصف بإعجاب كهان ضفاف النيل:

بالتأمل، يصلون إلى الاحترام، إلى صفاء النفس، وإلى التقوى؛ بالتفكير، بالعلم؛ وبالاثنين معاً، إلى ممارسة الطقوس السرية الموضوعة في الزمن القديم. لأن الكون دائماً على تماس مع العلم والوحي الالهيين، يبعد الفساد يكبح العواطف، ويوقظ جذوة الذكاء، يمارسون البساطة في العيش والكساء، الزهد، التقشف، العدالة، النزاهة.... خطواتهم متزنة، نظراتهم متواضعة، وثاقبة، دون الالتفات إلى جميع الاتجاهات؛ الضحك نادر، لايتعدى



روح ميت تخرج من القبر بهيئة عصفور: بردية ماهرفردا ـ متحف القاهرة.

الابتسامة العابرة، أيديهم مخبأة دائماً داخل ثيابهم . . . . وبالنسبة للخمر، فالبعض لا يتناوله مطلقاً، والبعض الآخر يشرب به قليلاً، لأنه، كما يقولون: الخمر يؤذي الأوردة، وبإزعاجه الرأس، فإنه يشل التفكير.

الشعور المتأجج أمام التماثيل، وشهادة بورفير، تجعلنا متفقين على تقبل صورة الكاهن المصري التي لاتفتقر للجاذبية؛ وأمام الانجازات التقنية في وادي النيل، معابده، أهراماته، أضرحته؛ وأمام وضوح العقيدة الدينية التي تظهر تقريباً، عبر كل جسم يُنتزع من الرجل المصري، يحلو للنفس التحدث عن طبقة من كبار الرجال المكرسين للعلم والتفكير اللاهوتي، ويمكن أن يجدوه خلف قدماء الفراعنة، الالهام في فنهم، والتوجه في حياتهم . . . . أليس من المنطق أيضاً، البحث وسط حياة وثقافة كهان ضفاف النيل، عن الأفكار الرئيسة التي أوحت بجزء هام جداً مما بقي قائماً حتى الآن من الامبراطوريات القديمة؟

وجولة سريعة في الوقائع التاريخية القديمة، وبحل رموز المسلات، والأبنية الدينية بقليل من الامعان، وإعادة قراءة روايات الرحالة اليونان والاغريق، الذين وطئوا أرض مصر قبلنا بعشرين قرناً، سنحاول تلمس هؤلاء الكهان الذين ما زالوا سراً بالنسبة لنا. رصيناً لكنه يقظ، سيحملنا تفكيرنا إلى البحث عنهم ومن ثم ملاحقتهم، تقريباً مثل روح قدماء المصريين، التي تأتي كعصفور، وتقف إلى جانب الكائنات المألوفة سابقاً . . . .

سيكون الحكيم بيتوزيريس رفيقنا الأول.



مونتمحات يقدم صلاة لـ آمون (السلالة ٢٥). متحف القاهرة.

حيـاة بيتـوزيـريـس المثالية[1]

هنـاك في مصـر الـوسطى، وعلى مقـربـة من ميلاوي (جنوب المنيا)، تقع مدينـة قديمـة جداً، كانت مخصصـة قديـماً للالـه «تحـوت»: إنهـا **هرمـوبـوليس العظيمـة**. كومـة واسعـة من بقايا الأتربة، وأطواب اللبن المهدمة، وبعض الأبنية الفـرعـونيـة التي غُمرت اجزاؤ ها بمياه الفيضان، بناء من طراز روماني قديم، مع ساحة أشبه بالساحات الاغريقية، تمثل جميعها ماخلفه الزمن من آثار أمكن العثور عليها. وفي مكان ما، وتحت واحة من النخيل، تسموبقايا معبد مقدس، إنه أشبه بهضبـة من الـركـام الأولي المنـدثـر منـذ خلق العالم، والذي تفتحت فيه أول بذرة انبثقت منها الحياة على الأرض.

في هذا المكـان عاش الحكيم بيتـوزيـريس، في فترة السنـوات الأخيرة من استقـلال مصـر ـ قبل مجيء الاسكندر الكبير بوقت قصير (٣٥٠ ـ ٣٣٠ ق.م). كان شخصية رفيعة في مدينته، حمل الألقاب السامية: **كاهن عظيم، يرنو الإله في مقصـورتـه، يحمل معلمه، يتبع معلمه، يدخل قدس الأقداس، يمارس واجباته الكهنـوتيـة بصحبـة كبـار الأنبيـاء، نبي لثمانيـة آلهـة بدائيـين، رئيس لكهنـة «سكحميت»، رئيس كهنـة من الطبقتـين الثالثة والرابعة، كاتب حسابات ملكية لجميع ممتلكات معبد هرموبوليس**.

يقضي حيـاتـه ورعـاً، مشغـولاً كلياً في خدمة الاله، في ترميم المعابد المقدسة باسمـه، يعطي الجميـع، مثـل الكـائن التقي والـوقور. دُفن بعد موته في صحراء هرمـوبـوليس وسـط أمـواج من الـرمال الشقراء على مسافة قريبة، من مرتع قرود كلبية (قرود برأس كلاب)، وطيور أبو منجل البيضاء، وحيوانات الاله «تحوت» المقدسة.

وفي يوم من شتاء ١٩١٩ ، تمَّ العثور على قبره ؛ كان مصمماً على شكل معبد ، امتلأت جدرانه بعدد هائل من النقوش البارزة والكتابات . بعض هذه النقوش الأثرية تخص السائحين اليونان ، ويعود تاريخها إلى القرنين الثالث والثاني ق . م . . . توضح بأن الكاهن العظيم «تحوت» كان مشهوراً آنذاك ، وأن صيت فضائله قد تجاوز حدود مدينته .

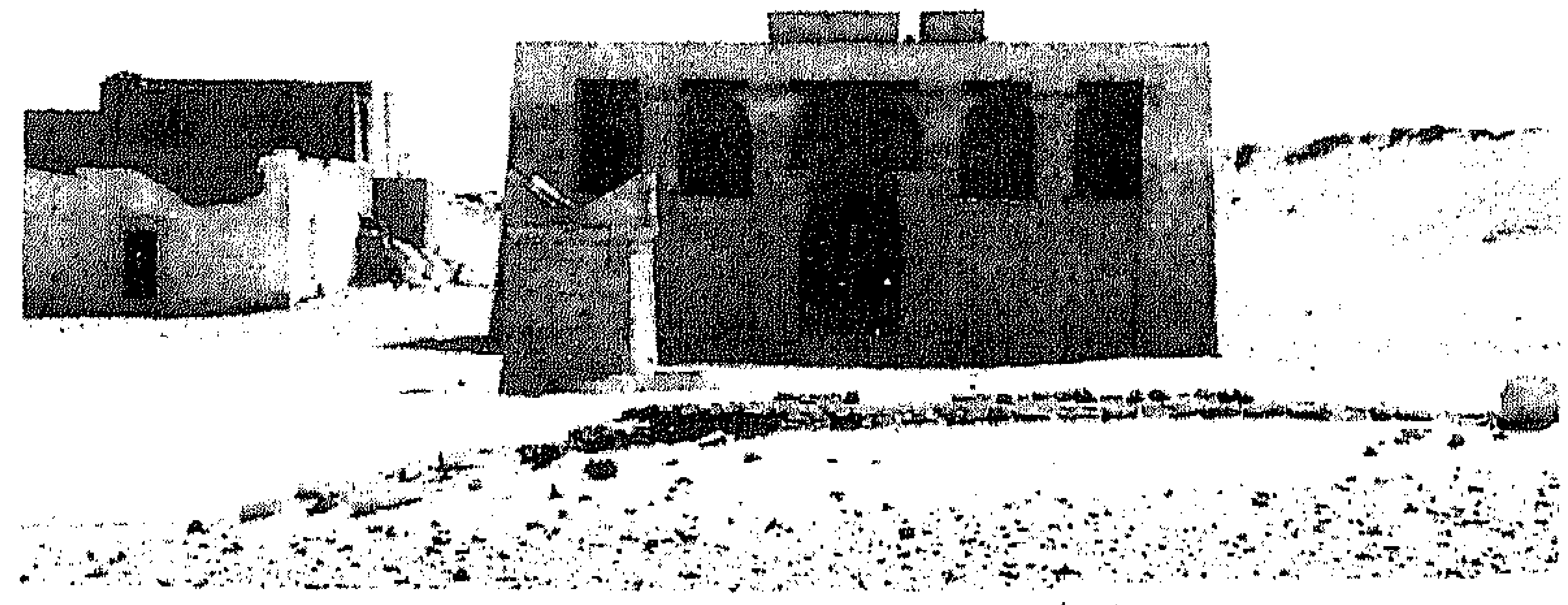
قال أحدهم : **ألتمس بيتوزيريس ، ذلك الجسد تحت التراب ، لكن تلك الروح تقيم في رحاب الآلهة : حكيم ، انضم إلى الحكماء**[٢] .

توضح الكتابات الموجودة على ضريحه ، سلسلة نصوص ايمائية فلسفية ودينية ، قريبة بشكل مذهل ، إما للفكرة المعبرة ، أو للمعنى المستخدم في أسفار التوراة أو الانجيل والمزامير .

وبإلقاء نظرة إلى كتب حكماء المصريين القديمة ، أمثال **بتاح حوتب ، أو** آني وبعض الكتابات على ضريح بيتوزيريس ، المجموعة بما يسمى «تصنيف مكسيم» المخصص للأحياء ، وفضائل أعمالهم ومزاياهم في هذه الحياة وبعد الموت ، ولأولئك الذين يعيشون في تقوى الله ، ويسيرون على هدى طريقه . لايسعنا فعل أكثر من ذكر هذه الكتابات الأربع الرئيسة ، والكيفية التي جمع بها العالم الذي اكتشف هذا الضريح ، والمهارة الفائقة التي نشر بها م . ج . لوفيفر[٣] تلك النصوص .

من يمشي في طريقك لايتعثر أبداً : منذ أن وُجدتُ على الأرض حتى هذا اليوم ، حيث وصلت إلى مناطق كاملة ، لم يعثر بداخلي على أي خطيئة . . . .

أيها الأحياء ، . . . إذا سمعتم كلامي ، وتمسكتم به ، سوف تشعرون بالفائدة . الطريق صالحة لمن يخلص للإله ؛ مبارك من يتوجه بقلبه نحوها . سأقول لكم ما حصل لي ، سأعمل ماتهبني به مشيئة الاله ، سأعمل من أجل أن تتعمقوا في معرفة روحه .



قبر بيتوزيريس. تونا الجبل

إذا كنت قد وصلت إلى هنا، إلى مدينة الخلود، فهذا لأني عملت عملاً صالحاً على الأرض، إن قلبي سار على هدى الإله منذ طفولتي. كانت روح الاله تسكن قلبي طوال الليل، منذ الفجر عملت حسب ارادته، طبقت العدالة، كرهت الظلم لم أسلك طريق من يتجاهلون الاله. . . . فعلت كل هذا وأنا أفكر أني سأصل للاله بعد موتي، ولأني كنت أعرف أيضاً أنه سيأتي يوم أقف فيه أمام «سيد العدالة» انتظر إصدار حكمه[٤].

أيها الأحياء، إني أعمل من أجل أن تحفظوا وصايا الاله، سأقودكم إلى طريق الحياة، الطريق السليمة لمن يطيع الاله؛ تغمر السعادة من يقوده قلبه نحوها. ذلك أن القلب مثبت على طريق الإله، مرسّخ لوجوده على الأرض. من يحمل في نفسه خوفاً كبيراً من الإله، فإن سعادته كبيرة على الأرض[٥].

من المفيد السير على خطى الاله، المكافآت كبيرة لمن يجتهد في سلوكها. هذا النصب الذي أقامه لنفسه على الأرض، لمن يلتمس اتباع طريق الاله. من يمشي على طريق الاله يقضي كل حياته فرحاً، مغموراً بالغنى أكثر من أقرانه. يكون شيخاً في مدينته، رجلاً محترماً في اسمه، جميع أعضائه فتية مثل أولئك الفتيان. أولاده أمامه لايحصى عددهم، يُعتبر ون الأوائل في مدينتهم؛

يتتابع أولاده من جيل إلى جيل . . . يصلون في نهاية المطاف إلى مدينة الأموات، جذوة الفرح تكمن في تحنيط جيد من عمل أنوبيس، أولاد أولاده يخلفونه .

أنت تمشي على خط معلمك تحوت؛ هكذا، بعد موافقته حدوث هذه الفضائل على الأرض، سوف يهبك فضائل مشابهة بعد الموت[٦] .

إنها بالتأكيد نصوص رائعة، من يدركها يكون قد وصل إلى حياة روحية هادئة . إلا أن هرموبوليس مدينته العظيمة، لم تكن في أواسط القرن الرابع بين أهم المدن في مصر؛ فالوسط الكهنوتي كان محدوداً جداً فيها، ومعابدها مهملة .

الوسط الضروري لتربيته، وقرب المجمعات الروحية التي جذبه التعليم إليها كانا غير كافيين لشرح مجمل تقدم إيمانه، وصرامة حياته الاخلاقية . أليس جديراً بالملاحظة هنا، رؤية الحماس الديني الشخصي يقود كاهناً إلى مثل هذه القيم الروحية العالية، خارج كل تقليد كهنوتي ؟

لكن الحالة لم تكن كذلك دائماً؛ يجب علينا الاعتراف بأن بيتوزيريس ـ وبعض الشخصيات الروحية التي وصلتنا أخبارهم قد برزوا ولمعوا على أرضية كامدة . والحقيقة، إننا غالباً ما نعرف الكهان المصريين من أسمائهم وجداول ألقابهم، ولكنه لا يمكننا الحديث عما كان عليه وجودهم ودرجة تقواهم التي ظهرت عبر أفعالهم .

وفي بعض الأحيان، وعبر صدفة الوقائع التاريخية، والوثائق المكتوبة على ورق البابيروس، نكتشف شكلاً من الحياة الكهنوتية، مختلفاً جداً عن الحياة التي استطعنا تصورها، إنها رائعة بدون شك، لكنها غريبة محزنة، وإذا اعتبرنا أن غالبية كهان مصر كانوا خدماً دينيين جديرين بالاحترام، مقتنعين بواجباتهم، ومهتمين بتأديتها بإخلاص وأمانة، وإذا ظهر لنا بأن هذه الطائفة لها قديسوها، فمن الضروري الاقرار أيضاً، بأن حياة بعضهم لم تكن خالية من التمتع بالفجور كلما سنحت لهم الظروف بذلك .

يجب عدم تناسي الشروط التي كان يعين على أساسها رجل الدين المصري، عائلات متوغلة في القدم، متمسكة بتقاليد وطقوس مدنها، قدَّمت جيلاً إثر جيل، طوابير من الكهان المخلصين لايمانهم، وقد اكتسبت جميع هذه العائلات مرتبة الشرف من وظائفها وقدسية خدماتها الالهية. إن جميع العبادات لم تكن تحظى بخدمة من هذا النوع؛ إذ يكفي أحياناً أن يكون خادم المعبد موظفاً محظياً لدى الحاكم، ليخصه بتعويض هام مقابل الخدمة في المعابد البعيدة. لكن ماذا كانت تساوي عندئذ المعارف العملية وتقوى الكاهن الجديد؟ من ناحية أخرى، وُجدت أوقات، يُكتفى فيها بتقديم حزام مليء بالنقود، لشراء وظيفة كهنوتية، والتمتع منها بدخل وافر دون عناء. في النهاية، نقطة أخيرة يجب عدم نسيانها أبداً وهي: ان الكهان لا يواظبون على الوظيفة إلا لمدة ثلاثة أشهر في السنة تقريباً، لتناوب الفرق الموجودة على الخدمة. وخلال الأشهر الثلاثة التي تفصل بين أشهر خدمتهم الفعلية، فإن حياتهم المدنية الصرفة، تجري بعيداً عن الهياكل والعبادة.

بماذا تميَّز الكهان عن باقي سكان مدنهم الآخرين؟

المقتطفات اليسيرة من الوثائق المكتوبة التي بين أيدينا، لم تُجمَع لتهدم الفكرة الرائعة التي نحتفظ بها عن «كاهن مصر». إنها تجعلنا حذرين أمام تعميم سابق لأوانه: فالكهنوت المصري كان وظيفة مدنية صرفة، منفتحة أيضاً، حتى لا تتمكن جوانب المجتمع من ايجاد ركيزة في وسطها صالحة كانت أم طالحة. من جهة ثانية، لم يكن الكهان أمناء لمهمة إلهية تجاه المؤمنين، بل كانوا منفذين بسطاء للطقوس الدينية اليومية التي تقام بعيداً عن الأعين الشريرة.

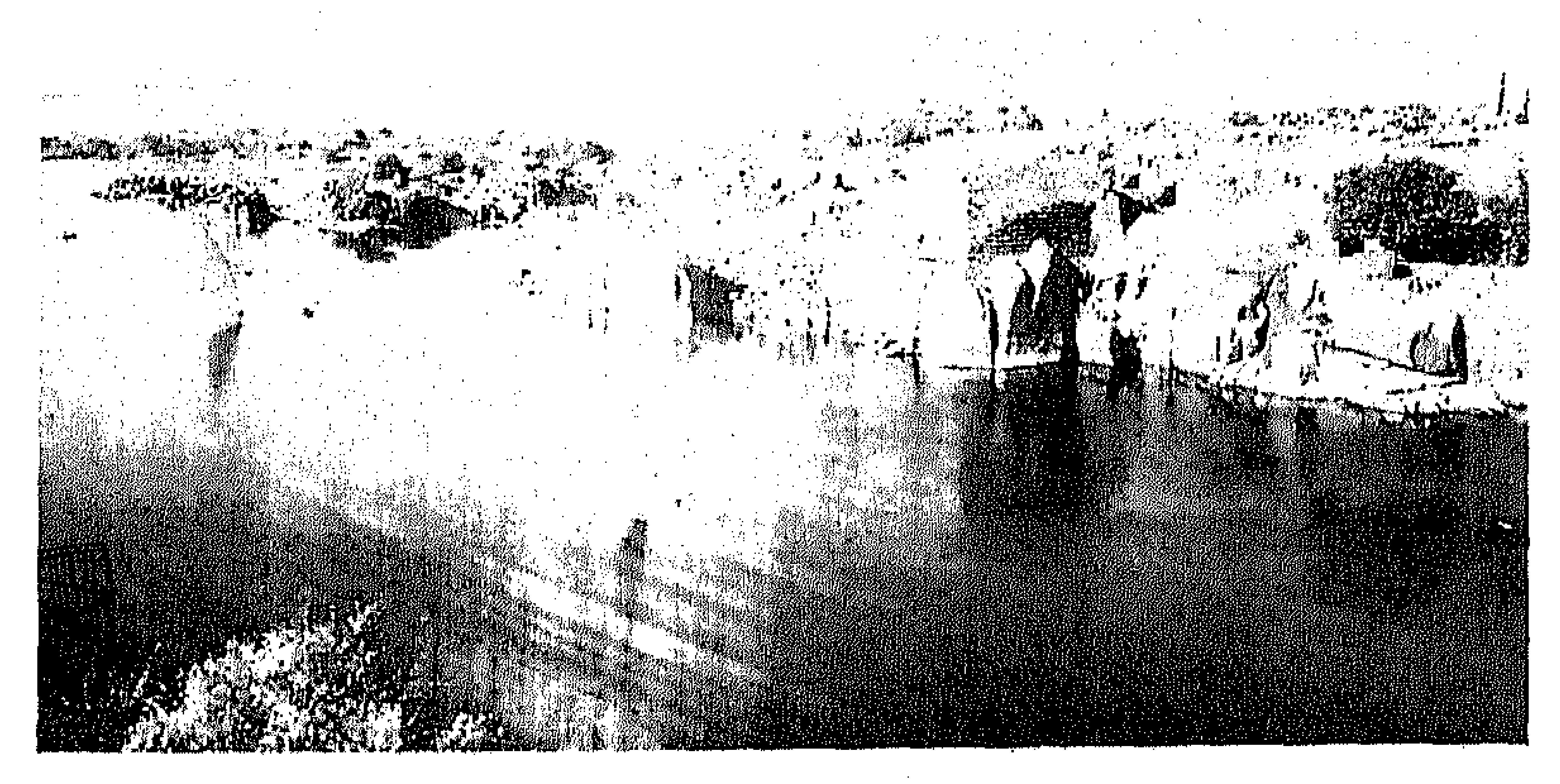
وسنرى ان ذلك يتطلب بعض الأعداد منهم للدخول في صف «الأتقياء». هذا النقص في الانتقاء، يشرح بعض الحوادث المدهشة داخل الحوليات الكهنوتية.

فضيحة اليفانتين[٧]

لننتقل إلى أقصى جنوب مصر، على مقربة من الشلال، حيث تقوم مدينة أسوان الحديثة التي تابعت دورها القديم في نقل كنوز افريقيا. في الصخر الغربي حُفرت قبور أمراء الامبراطورية الوسطى. وإلى الجنوب يقوم السد العظيم. ومن سلاسل الجبل الغرانيتي حيث المقالع الحديثة، صنعت المسلات والتماثيل. وفي وسط النيل تقبع جزيرة صغيرة، تضم بعض خرائب قرية رائعة، وساقية ينساب ماؤ ها تحت ظلال النخيل. على هذه الجزيرة السحرية حيث تتمهل القوارب في تقدمها، كان قد شيد قديماً معبد الاله «خنوم»، المصدم الرئيس للشلال، وحارس الخزانات السفلى، التي يندفع الفيضان منها في الوقت المناسب. في تلك المنطقة سنعيد فتح ملف عدلي قديم يعود إلى ٣٠٠٠ سنة، لأن هذا المعبد الهادىء الوادع الذي كان تحت حكم رمسيس الرابع ورمسيس الخامس (١١٦٥ ـ ١١٥٠) كان شاهداً على تلك المآسي المفجعة.

الظروف؟ يمكن تلخيصها ببساطة: لاشيء يسير على مايرام. فقد عرفت مصر قديماً غنى واسعاً لبضع عشرات من السنين، تحت حكم آخر ملوكها العظام رمسيس الثالث. لكن الملك العجوز مات بدون شك ضحية مؤامرة حرمة[٨]. ومنذ ذلك الوقت بدأت تُحكم البلاد من ملوك لاسلطة فعلية لهم، خاصة من بعض الانزال الطموحين الذين وجدوا في ضعف الدولة فرصة سانحة لتحقيق مآربهم.

نمت أسوان بهدوء؛ ولم يلاحظ منذ زمن طويل مرور قوافل النوبة، المثقلة بحمولتها من الذهب والعاج من بلدان الجنوب، كذلك غاب المنظر القديم المتألق لأقمشة البربر، وريش النعام، وحملتها من السود المزركشين بالذهب،



أسوان: منظر من جزيرة اليفانتين

والحيوانات الغريبة، كالقردة، والزرافات، والفهود، التي اقتادوها من الغابات الافريقية، تقدمة إلى فرعون......

ولم تتعد التجارة تخوم الجزيرة، والقرية الصغيرة الغافية على النيل. وبالمقابل، كان معبد أخنوم، ثرياً جداً، فقد اغتنى قبل بضع سنوات بفضل كرم الملوك. ووسط هذا الوضع الهادىء والواهن، عمد بعض الأفراد المترددين في الحصول على الموارد. لقد كانوا نفراً من كهان معبد أخنوم، **تابعين في مجال عملهم إلى موجههم بينانوكي**، وإلى نوتي يعمل في ذلك المكان، ويكسب من خبراته التقنية.

فقد اشترى هؤلاء الشركاء في الخدعة، السلطات، والكتبة، والوالي، بجزء من مسروقاتهم، وألقوا الرعب لفترة من الزمن في المدينة بضجيج جرائمهم، وبعد زمن قليل، كان الواجب يقضي بتوجيه الاتهام لهم، وظهر في نص الحكم المدون في هذه المناسبة تفاصيل فظائع أعمالهم.

لنطلع على بعض مقاطعه[٩]:

بدأت العملية على مقربة من المعبد، عندما أفتى بينانوكي زعيم العصابة،



تجار نوبيّون (من بلاد النوبة) قبر حوي (السلالة الثامنة عشرة)

بأن الحيوانات المقدسة ليس لها فائدة مرجوة للاله؛ فباعها بأسعار مخفضة للكهان والجند المجاورين. ثم قام خلال سفره إلى طيبة بالاشتراك في رواية غريبة تدوز حول «الوحي الالهي» (الاعتقاد بأن الاله يجيب بواسطة أحد الكهان عن أسئلة تتعلق بأمور الغيب)، فاستغلها لنفسه لارتكاب الموبقات، وأقدم على اغتصاب مواطنتين على أهبة الزواج.

يمكن قبول هذه الحادثة على نحو شاعري، لكن بينانوكي لم يتوان عن الاستمرار في تنفيذ أعمال ارهابية أخرى، فالمعبد في نظره، لم يكن بحاجة إلى غنى نوعي أو كلي، كالدواب مثلاً، معتقداً أن وجودها عقيم، وتسبب انزعاجاً دائماً، وهنا وجد منها فجأة دواء لارواء غليله وتخفيف آلامه.

لقد اغتصب من هذا المعبد أغلى تعويذة حامية، ونهب محتويات أحد الصناديق الثمينة، وسلب بالقوة كنزاً من أقمشة المعبد.

بعد كل هذا، لم يكن راضياً مثل سائر رجال الدين بما يجري في المعبد،

فاتفق مع شركائه من أجل تعديل ملاكه، ورفده بكهان أكثر انفتاحاً على الواقع. بدأ بإهانة وتعذيب بعض الكهان المعارضين، فقطع آذان أحدهم، وفقأ عيون الآخر، وأقدم على سرقة عشرين ثوراً كانوا مخصصين للمعبد، ومن أجل اخماد جذوة نزوته، أضرم النار في المباني.

ورغم قساوة التصرف، فقد وجد بعض الكهان الذين حرموا من المكاسب، في نزوات زميلهم المليئة بالحيل، أنها تشكل الجمال الساحر لأعماله، لكنهم بالمقابل تلقوا وعداً قاطعاً باطلاق يدهم في نهب كنوز الإلهة آنوكي. كذلك كاتب المعبد التابع للوالي، الذي ارتفع صوت غضبه، تلقى وعداً بزيادة ارباحه المئوية، فأعلن موافقته وتسامحه. ونظراً لموقف التسامح لدى السلطات الرسمية، والصاق نتيجة ماحدث بزعيمهم، شرع الكهان بتحطيم أختام خزائن كنوز الاله، وسرقة أكياس القمح، وستائر المعبد والثياب، وسائر الحاجات الأخرى التي وجدوا لها الاستعمال المناسب.

هذه الأفعال الشائنة، لم تكن لتمر دون سخط قوي، وخاصة من ذوي ضحايا تلك النزوات التي كلفت غالياً، فتقدموا باحتجاجهم الى السلطة العليا. وهكذا فُتح تحقيق في الموضوع الذي حُفظت لنا بعض نسخه. ماذا كانت نتيجة المحاكمة؟

للأسف، فإن النص لايتعرض لذلك؛ لكن بعض الكتابات المنقوشة على صخور الشلال الأول، خلال السنوات التالية، أشارت إلى أن الكهان المذكورين آنذاك في الدعوى - وبدون شكل المتورطين بشكل خطير - لم يتمتعوا بسبب أفعالهم بحياة هادئة.

هكذا لم تكن الصلاة والتأمل الديني الشاغل الوحيد والدائم للكهان المصريين، فقد بدأنا نشعر، أننا بعيدون كل البعد عن الأقوال المأثورة لـ«بورفير»، والثقة المطلقة التي أحاطت بنا منذ لحظات ونحن نقرأ على قواعد

تماثيل الكهان، سيرة حياتهم المقدسة! . . . . لنحتفظ ببعض الشكوك حول جانب غير متوقع في الحياة الكهنوتية، لأن العبرة التاريخية من عائلة بيتيزيس جاءت لترفع آخر مظاهر شكوكنا.

مصائب بيتيزيس[١٠]

حوالي عام ٥١٢ ق. م. عكف بيتيزيس المنحدر من عائلة كهنوتية قديمة متنفذة، على تدوين المشاكل والصعوبات التي واجهها أجداده منذ مايقارب ١٥٠ عاماً مع كهنة أكليروس الاله آمون في الريف. إنها قصة طويلة غريبة الأطوار، معقدة، يمكن اختصار معطياتها الرئيسة بالأسطر القليلة التالية:

في عهد الملك أبسماتيك الأول (٦٦٣ - ٦٠٩)، حضرت عائلة بيتيزيس الوثيقة الصلة بالجذور الكهنوتية الطيبية إلى مصر الوسطى، واستقرت في قرية صغيرة تدعى «تيدجوي» (الجبَّة شمال المنيا حالياً) حيث يقوم معبد الاله آمون. وحققت تلك العائلة هناك، ارباحاً من الموارد الكهنوتية الناتجة عن العمل في إحدى الوظائف الرسمية، التي كان مالكها الشرعي موظفاً سامياً هيراكلوبوليتاني، وقد تنازل لهم عنها.

من هنا جاءت مصائبه الفعلية. والحقيقة، إنه كان يوجد في مصر دائماً، تمييز بين نوعين من الأرباح، حسب الوظيفة التي تبررها ملكية شاغلها، أو بتكليف مؤقت بها من الملك. في الحالة الأولى تمنح الأرباح كما في الملكية الخاصة، لمن يمارس هذه الخدمة أو تلك، فيحق لصاحبها التصرف بها كما يشاء، من البيع إلى التوريث (نقلها للورثة)، بينما تظل الأرباح في الحالة الثانية مرتبطة بالوظيفة بمعنى أنها تابعة لها، فالمالكون هنا، يتناوبون على تولي المنصب، وفي جميع الأحوال تمنح الأرباح، إلى أشخاص جدد.

إلا أن بيتيـزيس وأحفـاده، لم يتـوانـوا عن اعتبار هذه الوظيفة بمثابة ملكية خاصـة لهم، يملكـون حق التصـرف في أرباحها التي كانت فعلاً من حق الموظف السـامي الهـيراكلوبـوليتـاني، وهـذا بلاشـك ادعاء غير شرعي، لكن كهنة آمون ومنـافسيهم، لم يكن لهم حق واحـد على الأقـل بها، إلا إذا عمـدوا إلى سحب أرباحها من بيتيزيس عنوة، واعادتها إلى مالكها الفعلي السامي الهيراكلوبوليتاني، وجُـلّ مايبغـونـه، استرجـاع الـدخل الكهنوتي الخاص الذي يملكه بيتيزيس، والـذي كان يرى أن له الحق بامتـلاكـه. هذا النـزاع على الحقـوق يشكل الجوهر الأساس لهذه المسألة التي استمرت طويلاً.

لكن قصـة بيتيـزيس، لم تكن إلا سرداً لمحاكمة قضائية عقيمة، إذا لم تكن حوادثهـا قد تداخلت مع قصـة مشـابهـة من حيث ردود أفعـال الطـرفـين في جميع مراحل هذه الخصومة اللامتناهية.

والحقيقـة، أن هذه المشـاهـد ستطلعنـا بشكل خاص على الوقائع العملية للحياة الكهنوتية في الريف. وإليكم بعض الفترات الحرجة من هذه النزاعات العائلية.

لنبدأ بجوهر الخلاف.

كان بيتيـزيس يتمتـع شرعاً بأرباح المسؤولية المناطة به، من مالكها الأصلي الموظف السـامي الهـيراكلوبـوليتاني حتى هذه النقطة بالذات، لم يكن لأحد حق الاعـتراض عليهـا. لكنـه عنـدمـا قام بدوره ووضعهـا تحت تصـرف صهـره «هـورودجـا»، ـ في الـوقت الـذي كان يجب عليه الاحتفاظ بها لنفسه، أو إعادتها إلى من أحسن بها عليه ـ قرَّر الكهان التخلص من هذا الانسان المزعج، واستعادة الأرباح، وتقاسمها فيما بينهم . . . . .

في الصبـاح عنـدمـا اجتمـع الكهان في المعبد لتوزيع الأرباح بين فئاتهم، حضر اثنان من أبناء هورودجا قائلين: هيا، ليكال لنا الخمس! في هذه اللحظة،

رفع بعض الكهان الشباب هراواتهم، واحاطوا بأولاد هورودجا وأوسعوهم ضرباً. . . هرب الشابان داخل حرم المعبد، لكنهم تبعوهما، وياللأسف! قبضوا عليهما في مدخل حرم معبد آمون، وأوسعوهما ضرباً حتى الموت. وألقى الكهان بجثتيهما في أحد المخازن داخل المعبد.

قامت «نيت حيمحات» والدة الضحيتين بالاحتماء في منزلها، وقدَّم هورودجا الأب، تظلما للشرطة، واستغاث بوالد زوجته لنجدته، لكنه عندما وصل، لم يجد أحداً. تماماً كما كان يحدث عادة في مصر العليا، عند نشوب قتال الثأر بين العائلات المتخاصمة، حيث يلتجيء الجميع للحقول المجاورة، ويختفي الجاني بعد تنفيذ جريمته، وتصل الشرطة إلى القرية فتجدها خالية من السكان. . . .

هكذا، نرى أن الكهان لايتورعون عن التنصل من مبادئهم، ولايتوانون عن تنفيذ الحلول السريعة. وكما هومتوقع، لم تقف هذه المسألة عند هذا الحد. فقد جاء رد بيتيزيس عنيفاً، لكنه انتهى بالعفوعن الجناة ـ قد يكون هذا العفوقد جاء حباً بمدينته ليجنبها نزوحاً لايمكن علاجه، أو اقتناعه بأن الاجراءات التي اتخذها لم تخل من التعسف والعنف. واستمرت الخلافات والمناوشات عدة سنين، واستمر كهان معبد آمون بمطاليبهم، في الحصول على جميع أرباح بيتيزيس ـ أو أن يتنازل مُكرهاً! عن جزء من الأرباح لمالكها الرسمي، وتظل عائلة بيتيزيس متصلبة بالمطالبة في حقها الوراثي.

لكن الكهان، يصبحون بدورهم ضحايا جشع المفوض السامي باغتصابه للأراضي الزراعية، ومصادرته بعض محاصيلهم، ومن أجل استرداد حقوقهم المغتصبة هذه، عمدوا إلى طلب الحماية من رجل يحظى بدعم البلاط، ولم يجدوا مايقدموا له من أجر، فاختاروا السمتاوي أحد أقرباء بيتيزيس لهذه المهمة، ومنحوه منصب «الرسول».

كان السمتاوي عالماً بالضغوط التي سيتعرض لها لدفعه إلى التراجع عن مهمته. فهرب من تيدجوي. عندها، لم يكتم الكهان الغاضبون غيظهم من رؤية الأرباح تعود للآخرين، فاندفعوا لاعادة حقوقهم باتباع طريق العنف.

في اليوم التالي، ذهبوا إلى منزل السمتاوي، ونهبوا كل مايملك، وهدموا بيته، ومكان إقامته في المعبد؛ كما أحضروا عاملاً بنّاء لهدم نصب اقامه بيتيزيس في المعبد. ثم حملوا تمثالين من الحجر، أحدهما كان على مدخل معبد آمون، والثاني على مدخل هيكل اوزيريس، وألقوا بالتمثالين في نهر النيل.

بالرغم من نفي السمتاوي وتخريب منزله، ومعرفته الأكيدة بالنفوذ القوي للكهان في البلاط بغية مضالحته، فقد ظل مع ابنه بيتيزيس (ثالث اسم) هادئين لفترة من الزمن.

ماذا سيفيد الاحتجاج؟

لقد استطاع بيتيزيس العثور على شخص يؤمن له الحماية، عندما أضحى من الصعب جداً القبض على الكهان الفارين، لسرعة اختفائهم. رضي السمتاوي أخيراً بالحل التحكيمي، وهو العودة إلى «تيدجوي» والاستقرار بها، دون أن يتمكن من استعادة أمواله وأرباحه الكهنوتية التي سُرقت منه.

المشهد الثالث: فقد طُلب من بيتيزيس بعد فترة قصيرة، كتابة قصة نزاعه مع كهنة آمون، وأن يحدد مسؤوليتهم في تدمير «تيدجوي» والأضرار بممتلكات سكانها، وبما أنه على دراية مسبقة بما ينتظره عندما يقول الحقيقة عن تلك الحادثة القذرة، فقد تلعثم في الجواب، ورفض الكلام، وأخيراً وبضغط من الحاكم، شرع في كتابة تقرير مفصّل وطويل عن الحادثة. لكن ردود فعل الكهان جاء فورياً وبدأت الانتقامات بعودة بيتيزيس إلى تيدجوي.

عندما علم الحاكم الجديد بما حدث، هرع إلى المعبد مع إخوته المسلحين بالهراوات، وانهالوا علينا ضرباً حتى أصبحنا كالموتى، عندها توقفوا عن ضربنا،

وحملونـا إلى برج قديم أمـام باب المعبـد، والقـوا بنـا جانبـه، بقصد هدم البرج علينا، ونقضي نحبنا تحت أنقاضه.

وللمـرة الثـانيـة، ينجـوبيتيـزيس العجـوز، لكنـه يظـل منهـوكـاً من شدة التعـذيب، لدرجـة أوجبت بقـاءه ثلاثة أشهر تحت رعاية الأطباء ولم تلق شكاويـه آذانـاً صاغيـة، وطـالت ظلامتـه. وفي النهـايـة عوقب الكهان بجلدهم، ومن ثم إخلاء سبيلهم.

اعتقـد بيتيـزيس أنه باستطاعته تحقيق السلام والأمن، فاعتكف في منزله، وصادف أن دخل عليه جيرانه الذين حملوا إليه نبأ سيئاً قائلين:

هل أنت فعـلاً بيتيـزيس العـائـد إلى تيـدجـوي؟ لافائدة من الاسراع في عودتك، فقد أحرق منزلك.

كانت آخر الشكاوي، في نهاية رحلة قصاص إلى «تيدجوي»؛ فقد اختفى الكهـان حسب خططهم المعهـودة، وهُـزم بيتيزيس، وبدا غير راضٍ، منخفض الـرأس، يعـود إلى مدينتـه، دون تعـويض عن خسارة، أوضمان للمستقبل. أما الـذي حدث فيـما بعـد، فهـوغير معـروف، لأن مخطـوط البردي يقف عند هذه النقطة، دون ذكر لنهاية القصة.

فيـما عدا ذلـك، فنحن نعلم بما فيـه الكفـايـة، عما يمكن أن يكـون عليـه الأساس القضائي للمشكلة، والمطالب اللاشرعية لبيتيزيس وعائلته، والأساليب اللاأخـلاقيـة، التي اتبعهـا كهان آمون، من سرقة العائدات الكهنوتية، إلى رشوة المـوظفـين، وحبـك الدسائس، والاختلاسات، ـ وعند الحاجة استخدام العنف والقتل ـ هذا الاعتراف الواضح يقدم لنا فكرة واضحة وغريبة عن الحياة الكهنوتية في بعض الحقب المزعجة من التاريخ المصري!

ماهو مصير العبادة عند وقوع مثل تلك المشاجرات في الريف؟ ماهو مصير

الاله عندما يهرب جميع الكهان إلى الريف خوفاً من رجال الشرطة؟ الأفضل عدم التفكير لاعطاء الجواب.

لايمكن التصور، بأن الحياة الكهنوتية بالنسبة لكثير من هؤلاء الكهان في الأقاليم، كانت تعني بشكل خاص، تأمين دخل مادي يضمن العيش لصاحبه، دون أن يتحمل ولوجزءاً بسيطاً من المسؤوليات، أودون التزام أخلاقي من أي نوع كان.

فهل شعر الكهان بالانتماء لالههم خارج أوقات الدوام؟ وهل قدّروا أهمية مهامهم؟ قد لانستطيع القول، أن قصة بيتيزيس هي قصة غريبة ومحزنة، لدرجة أننا لاندري فيما إذا كان يجب الوثوق بها، إلى جانب ضعف الايمان الذي نادراً ماظهر في بعض نواحي القصة وخلال سردها الطويل.

صحيح أن نَفَسك يعلو، هؤلاء الآلهة الكبار في تيدجوي؛ إله طيبة العظيم آمون يأتي إلى المعبد، وكثيرة العجائب التي عرفتها فيه.

وهكذا، فإن كل بحث عن حياة روحية، يبدومثيراً للسخرية أمام الوسائل والطرق المتبعة في ارتكاب الجرائم وممارسة العنف.

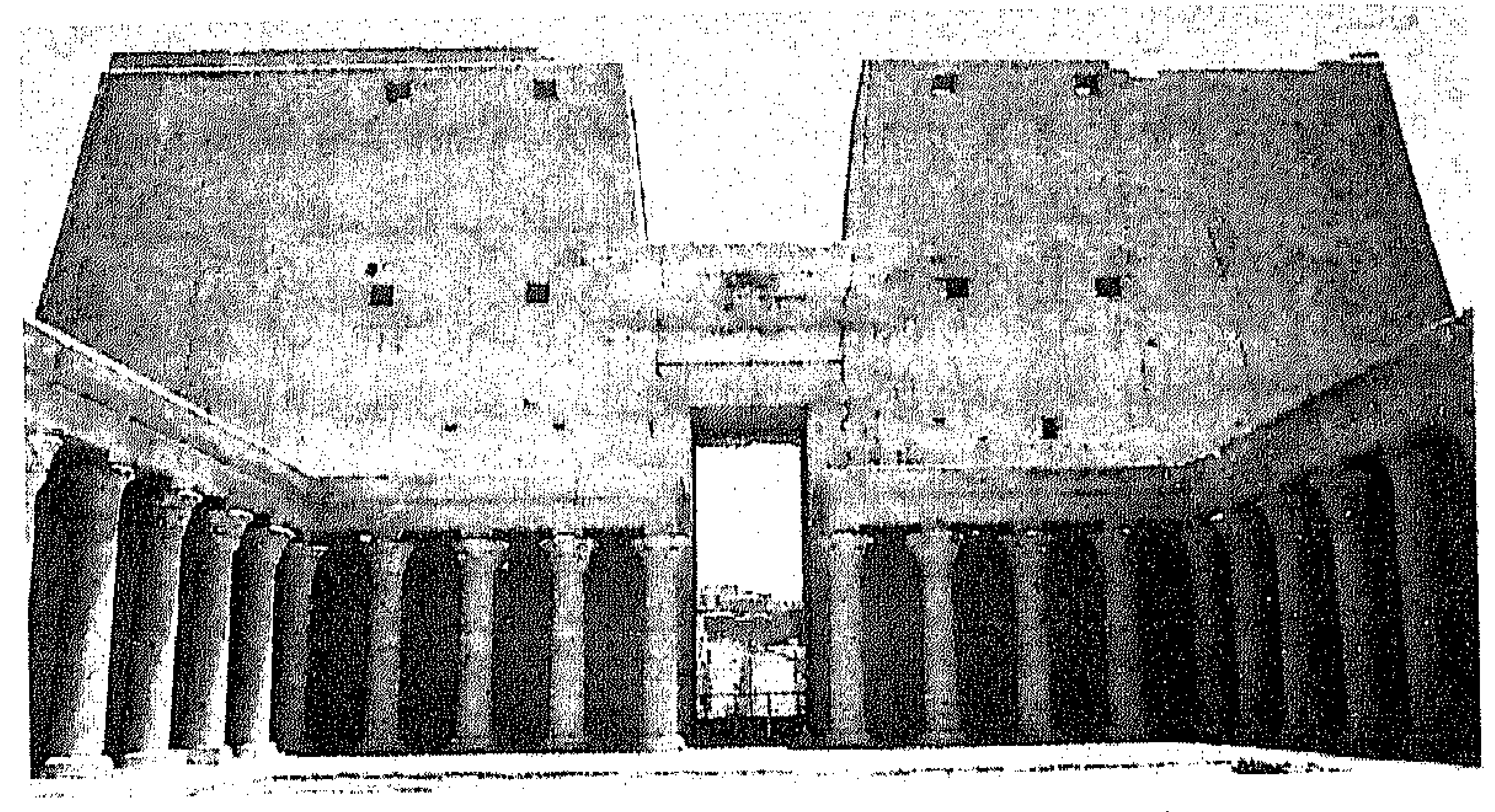
بعد هذه الحوادث المثيرة حقاً، والرائعة أحياناً، والمؤثرة في مجموعها، فما زال المجال مفتوحاً للعودة إلى تنقية الأجواء، لقد دفعت الصفة شبه العلمانية، وهموم الحياة اليومية، بالكهان لممارسة الآثام، كما ظل الاكليروس المصري عرضة لارتكابها بمختلف الطرق والأساليب. لقد أتينا على ذكر بعضها، لاثبات الناحية الانسانية ـ الانسانية المفرطة ـ في الموقف الديني للكهان. ومع ذلك سنرى أن الكهان أنفسهم، كانوا مدركين للأخطار التي تهدد حياتهم الأخلاقية، والتي تعتبر في كثير من جوانبها المثل الأعلى لوظيفتهم، وللتغلب بها على الاغراءات والاهمال التي يتعرضون لها في عملهم.

بعض النصوص من معبد أدفو[11] تحمل لنا العزاء والطمأنينة. وستكون

الفرصة مواتية للاطلاع على الطقوس اليومية المعقدة التي كانت تقام في هذا المعبد الكبير. من الثابت، أن التعب قد يدفع المحتفلين بالطقوس، إلى اختصار مدة إقامتها، وأن لا يمنحوا جميع كلمات النصوص الأهمية المطلوبة، أو التغاضي عن اختصار جزء من التوقيت الذي ينجزون فيه الطقوس المقدسة. هذه التجاوزات كان يجب على الكهان تجنبها: فالكثير من المهارات الجميلة لأكليروس معبد أدفو مسجلة ومنقوشة على أعمدة الأبواب التي كانت تمر منها مواكب الخدمة والتقدمات اليومية التي توضح التقيد بالانضباط، والمواعيد الدقيقة في ممارسة الطقوس، والتطبيق الحازم للأوامر المتعلقة بالطهارة والصبر. إن تصرف بعض الكهان ممن تراودهم أنفسهم بأخذ نصيبهم من التقدمات الالهية قبل اكتفاء الاله منها، لم يكن يخلو بأدنى شك من خطر الاخلال بالنظام العام.

أنتم أيها الأنبياء، الكهان الكبار الأتقياء، حفظة السر، كهان الاله الأتقياء، أنتم جميعاً من تدخلون حضور احتفال الآلهة في المعبد! أنتم جميعاً أيها القضاة، اداريو الحكومة، أيها المشرفون، الذين وصلتم إلى راتبكم في نهاية الشهر.... توجهوا بأبصاركم نحو هذا المقام، حيث وضعتكم فيه السدَّة الالهية! عندما يبحر الاله إلى السماء، فإنه ينظر إلى الأرض: وتكون علائم الرضا على وجهه حسبما يُطبق قانونه! لاتقتربوا منه وأنتم في الخطيئة، لاتدخلوا إليه وأنتم في الدنس، لاتتلفظوا بالكذب في بيته! لاتختلسوا مؤنه؛ لاتضاعفوا الضرائب بالاجحاف على الضعيف لمنفعة القوي! لاتتلاعبوا بالوزن والمكيال! لاتسلبوا أحداً مقدار صاغ، ولاتبوحوا بما هو سري في المعابد! لاتمدوا اليد للسرقة من بيته، ولاتذهبوا إلى حد السرقة من أمام السيد، حاملين بذلك في القلب نية تدنيس المقدسات! تشاهدون مؤونة الآلهة، ولكن هذه المؤونة لاتخرج من الهيكل إلا بعد اكتفاء الاله منها! الطريق الذي يسلكه إلى السماء، ينتقل به

للعـالم الآخـر، تبقى عينـاه تراقبان غلاله، هناك وأينما وُجدت. (ادفو III، الجزء الثاني عشر صفحة ٣٦٠، والجزء الخامس عشر ٣٦٢)[١٢].



معبد أدفو

يلاحظ أن الميول نحو ارتكاب الأخطاء كثيرة، وأن مايزعج الكهان لم يكن إلا الـتردد في الاختيـار. لكنـه قد يحصل بأن يكون رجل الدين مستقيماً صارماً في فترة خدمتـه، ومن ثم يتخلى بشكـل واضح وخطير عن أسلوب حياته بعد انتهاء خدمته واختلاطه بالشعب، هؤلاء هم قلة من الكهان الذين يقصدهم النص التالي:

لاتـدعمـوا كذبـاً ضد صواب بحـديثكم عن الالـه! أنتم بشر، أصحاب مقامات سامية، لا تمضوا وقتاً طويلاً دون ذكر اسمه، وعندما تكونوا غير مكلفين منـه، قدِّمـوا له القـرابـين، سبحـوه ومجِّـدوه في معبده. . . لاتترددوا على أماكن البغي، ولاتفعلوا ماهـو محظـور، لاتـرتكبوا حماقة، ولاتشربوا كأساً ملَكَه، الاله وحده يشرب داخل المعبد! لاتقوموا بالخدمة المقدسة حسب أمزجتكم! ماجدوى

تأملكم في الكتابات المقدسة: إن طقوس ومراسيم المعبد بين أيديكم، انها الدرس لأولادكم. (ادفو مجلد ٣ صفحة ٣٦١ - ٣٦٢ - ترجمة م. آليدن)[١٣].

ورغم دقة العبارات، فمن غير الضروري تطبيقها على كل جرم شائع مُقترف... قد يكون جائزاً وهذا ممكن أيضاً. مستند آخر ذو بعد أعلى، يختم هذه النصوص المأخوذة من المعبد الكبير (ادفو): إنه لايتكلم كثيراً عن النقائص لتجنبها، ولا عن اليقظة التي يراقب بها الاله أنبياءه. إنه على العكس، يضع في المقابل منافع الحياة الروحية، والشكر اللامحدود لمن يخدم إلهه بقلب طاهر نقي، ونفس لاتعرف الملل.

كم هو سعيد من يعظم جلالك أيها الاله القدير، من لاينقطع عن خدمة معبدك! من يرفع من شأنك، من يمجد عظمتك، من يغمر قلبه بك... من يمشي على خطاك، يقصد ماءك، يهتم بمقاصد جلالك! من يعبد روحك ضمن العبادات المخصصة للآلهة، ومن يتلو صلاتك... من يقود الخدمة بانتظام، وخدمة الأعياد، بدون جهل... أنت من تطأ طريق «رع» في معبده؛ من يسكن بيته ينهمك في ادارة أعياده، في تحضير قرابينه دون انقطاع: ادخلوا في سلام، اخرجوا في سلام، غادروا سعداء! لأن الحياة في يده، والسعادة في قبضته، جميع الحاجات الصالحة هناك، حيث يوجد: هذه الأطعمة من بقايا مائدته؛ هذه الأغذية لمن يأكل من قرابينه! ليس بؤساً، ولا شراً لمن يعيش من حسناته؛ لايتعذب إلى الأبد من يخدمه، لأن حراسته تمتد إلى السماء وأمنه يسود الأرض: حمايته تفوق حماية جميع الآلهة (ادفو الجزء الخامس ترجمة م. آليوت)[١٤].

اللهجة هنا أكثر اشراقاً وصفاء - والفكرة أكثر سمواً؛ لأنها لاتعدو أكثر من سرد لشتائم محظورة، مع تمجيد فضائل الحياة المكرسة في عبادة منتظمة للاله، والسعادة الفائقة الناجمة عنها. هكذا وبفارق زمني ألفي عام، فإن النصوص

البتوليمية من ادفو تجمع في صُلبها، النصح والتشجيع القديم في كتاب الحكمة لـ«مير يكار» (نحو عام ٢٠٥٠).

بعد أن ينجز الكاهن، خدمته الشهرية، ينتعل صندله الأبيض، ويدخل المعبد، يفتح الأماكن المقدسة، يطأ قدس الأقداس، ويأكل الخبز في بيت الاله. (١٥)

لم تكن الحياة الكهنوتية هيئة أوحالة روحية فهي باستطاعتها غرس المثل الروحي السامي، الذي يهبه الاله للصالحين الورعين وإضفاء السعادة والأمن والاستقرار لمن يمارسون الطقوس الدينية اليومية.

وإذا وجدنا أنه من الضروري اثبات بؤس الحياة الكهنوتية وعدم أهلية بعض ممثليها، فإن نصوص ادفو، ودعوات مريكاري، وأحكام بيتوزيريس، تجعلنا نلمس التقوى والغنى في الحياة الروحية لكثير من الكهان المصريين أياً كان الاطار الاخلاقي لوجودهم.

وللموضوعية، يجب الاقرار بأن الكهنوتية المصرية المنفتحة على مصراعيها، وخاصة الخاضع منها لنمط من التنسيب (الادخال في السلك الكهنوتي) غير النظامي، مقدر لها استقبال اعداد كبيرة من الفاشلين والمنتفعين، دون ماقيم أخلاقية وانسانية: إن أي تجمع انساني هام نوعاً ما، يحتوي بالضرورة على نمط من هذا الشعب البائس. يجب القبول أيضاً، بأن غالبية خدام مراسيم العبادة، كانوا منفذين شرفاء، وأصحاب ضمائر حية وذكاء بسيط، ومخلصين على الأقل لمهمتهم ومقتنعين بعظمتها وعلو قدرها.

لقد تمكنا من رؤية بعض هؤلاء الكهان، كيف يملكون حيوية وحميَّة رائعتين: باستطاعتها الانتقال للآخرين، مقدمين بذلك فكرة سامية عن الحياة الروحية والتأمل اللاهوتي اللذين وُلدا في ظل المعابد المصرية.

فهل استطاعت تماثيل المتاحف أن تؤثر فينا إيجابياً؟ بالرغم من صيغهم

المدائحية ورقابة ترديدها، فقد استطاعت زرع بعض الشكوك، إلا أنها وصلت في نهايتهـا إلى وضـع مثـالي من الحيـاة الروحية والاجتماعية الذي يُظن أنه كان متفق عليـه بين ممثلي الطبقـة الكهنـوتيـة. لكننـا مع ذلـك، لاحظنـا واقعاً لايرقى إليه الشـك، دفعنـا بالتـوغـل في دراسة الاكليروس المصري: **كاهن في وادي النيل**، لايمكن أن تكـون له صفـة مشـتركـة مع رجل عادي يشار إليه تحت هذا الاسم.

بعـد هذا العـرض السـريـع، وبعض هذه اللمحـات الخرافية التي أظهرت الجور والظلم، عندما اطلقنا الحكم السريع على مجموعة من البشر كانوا أكثر تعقيداً مما نعتقـد، يجب علينـا التفتيش في أسبـاب هذا الاختـلاف، وتحديد ماكانت عليه الوظيفة الكهنوتية من الناحية النظرية أولاً، ثم في الواقع والحقيقة اليومية ثانياً.

هوامش

١ ـ ج. لوفيفر: ضريح بيتوزيريس المجلد الثالث، القاهرة، ١٩٢٣ ـ ١٩٢٤، المجلد الأول صفحة ٧

٢ ـ ج. لوفيفر:

٣ ـ ج. لوفيفر المجلد الأول ١٩٢٤، صفحة ٣٧ ـ ٣٨

كلود لالويت: نصوص مقدسة، ونصوص مدنسة لمصر القديمة، فراعنة وبشر، باريس ١٩٨٤ بابيروس ٢٦١ ـ ٢٦٦

٤ ـ ج. لوفيفر أعماله مجلد ٢ عام ١٩٢٣ صفحة ٨٣ ـ ١١١٦

٥ ـ ج. لوفيفر أعماله مجلد ٢ عام ١٩٢٣ صفحة ٣٩ ـ ٦٢

٦ ـ ج. لوفيفر أعماله مجلد ٢ عام ١٩٢٣ صفحة ٣٥ ـ ٦١

٧ ـ عرفنا فضيحة اليفانتين من مخطوط بردي محفوظ حالياً في تورين «ايطاليا»، نشره ا. هـ. غاردنر بعنوان: وثائق رعمسيس الادارية: لندن ١٩٤٨، بابيروس صفحة ٧٣ ـ ٨٢

٨ ـ سيرج سونيرون: ثلاث شخصيات في فضيحة اليفانتين. بابيروس صفحة ٥٣ ـ ٦٢

٩ ـ مسألة قضائية أوردتها بردي محفوظ في متحف تورين.

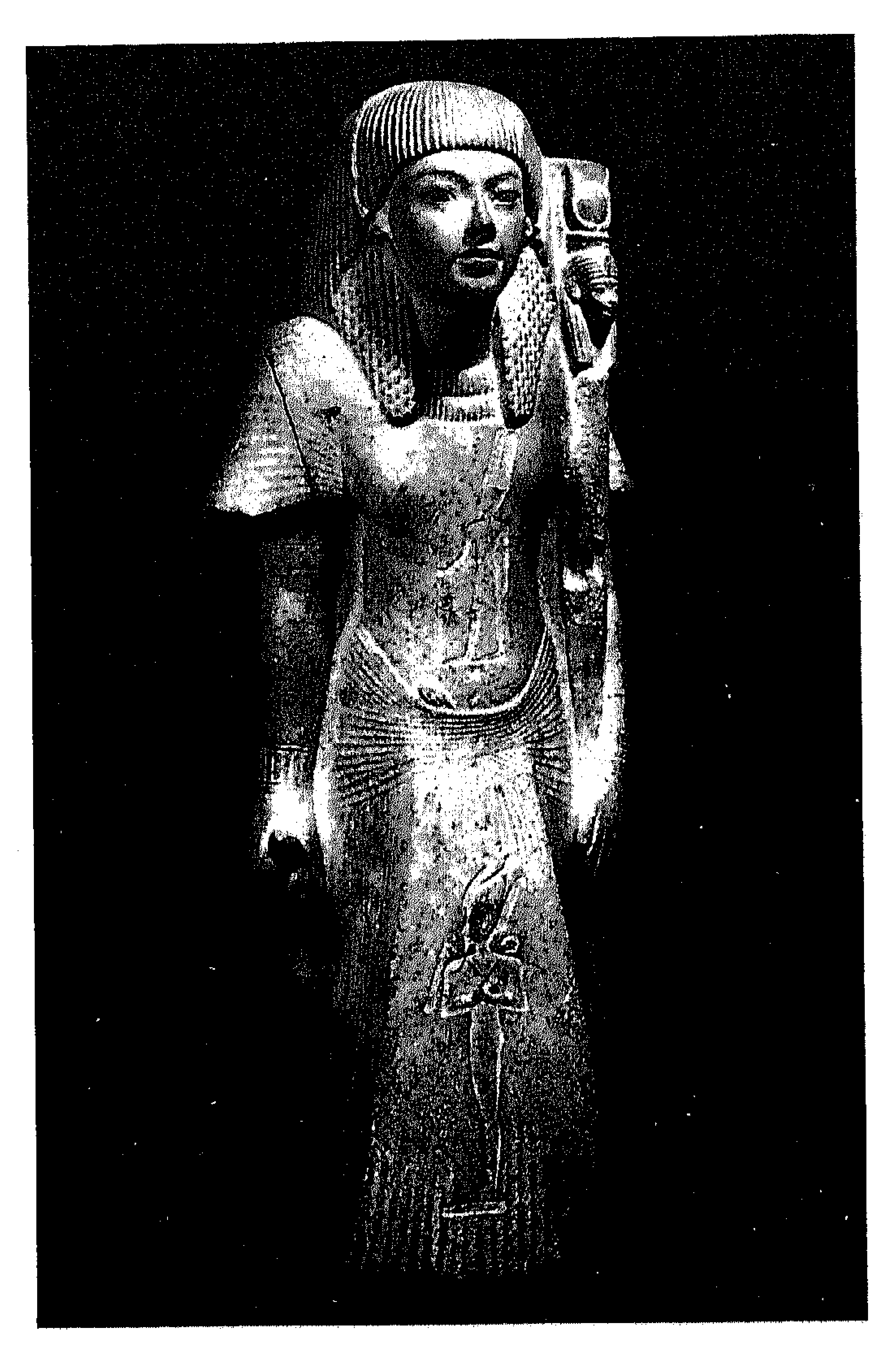
١٠ ـ وردت مصائب بيتزيس في بايزوس ريلاند التاسع.

١١ ـ نشرت منظمة FAO في القاهرة بين عامي ١٨٩٢، ١٩٣٤ معلومات عن معبد ادفوضمن أربعة عشرة جزءاً باشراف أي ـ شاسينات، الجزءان الأول والثاني بإشراف المركيز روشيمونتكس، وأعيد نشرهما بعد تدقيقهما عام ١٩٨٤، وصدر الجزء الخامس عشر بإشراف «د. ديفانشيل» عام ١٩٨٥.

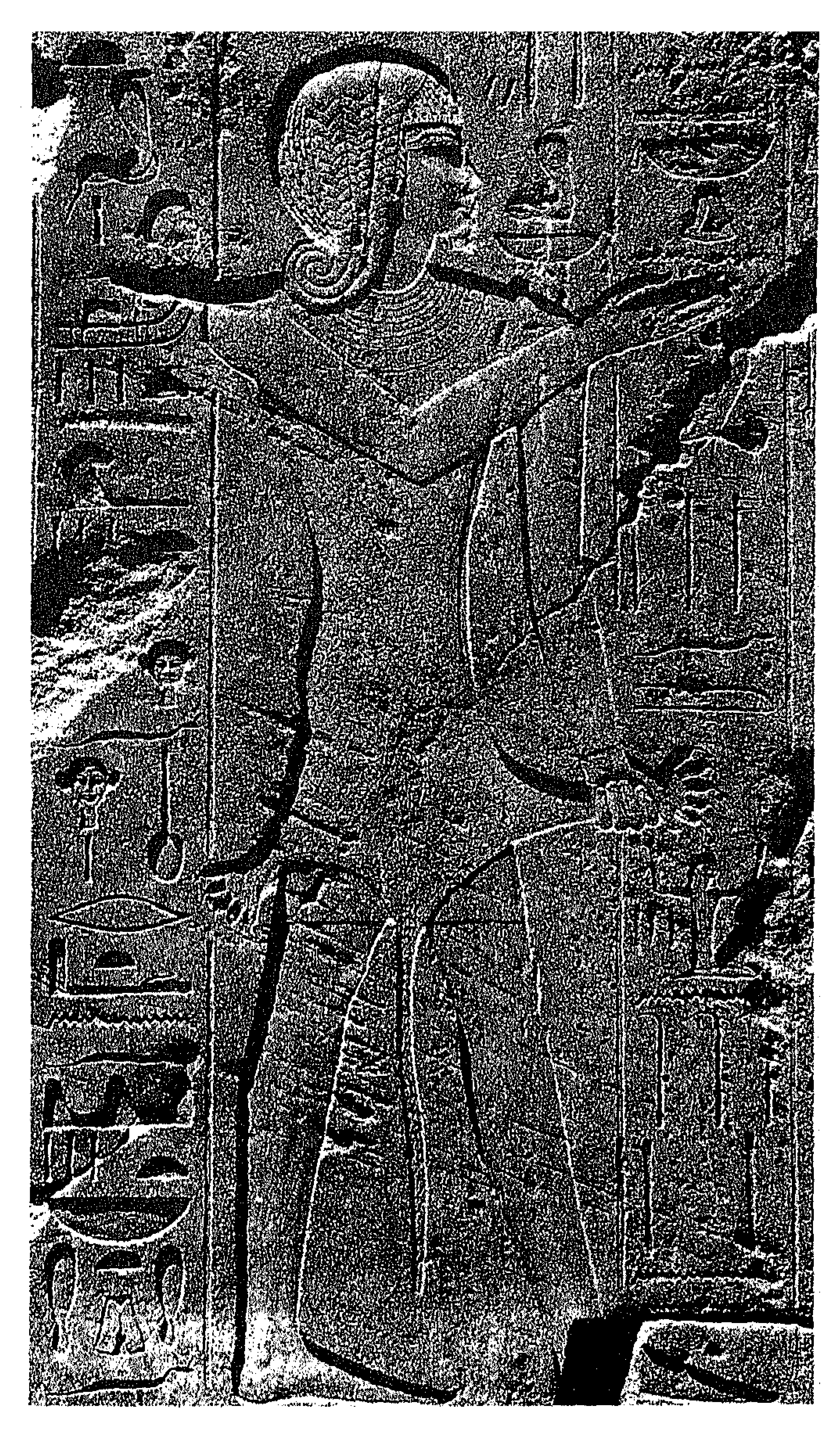
١٢ ـ آ. أليوت: عبادة حوروس في ادفو عهد بطليموس. القاهرة ١٩٥٤ ـ بردى، صفحة ١٨٤ ـ ١٨٥

١٣ ـ م. إلبرت مجلد ١ ص ١٨٦

١٤ ـ ليشتايم. الآداب المصرية القديمة الجزء الأول بركلي ١٩٧٣، صفحة ١٠٢



تمثال للكاهن حاتحور (السلالة الثامنة عشرة). اعتدي عليه من قبل شيشانك، أول نبي لـ آمون ـ رع (السلالة ٢٢). متحف القاهرة.



كاهن إيونموتيف ، مختص بمراسيم عبادة الملك الرباني نقش امينوفيس الثالث ـ كرنك .

٢

المهمة الكهنوتية

بلد غير قابل للتغيير، معالمه متشابهة دوماً؛ شمس لاتغيب عنه أبداً؛ نهر يمتلىء ويفيض كل عام، ليعطي الحياة على ضفافه: ضمن هذا الاطار، تشكلت النفس والروح المصريتان، وترسخت ميولهما الرئيسية، الفن، العقيدة، شكل الحياة، نمط التعبير، تأثروا جميعاً بتصور ساكن للأشياء اللامتغيرة في شكلها ونظامها الأزلي، تماماً، كما خلقت منذ البداية.

لحظة نشوء الكون، قامت الآلهة ببعث وإخراج الأرض المصرية من البحر البدائي؛ فقد فُصلت اليابسة عن البحر الذي كان يغطيها، وأرسلت الشمس إلى المحيط السماوي، ثم أوجدت الحياة على الأرض، حياة الانسان، والنبات والحيوان، والمياه المتدفقة، والتراب والسلاسل الجبلية والصخرية.... كل شيء تحدَّد منذ اللحظة الأولى، حتى الاسم والوظيفة المستقبلية، وفي هذا العالم، حيث لم يخلق شيء بمحض الصدفة، كالنظام المتواتر للظواهر الكونية والأرضية ـ توالي الليل والنهار، تعاقب الفصول الأربعة، فيضان وشح الماء، الولادة والموت ـ يفرض فكرة أن الكون قد تحدَّد منذ نشأته، ونُظِّم للأزل بأسلوب ثابت ومتشابه.

ومع ذلك، ففي طبيعة مصر الجغرافية تناقضات حادة، فإذا نظرنا إليها في

عزلتهـا ، فإنهـا بلد متحـد قائم بنفسـه ، وإذا نظـرنـا إليها من ناحية انقسامها إلى جزئين ، فإنها بلد غير متحـد . وقـد هيأت هذه الجغـرافية استعداداً لقبول ألوهية الملك . ولم يكن المصـريـون القـدماء ، قوماً يؤ منون بالأفكار السرية الغامضة ، ولم يكونوا أيضاً من الذين يتبعون التعليل الفعلي الحديث المبني على العلم ، بل كانوا قومـاً عمليـين يُقبلون على كل مايأتي بنتيجـة عمليـة . ولايعني ذلك ، أنهم كانوا صائبي الفكـر حازمـين ، حيث أن تفكـيرهـم لم يحاول على الاطـلاق أن ينفذ إلى لب أي ظاهرة من الظواهر ، لقد كانوا يؤ منون بالمذهب العملي للحياة ، ويأخذون الأمـر بيسـر وسهـولـة ، لذلك لم يحاولوا أن يجدوا الطريق الأوحد لأي مشكلة ، بل فضلوا أن يقبلوا طرقاً مختلفة ومتفرقة ، طالما أنها تقودهم لفائدة عملية .

لقـد كانـوا متسـامحين إلى أبعد الحدود ، أحراراً في تفكيرهـم ، أعطوا الحياة لكـل شيء في الكـون ، الشمس ، الـريـاح ، الماء ، الشجر ، الصخور ، ولم يجعلوا حداً فاصـلاً بين الحـالتـين سواء أكان انساناً أوحيواناً ، حياً أو ميتاً ، بشراً أم إلهاً . وقد سهّل عليهم ذلك الانتقال من البشري إلى الإلهي ، قبول العقيدة التي تنص على أن الفرعون الذي يعيش بين الناس ، هو من دم ولحم انسانيين .

إن التوازن في هذا العالم ، والعلاقة المنسجمة لعناصره ، وترابطها ، أمر لابدَّ منـه للحفـاظ على الكائنات المخلوقة ، إنه الشيء الذي يسميه المصريون «ماعت MAAT »* ، ماعت هو شكل العالم الذي اختارته الآلهة ، والنظام الكوني كما وصف بعنـاصـره الـرئيسة المؤ لفة له ، مثل مسار الكواكب ، تتابع الأيام ، وتوافق الأحياء وتقـواهم الـديني ، إنـه التـوازن الكوني ، وتتابع الفصول المنتظم ، واحترام النظام الأرضي الـذي حددتـه الآلهـة ، إنه الحقيقة والعدالة . العالم المخلوق بهذا الشكل لايتغـير ، مُحدَّد بمظـاهـره ومهـامه . إلا أنه مامن توازن دون خطر السقوط بغياب أحد عناصره . . . إنه كآلية معقدة جداً حيث يتمتع كل عضو فيها بحرية الحركة ، هذا العـالم لايستطيـع الاستمـرار في الحيـاة والمحـافظـة على البقـاء ، دون مراقبة

مستمـرة ومتـواصلة : الآلهـة بحـاجـة إلى ابن يغـذي ويحفـظ روحهـا الأرضيـة ؛ المخلوقـات أيضـاً ، تطالب بقائد ومرشد ، يضع لكل منها حدوده ودوره : لقد كان عقـل الانسـان لايتصـور المستقبل إلا وكأنه محفوف بالمخاطر، وكان يرى في الزمن المـاضي تغيـيراً ، وأحيـانـاً انحـلالاً ، فإذا استطـاع وقف الزمن فإنه يتخلص من القلق . وإذا نسبنا الظواهر المؤقتة والزائلة إلى قوة أبدية لايحدها زمان ، فإننا نقلل كثـيراً من شكـوكنـا ومخـاوفنا . وقد وصل القدماء إلى ذلك عن طريق الأساطير ، وكانوا يؤكدون أن تلك الظواهر وأوجه النشاط في دنياهم تعود إلى ومضات وقتية من النظام الرباني الثابت كالصخر. وإن خير ضمان للتوازن العام هوراعي البشر الفرعون الذي يجلس على عرش مصر، فهوليس انساناً زائلاً ، لكنه الإله الطيب الموجود منذ الأزل والذي سيبقى للأبد .



صورة هيروغليفية اسم ماعت
ضريح من خرويف
السلالة الثامنة عشرة

الـوظـيفـة المـلـكيـة

يجب البحث عن جذور هذه الفكـرة بلاشـك ، في الصمت الكبـير لما قبـل التـاريـخ ، في الـوقت الذي كان فيه زعيم القبيلة ، يجسد في شخصه القوة الحيوية لجميع أقـرانـه ، مترجمـاً ارادة الإلـه وأداة تنفيـذ عمله ، فكان مسؤولاً عن الحياة المعيشيـة للخـاضعـين له ، قادراً على التحكم بقـوة الطبيعـة التي يسيطـر عليها ، بفضـل سلطتـه التي تبدو سحرية غير محدودة : إنه نظام اجتماعي قائم على قواعد متشـابهـة ، أبرزت بجلاء وبالتدريج ، البنية الدينية والسياسية لمصر القديمة : فقد انطلقت بعض الجـماعـات أو الفئـات القـويـة ، بغـزوات نحـو المنـاطق المتاخمة ، وضمتها إليها ، وأقامت دولاً صغيرة عاشت في ظل صراعات دامية بقصد السيطرة الاقليميـة ، واستمـرت في حكمهـا قرونـاً عديـدة . ومنذ فجر التاريخ ، كان ملوك الجنـوب أوفـر حظـاً من أسـلافهم في إقـامة دولة في غاية التنظيم عمادها خليط من الجـماعـات الفوضوية ، ومنذ ذلك الوقت أيضاً ، لم تعرف مصر سوى ملك واحد ، سيد على عموم وادي النيل ، وارث روحي للزعماء الكثيرين الذين سبقوه .

رغـم ذلـك ظل سيـد وراعي الـدولـة الجـديدة ، على ماكان عليه سابقاً في مملكته الصغيرة ملكاً مستبداً يجمع السلطات بيده ، فهو مالك الأرض ومواردها ، المسؤول عن فيضـان النيـل ، وشروق الشمس ، وولادة الكائنات والنباتات وسائر الأحيـاء ، ابن الآلهـة ، يعتني بآبـائـه ، يستمـدُّ منهم السلطـة المطلقة على الأرض لحفظ النظام الذي حددته الآلهة .

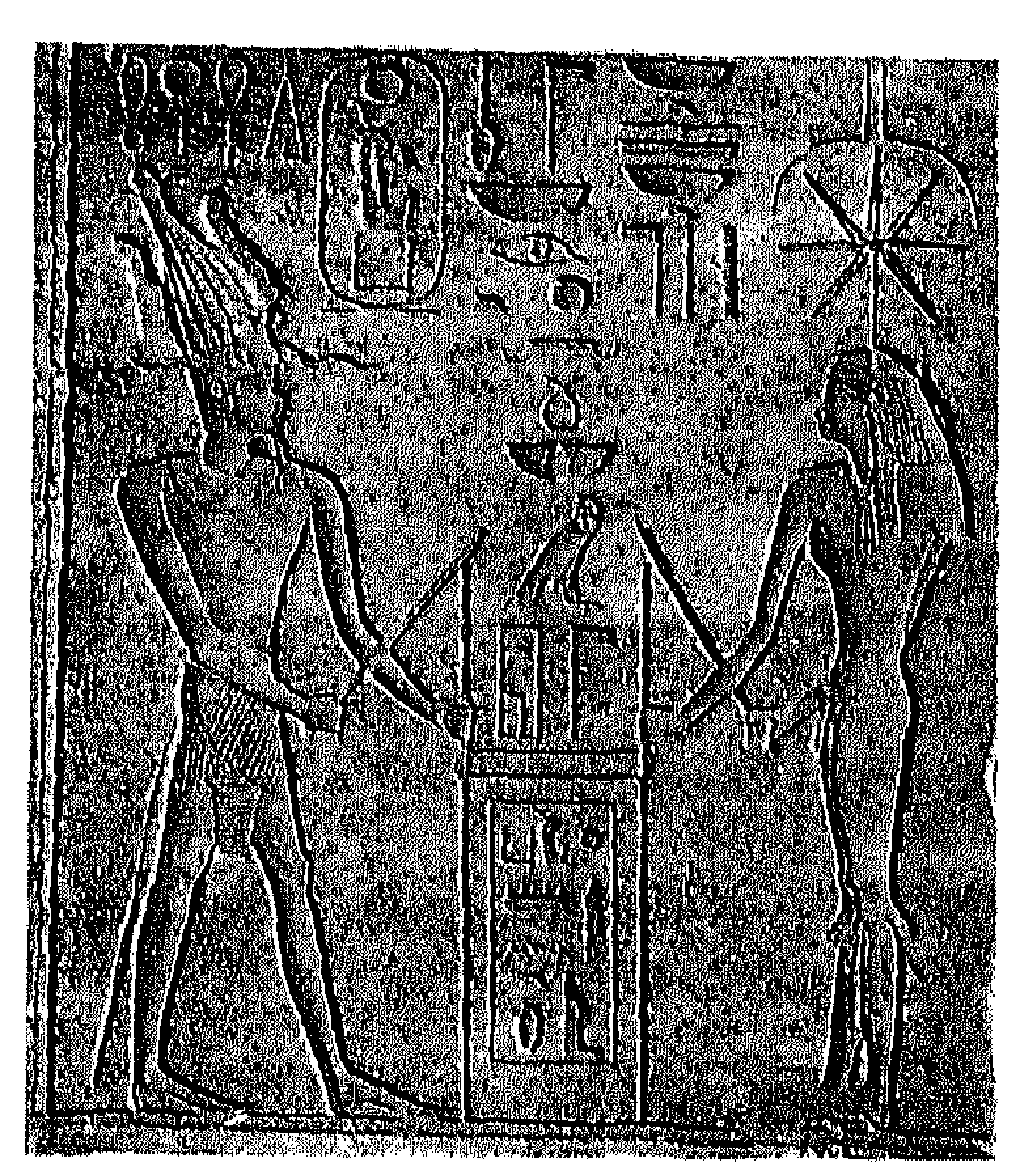
من أجـل استمـرار هذا التنـاسق وادامتـه ، كان لابـدَّ من المحـافظـة عليه بمستـويـين : الأول بتأثـير العامل المحرك ـ وجود الآلهة ذاتها ، والنشاط الرباني في العـالم بحيث يصبـح الملك هكـذا مسؤولاً عن العبـادة . ومن ثم المحـافظـة على

العناصر حسب المخطط المحدد: وبهذا الهدف يتعلق دور المشرع والقضائي للملك؛

حفظ النظام العام، تأمين عبادة الاله، تلقين القوانين للبشر، هكذا ستكون المهمة المزدوجة والرئيسة لملك مصر، من أول الفراعنة إلى آخر أباطرة الرومان والمجوس قرابة ٣٥٠٠ سنة ق.م.

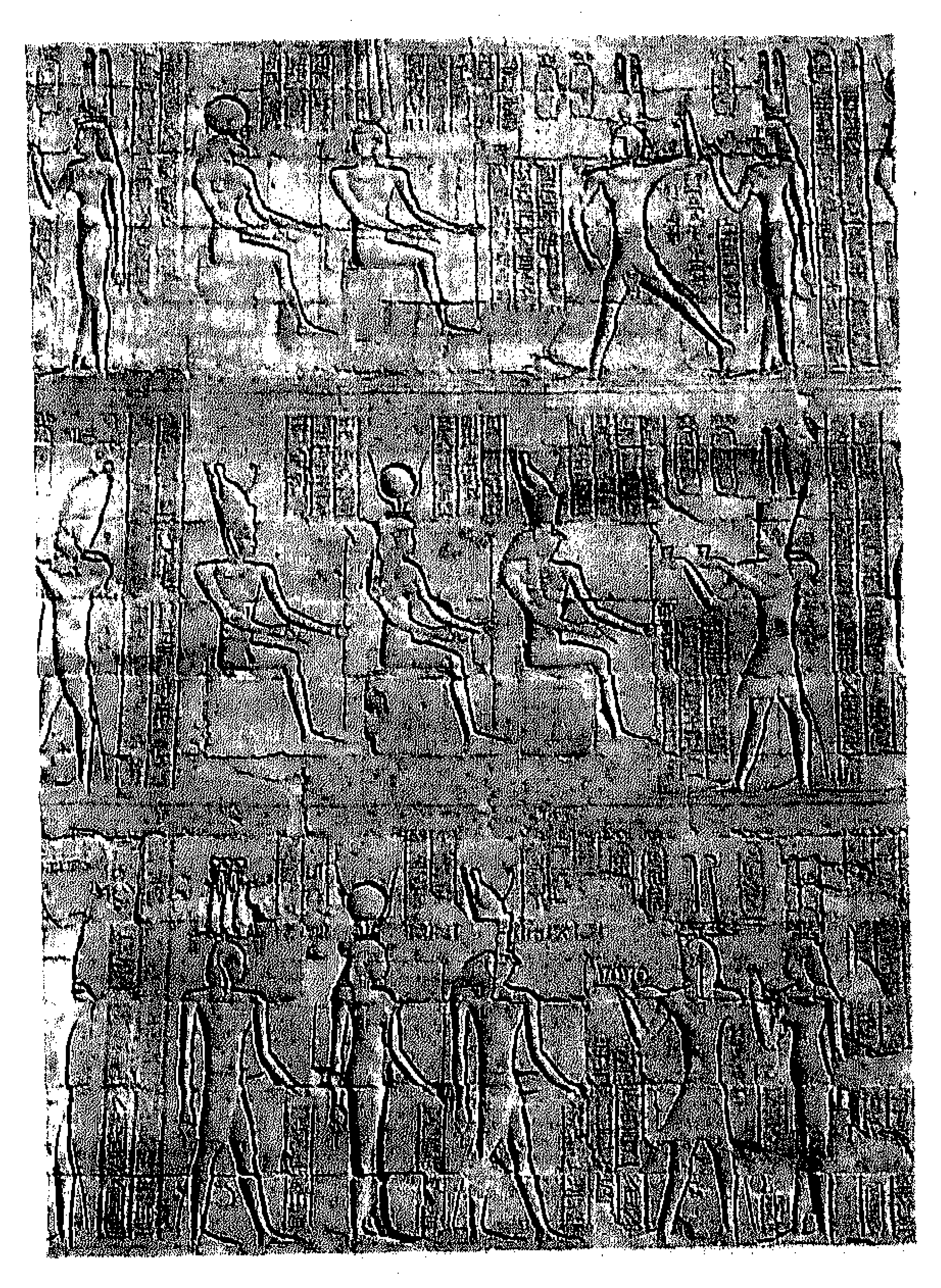
الحقيقة، أنه لاشيء ملفت للانتباه، أكثر من استمرار التثبت بهذه الفكرة المنتقاة عن الأنشطة الملكية. فقد أظهرت أولى النصب التذكارية المعروفة في مطلع الألف الثالثة، أعمال الفرعون الحربية والانشائية: المعول بيده، يقوم بحفر الأساس وغرس الأوتاد التي تسمح بتحديد ركائز معبد قيد الإنشاء واتجاه مداخله.

وعلى مدى آلاف السنين، وبتجوالنا العفوي داخل ردهات المعابد الكبيرة



مشهد تأسيس مسلة حتشبسوت، والربة سيسجات الهيكل الأحمر في كرنك.

في اسنـا أو في كوم ـ امبـو، فإننـا نرى مشاهد التأسيس والبناء نفسها، وقد انجزها الفـراعنـة أمثـال: اوتـوقراطو قيصر، سيفير، كركلا، أوديسيوس! ومن الغابات البعيدة في بانوني أو جرمانيا، حيث حملتها جحافل البشر بقوة وعزيمة إلى السدة الامـبراطـوريـة، هؤلاء الأباطرة الذين خرجوا عن المألوف، هل ساورهم الشك يوماً في المناطق النائية جداً، أنهم سيُعتبرون منفذين للطقوس المصرية؟



ادفو: الملك يؤدي الطقوس الدينية، والدعاء أمام الآلهة في المعبد.

كذلك، احتفالات تشييد وتدشين النصب المقدسة، يمكن وضعها ضمن الأعمال الرسمية التي تتطلب حضور السلطة العليا أو من يمثلها ـ إن تدشين بناء هام في عصرنا، نادراً ما يجري في غياب السلطة الرسمية، الخطابات وتناول المرطبات والمشروبات. . . والحقيقة، إن جميع الممارسات الدينية، كان ينفذها الملك نظرياً. فإذا ماتأملنا بجدار أحد المعابد، وبمشاهد تقديم القرابين، وإقامة الطقوس الدينية الطويلة والأدعية، فإننا سندهش لغياب الكهان؛ فالملك وحده، دائم الحضور في هذه الاحتفالات بتاجه المرصع بإطارين مزخرفين، والذي يفتتح بهما الأعمال الثقافية.

من الواضح أن كل هذا لم يكن إلا ضرباً من الخيال، فإذا قُدِّر لزعيم جماعة قديمة، ماقبل هذا التاريخ مثلاً بأن يكون الملك هو القائد الاداري والمشرف العام، ورجل الدين، فإن ملك مصر لم يكن بمقدوره الوفاء بالتزاماته تجاه الطقوس الالهية في جميع أنحاء المملكة. فبعد اختفاء العشيرة والقبيلة، وتشكيل الدولة الموحدة، أصبح الزعيم القبلي يسمى «فرعوناً» يمارس سلطاته الادارية والدينية من خلال منصبه، ولكن هذا المنصب كان رسمياً حسب ماأوضحته النقوش، والمهام الادارية والدينية أضحت بإشراف متخصصين متفرغين لانجاز أعمالهم، وهكذا فإن الوجود الفعلي للكهان يرتكز أصلاً إلى المفهوم الذي لايخولهم السلطات الملكية، لكنه باسم الملك أو الحاكم، يمارس الكهان المصريون الخدمة الدينية الربانية على سائر الأراضي المصرية.

وظيفة الاكليروس «رجال الدين»

من بين الوظيفتين الملكيتين الدينية والتشريعية، وظيفة واحدة تسمح للكهان بممارستها وهي الوظيفة الدينية. إن هذا الوصف الدقيق، والتحديد المتخصص لواجباتهم يتمثل في عبادة الآلهة وخدمتها، مع مايرافقها من المظاهر

الخارجية اللازمة لتلك الخدمة، ولكن لم يكن للكهان أي دور اجتماعي وروحي إلا في مجال ضيق ومحدود جداً، ولابد لنا من الحذر بمبالغتنا في عبارة **كهان**، كأن نعتبرهم مثلاً حراساً لحقيقة تُوحي بأنهم طائفة، تعيش على هامش المجتمع، لاتختلط به إلا من خلال خطبها ومواعظها الحماسية نحو حياة خلقية غنية، وعبادة يسودها التقوى، وخدمة دينية أكثر نشاطاً وإخلاصاً. كلا، إن للكهان المصريين دوراً محدداً جداً للقيام به، كممثلين للملك، الخادم الوحيد الذي يملك هذا المنصب: المحافظة على كمالية واستمرارية الحضور الإلهي على الأرض في قدس الأقداس، حيث مسكنه الدائم، ويساهم عملهم من جهة، في الدور اللاهوتي الرئيسي للسلطة الفرعونية: إبقاء الكون على صيغته، كما خلقته الآلهة: وهذا عمل أخصائيين، ونزوة تقنيين، وبعد ان تكتمل الأعمال المادية الضرورية للحصول على هذه النتيجة. فإن مايمكن أن يفكر به الكهان أو يعملوه لاقيمة له. وفي المفهوم المتشدد للدولة نسبياً، فإن الكهان بمقارنتهم بأنبياء اليهود، وكهنة المسيحية، لايملكون شيئاً مما لهؤلاء، إنهم رجال عاديون كالآخرين، لايتمتعون بأي ميزة ربانية، ولايحق لهم اقناع الناس، ولاتبديل دين الودعاء؛ إنهم موظفون مفوضون من الملك، مكلفون نيابة عنه بإقامة بعض الطقوس، أو المراسيم المادية الضرورية للصالح العام. لادخل لهم بالدين الشخصي للشعب، وإذا استطاعوا أن يكونوا ذات يوم مفكرين أغنياء، أو قديسين، فإن ذلك بفضل ميولهم الفردية، وليس نتيجة اندفاع قسري لنشاطهم المهني.

دواعي الكهنوت

إذا لم يتطلب الكهنوت تعهداً أخلاقياً حتمياً أو ـ كما سنرى فيما بعد ـ تكويناً

تقنياً خاصاً، فهو يستدعي بالضرورة، توفر بعض شروط الصفاء الجسدي لدى الكهنة المدعويين للدخول إلى المعبد.

البناء المقدس، كما عبرنا عنه في الفقرة السابقة، ليس له سوى بعض النقاط المشتركة على مانفهمه اليوم من كلمة معبد: فالمعبد هنا، ليس المكان الذي يؤدي فيه المؤمن شعائر الصلاة أو الدعاء إلى ربه، ولا البناء الذي يجتمع فيه المؤمنون للتأمل الروحي، وليس هو المكان الذي تقام فيه الطقوس والشعائر الدينية المقدسة من أخصائي أمام جمع خاشع متأمل.

إن المعبد المصري لايقبل الجموع: فمنذ الدخول إلى قدس الأقداس (حرم المعبد)، هناك سلسلة من الأبواب تحمي بفاعلية وقوة، المكان المقدس من الأخطار الخارجية: الظل يتحرك لمن ينتقل من غرفة إلى أخرى، ليصل إلى وسط البناء، السقوف تنخفض، الأرض ترتفع، ومع احساس بالخوف المتزايد بين لحظة وأخرى، يجد الزائر نفسه أمام مدخل الهيكل، الموصد بعناية، حيث يقف التمثال الالهي . . . . لأن المعبد المصري هومكان من الأرض ينشر الاله منه ظله على العالم، يملك عليها تمثالاً، يجسد فيه كل صباح جزءاً من جسده غير المادي، إنه صورة مقدسة، يقضي الواجب الديني كساءه وإطعامه، وحمايته من الأرواح الشريرة المتربصة به دائماً، لتوجيه بعض الضربات الحاقدة له.

كذلك الرجال الذين يريدون دخول المعبد، رغبة بالعيش اليومي إلى جوار الصنم الرهيب يجب أن تتوفر فيهم بعض الشروط الأساسية من الطهارة الجسدية.

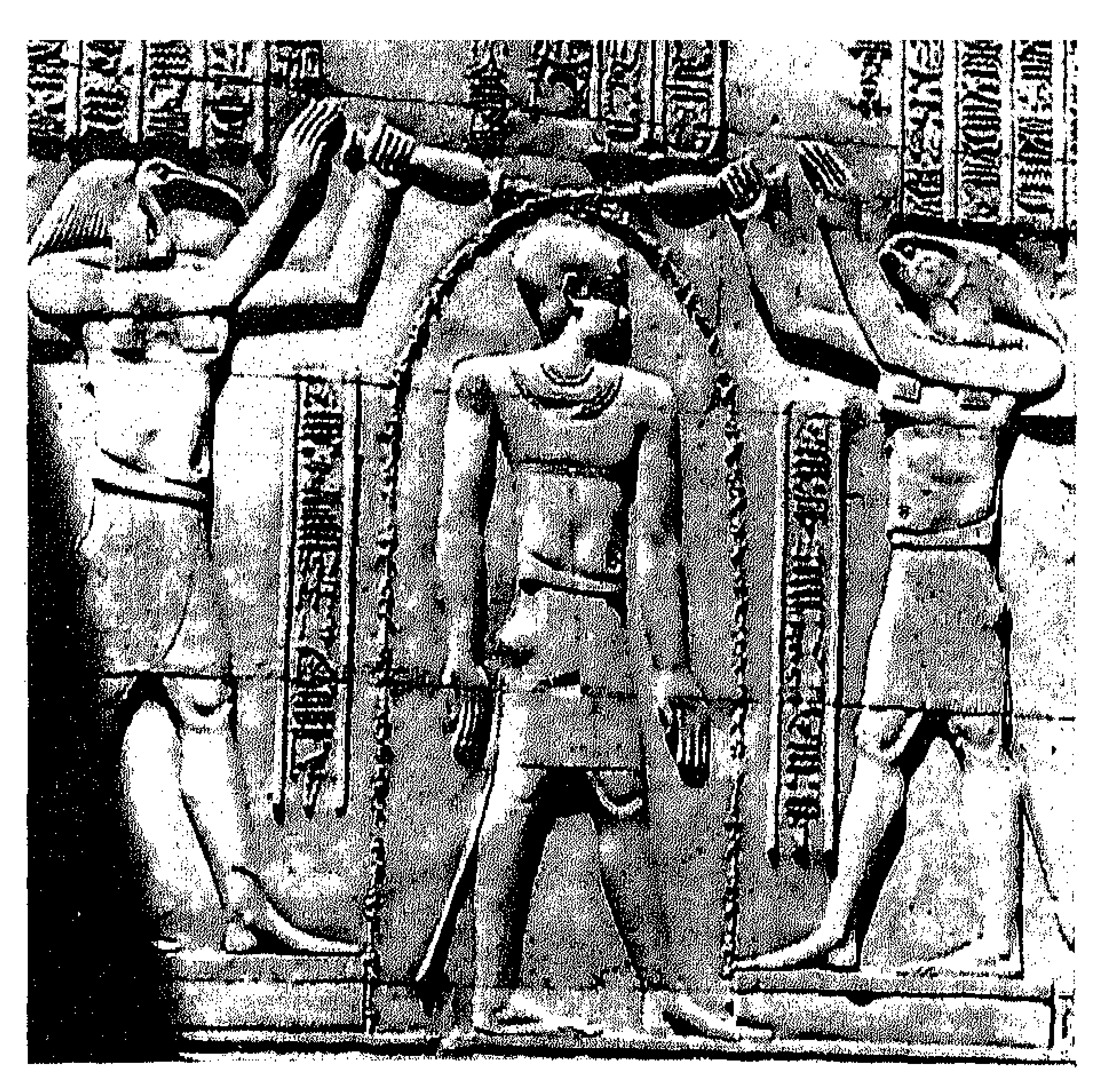
يذكر النص نفسه، فئة عادية من الكهان الاتقياء، أو الطهورين، الذين يقومون بالاغتسال الأولي، «**يجب أن يغتسل المحتفلون أو القائمون على الخدمة من كل دنس بالماء البارد مرتين في النهار ومرتين في الليل**. (هير ودوت مجلد ٢، ٥٧). تجري هذه التنقية الجسدية في البحيرات المقدسة المجاورة للمعابد؛ قبل البدء في الخدمة، وعند الصباح، ينزل الكهان إلى حافة الماء، ويرشون الماء

المقدس بغزارة على أجسادهم، وعندما لاتتوفر البحيرة، فإنهم يستخدمون حوضاً من الحجر، أو كأساً كبيرة[1].

بهذا الطقس، أمكن الوصول إلى رمزية كاملة، الماء في التفكير الديني هو في الحقيقة العنصر الأول الذي خرجت منه الحياة ـ والوسط الذي تموت فيه الشمس عند الغسق، لتجدد شبابها وطاقتها وتسطع في الغد من جديد ـ تُظهر بعض النقوش البارزة، مشهداً من مشاهد الطهارة، وهو استبدال البحيرات بالماء المتدفق من آنية على شكل قطرات المطر، دليل اشارات صغيرة للحياة! إن الاغتسال في الصباح، يمنح القائمين على الخدمة حياة جديدة، تسمح لهم القيام بخدمتهم اليومية دون خلل أو دنس.

شكل آخر من الطهارة المادية، التي يخضع لها الكاهن قبل دخوله المكان المقدس، ينص على غسل الفم بقليل من ماء الملح، وثمة مطلب آخر اجباري للحياة الكهنوتية يتضمن نزع الشعر من جميع أنحاء الجسد. **يقوم الكهان بحلاقة أشعار جسدهم كل يومين** وكما يقول هير ودوت[2]: **حتى لا يدنس القمل، ولا الطفيليات ولا النجاسة ممارسة طقوس عبادتهم**؛ وقد أظهرت النقوش والتماثيل، مناظر لبعض هؤلاء الرجال ذوي الرؤوس الملساء الحليقة كلياً؛ يبدو أن هذه العملية (حلاقة الشعر)، شكلت فرضاً صارماً على الكهان، يعاقب مخالفها بدفع غرامة ألف دراخما، وقد طبقت هذه العقوبة في العصر الوسيط على الكهان الذين يعفون من هذ الاجراء، وتشير مختلف النصوص، بأن على الكهان، نزع أشعارهم، شعرة شعرة، حتى الأهداب والجفون! . . . . . ذلك كان اجراء عاماً مطلقاً، فقد وصل إلى علمنا، أن الرحالة اليوناني «أودوكس دوسنيد» الذي توجه إلى كهان مصر في مهمة تدريب على العلوم الجديدة، لم يُقبل بينهم إلا بعد نزع أوبار جسده وجفونه وأهدابه (ديوجين لايرس مجلد ٨).

تقليد آخر متصل بالاهتمام بالنقاء والطهارة الجسدية: الختان[3]: **كانوا**



كوم أومبو: بتوليميه الثالث عشر يتطهر (يغتسل) من حورس وتحوت

يُختنــون حرصــاً على النظـافـة، لأنهم كانوا يضعون النظافة في أعلى سلم الجمال (هـــيرودوت II، ٣٧). ولم يكن المـــرشحـون للسلك الكهنـوني مختونـين، لأنـه باستطـاعتهم الانخـراط في هذا السلك وهم في سن مبكـرة، ولكنهم قد يخضعون لعملية الختان في الوقت الذي يستلمون فيه رسمياً مهمتهم، وقد أصبح الختان في عهد الأمبراطور «هادريان» سمة مميزة للكهان. تحت أي ظرف شاع استعمال هذا التقليـد؟ وهـل كان يشكِّـل في سالف العصور أحد الشروط الضرورية للكهانة؟ هذا مالانستطيع قوله، ولم يبـذل كهـان ذلـك العصـر جهداً في ايجاد المبررات والقـواعـد الـلاهـوتيـة لهذا التقليـد: ألم يشرح القديس أمبروز، بأن هذا الوقار لايـوجـد إلا في النفـوس الطـاهـرة النقيـة، وإن هذه الشهّادة بالاخلاص للقضية المقدسة، كانت تُبعد ملك الأبالسة.



الختان: ضريح عنخ ماحور
(السلالة السادسة) زقارة

وباعتقاد المؤلفين اليونانيين واللاتين، أن كهان مصر، لم تكن لديهم فرصة التمتع بلذيذ الطعام. فقد رسم هيرودوت بلاشك لوحة جذابة، لوجبات طعامهم، لكن الرحالة الذين أتوا بعده، لم يكن لهم رأيه: فقد نقلوا إلينا الحقيقة أنه يجب على الكهان الصيام عن كل شيء تقريباً: كالامتناع عن أكل لحم الرأس، والقوائم الأمامية للحيوانات المذبوحة، تجنب أكل لحم البقر، والخنزير (ارستاغوراس دي ميليت، فلافيوس جوزيف، بلوتارك)، كما حُرِّم أكل النعاج (ارستاغوارس) والحمام (شيرمون) والبط (هورابولون) والأسماك، وخاصة البحرية منها، والخضار (بلوتارك)، والفول (هيرودوت)، والثوم (بلوتارك) الذي كان مكروهاً لرائحته، أما النبيذ، فكان يُشرب بجرعات صغيرة، عندما لا يراد الامتناع عنه بشكل تام (بلوتارك)، حتى الملح كمادة مدمرة إذا وُجد، فلا يضاف للأطباق (ارستاغوراس، بلوتارك)...

مساكين أنتم أيها الكهان......

إضافة لذلك، كانوا مجبرين على الصيام، وحرمان أنفسهم لكثير من الأطعمة التي سُمح لهم بتناولها، لكن الحقيقة تبدو خلاف ذلك، فالخضار والحيوانات المذكورة آنفاً، كانت محرمة فعلاً في بعض المناطق المصرية، ولكنها ليست جميعها على هذا القدر من التحريم. فالمحرمات الغذائية كانت تتعلق بديانة منطقة نوم[4]؛ بعد هذه المغامرات البائسة التي تذكرها الخرافة، فإن إله كل أقليم ديني يمقت حيواناً معيناً ـ ونادراً مايمقت النبات ـ وكان من واجب كهان ذلك الأقليم، الامتناع عن استهلاك لحم أو حليب ذلك الحيوان؛ لكن هذا التحريم، لايتناول سوى كهان الاقليم المتصلين بعبادة ذلك الاله، ومن جهة ثانية، فإن الحيوان المقدس يكون عرضة للتغيير حسب الإله المفضل، فقد يكون الحيوان محرماً على موائد منطقة ما، بينما المدينة المجاورة لاتحرم نفسها من الاستهلاك الطبيعي له.

ونتيجة لذلك، وقعت مصادمات ونزاعات بين القرى والحواضر، استمرت طويلاً: ويروي بلوتارك في كتابه (ايزيس واوزيريس)، **أن جماعة من سكان النيل (الأوكسيرانشوس)، قد احتجزوا جماعة من سينوبوليس لأنهم أكلوا سمك الأوكسيرانك (سمك نهر النيل)، وسلبوا كلابهم وحرقوها وأكلوها كتضحية. من هنا بدأت الحرب بين المدينتين اللتين عانتا كثيراً من ويلاتها، ولم يسوَّ هذا الخلاف إلا في عهد الرومان الذين فرضوا عقوبات صارمة بحق المدينتين المتحاربتين،** ثمة وسيلة أخرى ناجحة ليصبح الحيوان مكروهاً من الجوار، تقضي بوضع الحيوان الذي يشكل دعامة إلههم في القدر.

يُفهم من هذه الحالات، أنه يجب على الكهان أن يمنعوا وحسب المكان جموع الناس عن تناول هذا الطعام أو ذاك، حسب المتطلبات الدينية للإله القائمين على خدمته.

لنقل أخيراً، أنه يُجب على الجنس الكهنوتي أيضاً، أن لاينخدع وينساق باتجاه المسرات والملذات الزائفة، ولايندفع وراء موائد الطعام الفاخر، أو الشرب

حتى الثمالة[٥]: لقد كان كهان **كوبتوس** الذين استقبلوا **ساتني** وبشر نبتاح الشهير[٦] في ممفيس، رفاقاً لبتوليميه أوليت، يعيشون مثله حياة رغيدة. فقد خطرت للأخير فكرة ترمي إلى تشجيع حياة الرفاهية، فكتب على نصب جنائزي لاحدى نسائه: **أيها الأخ والزوج.. كاهن بتاح، لاتتوقف عن الشرب، الأكل، السكر، ممارسة الحب، قضاء أيام الأعياد، اتبع قلبك نهاراً وليلاً، لاتضع الحزن في قلبك، ماهي هذه السنون، وماعدد التي تعيشها على الأرض؟...** كل مانعرفه، اتاح لنا الاعتقاد، بأن الاعتبارات السابقة، كانت تشجيعات واهمة وباطلة.

وتتطلب الحياة الكهنوتية أيضاً نمطاً آخر من الطهارة والتقوى الجسدية، بالامتناع عن العلاقات الجنسية خلال فترات العبادة على الأقل، فالكهان المصريون كانوا يتزوجون: ولم تكن مهامهم تفرض عليهم البقاء دون زواج. وحسب اعتقاد ديودور الصقلي (١، ٨٠)، فإن الكهان قد قبلوا الزواج بواحدة، بينما سُمح لمن هو خارج المعبد بالزواج بعدة نساء، ولم يكن هذا السماح أو المنع عامّاً، بشرنبتاح مثلاً أقام لنفسه حريماً خاصاً حقيقياً. هكذا تبدو حياة الكهان غير متساوية، تبعاً للحالات التي يعيشون فيها، لكن يتوجب عليهم وهذا أقل تقدير أن يكونوا أتقياء طهورين لدى دخولهم الحرم المقدس: **الامتناع عن مجامعة النساء في الأماكن المقدسة، عدم الدخول إلى أماكن العبادة بعد الخروج من أحضان المرأة دون الاغتسال** يقول هيرودوت: **جميع الرجال يمارسون الحب في الأماكن المقدسة باستثناء المصريين واليونانيين، يدخلون إلى المعبد بعد خروجهم من أحضان النساء، دون الاغتسال، لأنهم يظنون بأن الرجال هم في نفس مرتبة الحيوانات، وينظرون إلى هذه الأنواع المحنطة كفأرة مجنحة (الوطواط) تمارس الحب في ظلام المعابر والأماكن المكرّسة للآلهة، وإذا كان هذا الفعل لايروق للآلهة فيجب على الحيوانات الامتناع عن ممارسته أيضاً.** حول هذه النقطة، تبدو

النصوص المصرية صريحة وواضحة: من كان يريد دخول المعبد يجب أن يكون **طهوراً نقياً من أي علاقة جنسية بالامتناع عنها لعدة أيام**[٧].

من حيث المظهر الخارجي، يمكن تمييز الكهان بسهولة عن باقي المصريين، فقد حُرِّمت عليهم بعض أنواع الأقمشة الصوفية، وخاصة المصنوعة من الكائنات الحية، لأنها تدنيس وإهانة لقدسية الأماكن التي يشرفون على خدمتها: هذا التحريم كان مطلقاً: دوّنه جميع المؤرخين من هيرودوت إلى أبوليه، وقالوا: إن الغرامة المالية الباهظة التي كانت تفرض بحق المخالفين تشهد على اجبارية هذا المنع.

فاللباس الكهنوني يجب أن ينسج من خيوط الكتان الناعمة، والمخاطة بنوع وطراز واحد ثابت لجميع العهود، والحقيقة الظاهرة، أن الكهنة قد احتفظوا لأنفسهم بلباس تقشف، وهو اللباس الذي كانوا يرتدونه في العهود الأولى للحضارة المصرية، من الأرجح أن لألبستهم علامة مميزة حسب الوظائف التي يقومون بها، فالشال مثلاً مخصص للكاهن القارىء، يحمله عرضياً على صدره أما الألبسة المختلفة فقد كانت للكهان المتخصصين والأساقفة: فالكاهن سيم مثلاً كان لباسه من جلد الضبع، بينما كان كاهن هليوبوليس يغلف جسده بجلد مزين بالنجوم، أما كبير الكهان في ممفيس، فمن واجبه التزين بعقد خاص في عنقه، وارتداء ضفيرة مسترسلة جانبيه.

وباستثناء الشخصيات الدينية الرفيعة السمو، فإن الكهان يتميزون عن الجمهور المصري باعتدال وتواضع بذاتهم القديمة جداً، ومما لاشك فيه إن هذا القدم في الملابس في مجتمع يعتبر فيه كل شيء صالحاً، قد استمر عبر العصور، ولم يكن ذات يوم عاملاً في التأثير على احترامهم وهيبتهم وحظوتهم.

ختاماً لهذا العرض في اللباس، يبدو أن انتعال الصنادل (الأحذية) المصنوعة من النخيل وسط شعب يمشي بكامله حافي القدمين، كان يمثل إحدى



صورة الكاهن سيم :
ضريح سنِّيفر
(السلالة الثامنة عشرة)

مزايـا طبقـات الكهنـوت . وقـد اعتـبر المؤلفـون الكـلاسيكيـون وإلى جانبهم النصوص المصرية القديمة ، أن **الصندل الأبيض** كان من الخصوصيات الكهنوتية .

ومهـما بدت المسألـة بسيطـة ، فهي ليست مطلقة ، إذ ليس للباس من تأثير على تعيـين وتسميـة الكهان ، فالأمر كان يتعلق بمعارفهم اللاهوتية . أما العبادة ، فتأديتهـا واجب اجبـاري ، لذلـك فهي تتطلب تدربـاً وتعلماً ، ولعبت هاتـان الخاصتان أهمية كبرى عند اختيار أي كاهن جديد .

وبمنـاسبـة حديثنـا عن التدريب ، فيمكن التساؤل : هل يتعلم القادمون الجـدد المهنـة بالممارسـة فقط ، وبعد دخولهم المعابد؟ هذا مانعتقده ، إذا لم نبرهن بوضـوح عن وجـود علم مقـدس متطور ، مع وجود مؤسسات للتأملات اللاهوتية منتشـرة بشكـل واسـع في عالم المعـابـد الصغـيرة والأمـاكن المقـدسـة ، وأن المهنة الكهنـوتيـة تتطلب بصـورة إجبارية تكويناً لاهوتياً ، لكننا مازلنا نجهل كل الجهل أسلوب وطـريقـة عملهـا . وأغلب الظن ، أننـا قد عرفنـا عن طريق بعض أوراق

البردي المكتشفة حديثاً، بأن المرشح لسلك الكهنوت، يجب أن يجتاز اختباراً في المواضيع الدينية؛ لكن العهود الأقل حداثة كانت صمّاء حول هذه النقطة، ولم تقدم لنا عنها شيئاً يذكر.

الارتقاء إلى سدة الكهنوت[٨]

يبدو من المستحيل الوصول إلى قاعدة تحدد بشكل عام بالنسبة لجميع رجال الاكليروس المصريين وعلى مر العصور، الشروط اللازمة للارتقاء إلى سدة الكهنوت.

وكما قيل سابقاً، فإن البساطة النسبية للفروض الكهنوتية، قد فتحت الباب واسعاً أمام جموع كبيرة من المرشحين. إلا أن واقع الحال لم يكن كذلك، فبقدر ماتتطلب الحياة الكهنوتية من تنفيذ دقيق للواجبات، فهي تحمل بين جنباتها ميزات لايستهان بها، في بلاد كان الخوف من المستقبل مسيطراً دائماً: إنه الشعور السائد لدى جماهير الشعب. فالدخول في السلك الكهنوتي كان دائماً محط أطماع دنيوية لجميع المتقدمين إليه.

لقد اتبعت طرق عديدة للانتساب إلى الكهنوت، من الحقوق في الوراثة إلى الانتقاء الشعبي، إلى شراء المنصب والتطوع للعمل في المكان المناسب. فالعائلات المسؤولة جيلاً بعد جيل عن ديانة معينة، استطاعت أن تشكل حلقة مغلقة في عملها، وتبرهن في ممارسة مهامها حماساً واندفاعاً قويين، كما ضمنت لنفسها مصدراً مستمراً للعيش، وظلت ملتصقة في هياكل العبادة، لاتقوم حتى بالحد الأدنى والضروري لتبرير وجودها.

مقابل هذا التصور الذي كان له من يدافع عنه، يجب عدم النسيان بأن العبادة ـ مهما كانت قدم الحقوق المكتسبة من قبل العائلات ـ تبقى تكليفاً ملكياً

من الفرعون الذي يعتبر وزير العبادات الأول والوحيد في مصر. ويستطيع الفرعون في أي لحظة تبدو مناسبة، أن ينصّب ويعين الكهان وفق مزاج خاص وفي المكان الذي يرغبه. إن نظاماً من هذا النوع، الذي لايعتمد أسساً ومباديء ثابتة في التعيين، سيؤدي حتماً إلى انتشار التذمر وتقديم الاحتجاجات، وهذا ماحصل فعلاً. ونقول في النهاية، إن تاريخ الديانات في مصر القديمة، ماهو إلا انعكاس لسلسلة من التدخلات المزعجة للنظم العديدة التي كانت سائدة، وهو ماسوف نبحثه على التوالي بالتفصيل.

حقوق الوراثة

يقول هيرودوت: **عندما يموت الكاهن يخلفه ابنه مكانه**. من الناحية العملية، لم تكن هذه القاعدة مطلقة دائماً، لكنها كانت تقليداً متأصلاً. **تقدم لنا الامبراطورية القديمة أمثلة كثيرة عن الوصايا التي يفضي بها الكاهن وظيفته إلى وريث، فهو يتصرف بها وكأنها ملك خاص به.**

وتشمل الأمثلة الوظائف المسندة إلى شخص مستفيد، بحيث يجب نقلها بدقة من حفيد لحفيد، ومن وريث لوريث. أما في الامبراطورية الجديدة، فقد يحصل ان يطالب رجل بمهمة كهنوتية لأحد المعابد، مدعياً بأنه ابن كاهن هذا المعبد، وأفضل من ذلك، والنصب العائدة للعصور الدنيا، تضع أمامنا شجرة العائلة لمن أهدوا وظائفهم، فبعضهم ينتسب إلى الجيل السابع عشر القديم لكهان الاله نفسه: ويمكننا أن نتكلم بحق عن وجود سلالات كهنوتية.

يجب الحكم على هذه الأوضاع بالميول العامة للمجتمعات المصرية. فهي بلاشك لم تكن منغلقة إلى الدرجة التي نقلها إلينا المؤرخون اليونان، ليس صحيحاً أن طفلاً وُلد في وسط ما، لم يكن له مستقبل معين سوى مهنة أبيه:

بالطبع يوجد تداخل ونفاذ بين المهن. لكن إذا لم تكن هذه الوراثة للوظائف أو المهن قانوناً معلناً، فهي تشكل بحد ذاتها ميلاً نحو الاستقرار العام. أحد الأمنيات الحارة التي يتلوها مصري في صلواته للآلهة أليست هي **رؤية ولده يأخذ المنصب أو المكان الذي شغله أبوه؟**

يفهم في هذه الظروف، أن العائلات الكهنوتية الريفية التي أنيطت بها مسؤولية العبادة، كانت قد توصلت إلى بقاء هذا الشرف أو هذه المميزة، في العائلة. لكن حتى عند نقل المهمة من الأب إلى الابن، ومهما بدا هذا الارث عادلاً، فإن رغبة حب التملك تظل أمراً واقعاً: وبفضل موافقة الملك، يستطع الابن استلام منصب أبيه. فالملك أبسماتيك (٦٤٨ ق.م) مثلاً، ومن أجل مكافأة بيتيزيس على أعماله وخدماته، قام بمنحه لقب كاهن في كافة المعابد، حيث كان والده قد مارس تلك الوظيفة سابقاً ـ ومع هذا فإن بيتيزيس نفسه لم يكن حتى ذلك الوقت كاهناً. . . .

هكذا، وفي ضواحي الأقاليم، يمكن للعائلات الكهنوتية أن تبقي وظيفتها ملكاً لها، ولكن مهما كانت عملية وراثة المنصب الكهنوتي شائعة من الأب إلى الابن، فإن هذه الصفة الوراثية للكهان لم تكن سوى استعمال كرّسه الأمر الواقع، فالحق دائماً يعود للملك بتسمية وتنصيب من يريده ويرغبه.

الانتخاب والشراء

غالباً ما تهدد الأهواء الملكية في كل وقت تعكير صفو الاتفاقات المحلية، حيث كان الكهان ينظمون فيما بينهم تركيبة رجال الدين التابعين لهم. من الناحية العملية، يجب الاقرار بأن التدخلات الملكية كانت نادرة، نظراً للعدد الهائل للمعابد، والأعداد المدهشة للكهان: مفسحة المجال أمام عائلات كهنوتية للظهور إلى النور دون خوف ولا وجل.

عندما لم تعد قوانين الوراثة كافية لسد الحاجات من الرجال في عبادة معينة ، كانت تطبق طريقة أخرى هي الانتخاب : يجتمع الكهان الذين يمارسون عملياً مهام العبادة على شكل لجنة أو هيئة ، ويتفقون فيما بينهم حول صاحب النصيب الذي سينضم للمجموعات المقدسة . هذه الممارسة العملية ، وجب أن تكون شائعة الاستعمال ، عندما يتعلق الأمر بملء الشواغر . ومن المحتمل أيضاً ، أن كل كاهن جديد حتى ولو كان ينتمي لعائلة أحد خدم المعبد ، يجب قبوله عن طريق الهيئة الكهنوتية وترسيمه بتحرير شهادة خاصة له .

أخيراً ، كشفت لنا بعض عصور التاريخ المصري القديم ، عن وجود حق شراء المهمات الكهنوتية مع كامل عائداتها . وأطلق على الضريبة الواجب دفعها مقابل الشراء في اليونانية اسم «تلستكون» Telestikon . وقد شاع استعمال شراء المناصب في العصر الامبراطوري ، وخاصة لوظائف Stolistes . وإذا كنا قد استطعنا معرفة كيفية شراء المناصب في العصور الوسطى ، فإننا مازلنا نجهل طريقة شرائها في العصور القديمة .

التسمية الملكية

كانت جميع الشعائر الدينية في المعابد تجري باسم الملك[١٠] «**أعدَّت لي الآلهة الطريق ، إنه الملك الذي ارسلني لتأمل الاله**» وجاء في مقطع من مراسيم العبادة ، إن الملك يعين جميع الكهان ، هذه المركزية الشديدة في التعيين ، كانت تتطلب أعباء ضخمة وفترات طويلة . ومن الناحية العملية ، فإن الملك يحتفظ بحق تسمية وتعيين كبار الأساقفة والأحبار المتخصصين بالعبادات الكبرى ، أما تعيين الكهان العاديين من ذوي الرتب المتدنية ، فقد يترك أمر تعيينهم للوزير .

وعندما قام الشاب والفتى توت عنخ آمون باعادة بناء الاكلير وس في مصر، بعد فترة الاضطرابات التي حصلت في عمارنة، وجدنا أنه قام بتعيين الأنبياء وكبار الكهان من بين أبناء أصحاب المناصب المحليين وأبناء الرجال الذين يعرفهم حقاً[1]. لقد تصرف الملك بحكمة في هذا الاتجاه، حيث قام باصلاح المعابد تلبية لطلب سكان الأقاليم، واعتبر هذا الاصلاح عملاً سياسياً بارعاً لكسب رضى واحترام أصحاب المقامات الذين أساءتهم تصرفات اخناتون الفردية.

وفي ظروف أخرى، يستطيع الملك ترقية كاهن أعجبه نشاطه إلى مرتبة أعلى، ودليل ذلك، أن الكاهن «بوعي» في عهد تحوتمس الثالث، رقّي إلى مرتبة نبي أول لاوزيريس، وبعد عدة سنوات من ترقيته بناء على رغبة ملكية، أضحى أول المتكلمين في معبد أحمس الأول في آبيدوس.

غير أن التدخل الملكي، لم يكن له من تأثير سوى منح تعويض أومكافأة، مالية إلى كاهن شاب مقابل تأدية خدمة أوعمل. قد يحصل أن الترفيعات الرسمية كان لها أهدافاً مختلفة، عندما تتعلق التسمية بمركز كاهن جرى اختياره عمداً من داخل الاكلير وس. وهكذا، ذهب رمسيس الثاني في البحث عن أول نبي من بين كبار الاكلير وس المتدينين في منطقة (ابدونية)، وعيَّنه على حساب كهنة طيبة الذين كانوا ينظرون بلهفة وترقب لشغل هذا المنصب.....

ولدى عودته من طيبة، اقترب من منطقة «تينيت» وأُحضر نيبونّيف أمام جلالته. كان النبي الأول أونوريس أول نبي لـ«حاتحور» سيدة دنديرا، وزعيم أنبياء جميع الآلهة في تلك المنطقة المجهولة. عندها قال جلالته: ها أنت من الآن فصاعداً الكاهن الأكبر لـ آمون: كنوزه ومخازنه تحت سلطتك. أنت زعيم معبده، جميع خدمه تحت سلطتك. أما معبد حاتحور سيدة دنديرا فسيكون بسلطة ولدك، وكذلك منصب أبائك والمنصب الذي تشغله. بمقدار ما أحبَّني الإله رع، ومجَّدني وباركني الإله آمون، فقد شرفني بخدمة بلاطه، وزعامة

جنـده، ونبيـاً للآلهـة وكبار بيته الواقفين أمامه . . . لن يكون راضياً على أحد إلا عندما أذكر له اسمك، كن مخلصاً له، لأنه يجدُّ في طلبك.

باركت البطـانـة الملكيـة بكل خبث وازدراء ظاهرين، هذا الاختيار الالهي الموجه بعناية من رمسيس، وينتهي الاحتفال:

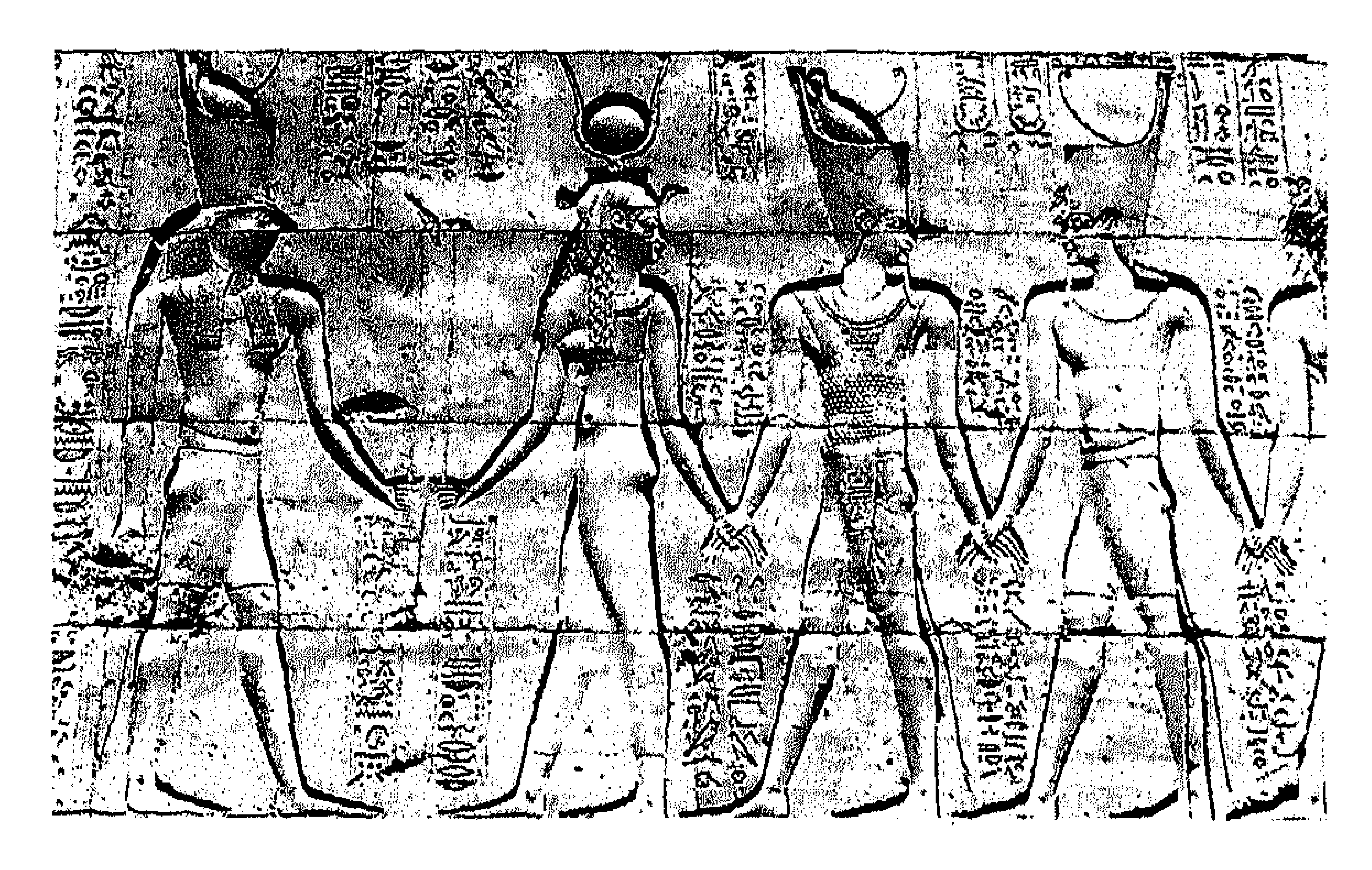
وقـدَّم جلالتـه لـ نبـونِّيف خاتمـين ذهبيـين، وعصـا من الفضة والذهـب، وسـمَّاه كبـير كهـان آمـون، وأمـين خزانـة الفضـة والـذهـب، ومـديراً للمخازن والـورش، وزعيـماً لجميـع المهن في طيبـة. ثم أرسـل السعـاة، لحمـل الـرسائل الملكيـة، التي يعلم فيهـا عمـوم أرض مصـر، بأن بيت آمـون قد سلَّم له إضـافة لجميع ممتلكاته ورجاله[١٢] . . .

هذه التقنيـة المعـروفـة في التعيـين لم تتبدل، ويُعرف ذلك من مسلة الكاهن الكبير «بتاح بشير نبتاح»، أنه وبعد ألفي ومائتي سنة، لم يتبع الملوك طريقة مخالفة في تعيين الأسقف الأعلى.

وهكـذا، يمكننـا الاعتبـار عمـوماً، أن التعيين الملكي لايتم إلا في حالتين محددتـين: أولاهما، عنـدمـا يريـد الملك مكـافأة كاهن أوكبير قوم نظير خدماته، وثانيهما، لضرورات في السياسة الداخلية، كالرغبة في تغيير موازين القوى مثلاً، باختيـاره السلطـان الأعلى للاكليروس الطيبي من خارج أطـر الأقـوياء من كهنة آمون. وخارج هذين الظرفين، فإن الوصول أو التعيين في مختلف درجات الوظيفة الدينية قد نُظِّمَ بشكلٍ ملائم تماماً، بإحدى الطرق الثلاثة التي ذكرت أعلاه.

الـتـنـصـيـب «الـتـتـويـج»

من المؤسف حقـاً، أننـا لانملك سوى القـدر اليسـير عما يجب معرفته عن مرحلة الـترشيـح النهـائية للسلك الكهنوتي. فالنصوص المزدوجة اللغة في العصر



الملك يحضر للإله حوروس في ادفو

البتوليمي ، تظهر أن طقوس التنصيب تشمل على مجموعة من الشعائر دُعيت بشعائر التتويج ، لكن أساليبها ظلت صعبة التحديد.

واستناداً لبعض النصوص ، يبدو أنه وبعد التطهر المطلوب من كل شخص يدخل المعبد ، يكون الكاهن قد تلقى نوعاً من المعمودية المختصرة «الرشم» : **ذهبوا لاحضار «بتاح نيفر» نبي آمون الجديد ، اقتادوه للمعبد ، وأوثقوا يديه ، بقصد تدريبه على خدمة آمون** (قصة بيتازيريس) . هكذا كان الاحتفال مماثلاً لمن يُعطى امكانية الوصول لوظائف غير كهنوتية : **نقلدهم وظيفة ، والمصريون يتقلدون وظيفة .**

لكن نصاً على تمثال في متحف القاهرة ، يقدم لنا بعض التفاصيل الاضافية : قال الكاهن : **حضرت أمام الإله لأني رجل شاب وسيم ، بينما أدخلوني في أفق السماء . . . . خرجت من نون (الماء الأزلي) ، وتخلصت مما في داخلي من دنس وخطيئة ، خلعت ثيابي ، ونزعت الدهن عن جسمي ، تماماً كما**

يتطهـر «حـوروس» و«سيت»، وتقـدمت أمـام الإلـه في قدس أقـداسـه مغموراً بالخوف تجاه سلطانه وجبروته.

التقـدمـة في المعبـد، الطهـارة، رؤيـة الإلـه، كانت من أهم مراحـل هذا الـرَّشم. فهي تحوي على بعض التـوصيـات والارشـادات الـواضحة، والافضاء ببعض الأسرار، التي لايعرفها سوى نفر من الكهان المدربين ـ تلقين هذه الصيغ السحرية التي تدل على **عظمة السماء، الأرض، جهنم، المياه ـ من رؤية الشمس تصعد** في السماء بهالتها الالهية، إلى صعود القمر أيضاً، وأشكال النجوم (قصة ساتني)[١٣].

ولم يكن المعبد مجرد بناء فقط ـ إطار مختلف عن الافعال التي تجري داخله ـ بل كان صورة مصغَّـرة عن العـالم، تتمثـل فيـه بشكل رمزي جميع المناطق الكونية التي يتحـرك فيهـا الإلـه؛ ومن المحتمـل أن يتسلم الكـاهن الجـديـد مختلف هذه الرموز، لحظة تتويجه.

نذكـر في هذا السيـاق، الطقوس التي جرت خلال تعليم **لوسيوس** مبادىء عبـادة **ايـزيس** في رومـا، كما نقلهـا إلينا ابوليه: يشرح الكاهن الأكبر (المتقدم في سلك الكهنـوت) وحسب النصـوص الهـيروغليفيـة، الطقوس التي تشمل تتويجه للكهنـوت؛ وبعـدهـا **يتطهَّـر لوسيوس وينقّى نفسه في بركة الماء القريبة، ويتلقى رشَّـات من المـاء المطهَّـر، ثم يقـوده الكاهن إلى أقدام الإله، ويعطيه بسرية تامة بعض التعليمات (الدروس)، التي يعجز عنها المنطق البشري**؛

خلال تلك المـرحلة التمهيـديـة، يتـوجب على الكـاهن المرشح للتتويج، الصوم لمدة عشرة أيام، والتدرب العملي بعيداً عن الأعين الشريرة والدنسة، **فقد أُلبس لوسيـوس رداء من الكتـان لم يلبسـه أحـد من قبل، واقتاده الكاهن من يده نحو الطرف البعيد جداً من المعبد**. هناك يتلقى الوحي النهائي-الذي يذكره أبوليه بهذه العبارات: **قاربْتُ حدود الموت، وطئت عتبة** بروسربين (إله يعبد في روما)،

عدت من هنـــاك محمـولاً متخطيـاً جميـع العقبـات، وفي عتمـة الليـل رأيت نور الشمس يسطـــع بشـدة، وصلت إلى مشـارف الآلهـة السفلى، والآلهـة العليـا، رأيتهم وجهاً لوجه، وعبدتهم عن قرب.

لقـد كتب النقـاد الكثـير حول هذا النص المشهـور، موضحين أن الكاهن الجديد، كان يقوم برحلة إلى الكون، ويموت في عالمنا الأرضي، ثم يبعث، من جديـد متخـذاً شكـلاً آخر. ويبدو من المؤكد، أن «**الديانات ذات السرية التامة**» قد أثرت كثيراً على الاعتقاد، بأن هذه التدريبات الموضوعة لم تكن سوى التعبير الـواقعي عن السـريـة في الـديـانة اليونانية أكثر منها إلى التقاليد المصرية. ولنترك للقـارىء الحكم حسب المقـولات المـوجـودة في مطلع هذه الفقـرة، بأن مراحـل الاحتفـال في شكلهـا نصّـاً وروحـاً، ظلت قريبـة جداً مما يمكن أن تكون عليه في العصر نفسه في المعابد المصرية.

هوامش

* : تترجم كلمة ماعت بمعنى الحق أو العدل أو الاستقامة وأحياناً النظام. فكانت كلمة ماعت، صفة للحاكم الصالح والادارة الصالح، وقد تكون بمعنى حكم أو ادارة أو قانون وهي الصفة اللائقة لتلك الأشياء عند تطبيقها. كان لهذه الكلمة نفس المرونة لكلمة حق أو عدل أو صدق أو شيء منتظم، وهي أحياناً القوة الكونية للانسجام، والنظام، والاستقرار، نزلت منذ خلق العالم، كصفة منظمة للظواهر التي تمَّ خلقها. ففي المشاهد على جدران المعابد، نرى الملك يقدم «ماعت» كل يوم للآلهة الآخرين، كدليل ملموس على أنه قائم بوظيفته الالهية بالنيابة عنهم، وكأنما هذا شيء أبدي لايتغير.

المترجم

١ - في كوم أومبو يوجد النص التالي: قانون دخول الكاهن الأكبر إلى المعبد، يبقى طاهراً طوال يومه، يتطهر في البحيرة ليقوم بجميع طقوس الخدمة الالهية.

٢ - هيرودوت المجلد الثاني، ٣٧.

٣ - فيما يتعلق بالختان انظر آ. ب. ليسا: الطب المصري في عهد الفراعنة، باريس ١٩٧١ ببيروس ٤٢٧ - ٤٣١ ف. جونكير: الختان لدى المصريين القدماء ١٩٥١ بابيروس صفحة ٢١٢ - ٢٣٤.

٤ - وُضعت هذه المحرمات الغذائية في عصر البطالمة ووردت في النص الجغرافي الكبير لـ ادفو، فولف ب. مونتيه، جغرافية مصر القديمة مجلدان باريس ١٩٥٧ - ١٩٦١، يتعرض إلى مصر منطقة منطقة، متناولاً المحرمات في كل منها.

٥ - هذا الميل نحو الانغماس في الملذات مدوَّن على شكل نصائح في معبد ادفو (ادفو٣ صفحة ٣٠١ - ٣٦٢) أيها الأنبياء . . . . لاتدنسوا أنفسكم بالعهر . . . لاتقيموا الاحتفالات داخل معبده . . . لاتفتحوا الجرار أنظر م . اليوت .

٦ - حول بشير بنتاح : كاهن ممفيس في عديتوليميه الثاني عشر .

٧ - نص ادفو (ادفو٣ ، صفحة ٣٦٢) ، «لاتدخلوا بيوت النساء ، لاتفعلوا فيها مالايجب أن يُفعل» م . إليوت صفحة ١٨٦ .

٨ - ي . ج . تايت : ورق البردي في مصر واليونان لندن ١٩٧٧

٩ - س . سونيرون : الشروط الضرورية واللازمة للدخول في الوظائف الكهنوتية لدى الرومان واليونان ثلاثة : الانتساب للعائلة الكهنوتية ، الاختتان ، معرفة الكتابة والقراءة الهيروغليفية .

١٠ - نص من ادفو يوضح بأن الكاهن هو بالحقيقة ممثلاً للملك . «**إنهم يقومون بوظائفهم بدل الملك لأن صورة جلالته توحي بضرورة عبادتها**» .

١١ - اعادة اصلاح وترميم المعابد ، كتابة اصلاحات توت عنخ آمون ، موجودة في متحف القاهرة .

١٢ - لوفيفر : تاريخ كبار كهنة آمون في الكرنك باريس ١٩٢٩ ، صفحة ١١٩ - ١٢١ .

١٣ - جاءت رواية ساتني عن طريق مخطوط من ورق البردي الشعبي في القاهرة (٣٠٦٤٦) . ترجمه ج . ماسبير وبعنوان : حكايات شعبية من مصر القديمة .
انظر أيضاً ف . ليكسا : السحر في مصر القديمة .

٣

عـالـم الـمـعـابـد

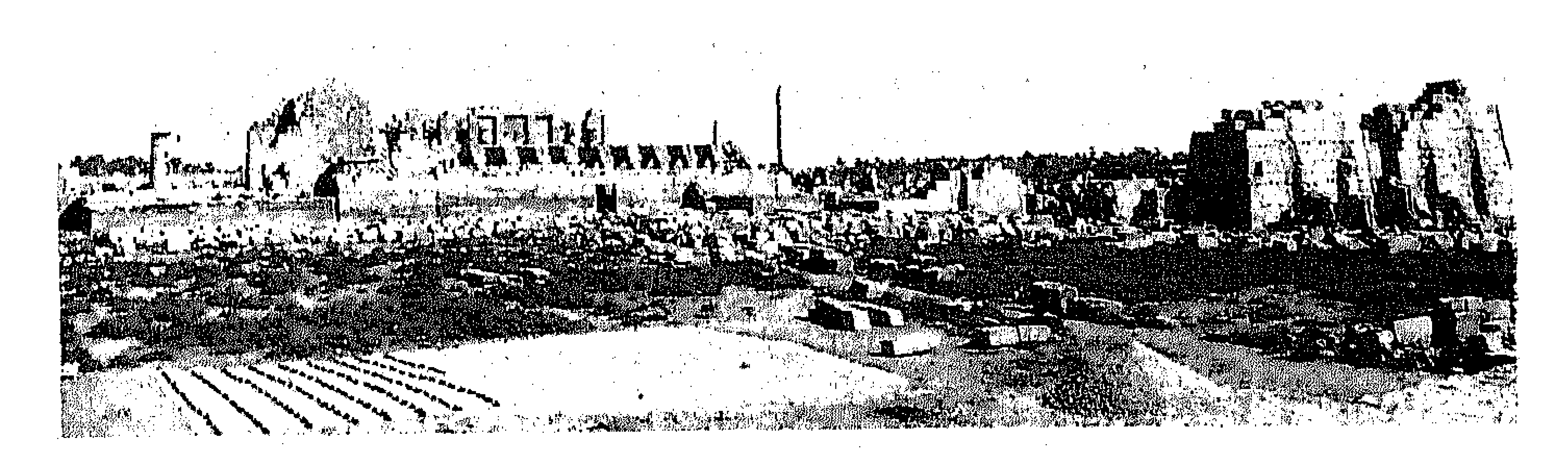
استطعنا الافلات من فرق السياح، واتجهنا بصعوبة نحو أبواب المعبد حيث تقف أرتال طويلة من العربات التي تجرها الخيول: وبعد دقائق، سيحمل الهواء صراخ السائقين وأصوات السياط، ليعود الهدوء من جديد إلى هذا العالم الكبير المهدَّم.

في عصر يوم معتدل من أيام الشتاء، وصلنا إلى قمة الدعامة الأولى لباب الكرنك المطل على النيل من جهة وعلى هضاب طيبة الداكنة السوداء تحت شمس محمرة من جهة أخرى. من الجهة الثانية معبد الإله آمون الرحب والواسع وقد تبعثرت أحجاره الضخمة على الأرض مشكلة خرائب غير منتظمة. كذلك فعلت الأسوار البعيدة والأبنية المتهدمة وتحولت إلى أكوام كأكداس العشب. الدعامات، والمسلاَّت، والتماثيل، والأعمدة، ممرات أبي الهول، والمعابد الصغيرة المتناثرة على مد النظر أصيبت جميعها بالتصدع. وعلى بضع خطوات إلى اليمين نميز البحيرة المقدسة، وقد ارتسمت على صفحاتها الهادئة أجنحة الطيور المحلقة في الفضاء. . . وخلف القاعات الخربة نجد بقايا أثرية مخبأة خلف أشجار النخيل، كما نجد أرتالاً وصفوفاً من المعابد والبحيرات والتماثيل.

لقد سرت في أجسادنا كوامن العظمة ، بنفس التي ساورتنا في دنديرا مدينة حابـو، وفيلة ، كل على طريقتـه ، إنهـا عوالم مدهشـة ، وحفـريـات التنقيب عن الآثار مازالت تجري على مساحات واسعة بشكل متقن ومنظم .

كانت الآلهـة العظيمـة بحـاجـة إلى أمكنـة واسعة ، ومعابد رحبة كالمدن ، حيث تتجمع في أرجائها ثروات الملوك وكنوزهم ، لقد ترجمت الساحات والحجارة الضخمة المتناثرة ، العظمة الغابرة لهؤلاء الملوك .

منظر عام لمجموعة الكرنك المقدسة .



وبينـما كان الظـل يغـزو السـاحة الكبيرة ـ الظل الممزوج بالضباب الأزرق والـدخـان المنبعث من القـرى المحيطـة ـ كانت تختفي معـه وطأة القرون الغابرة ، ويخيـل إلينـا ، أننـا عثـرنـا على المعبـد بعـالمه الحي ، كأنه في الساعات الأولى من وجـوده ، وكأن جمعـاً من رجـال الـدين ، يبعث الحياة في أروقته ، وفي صمت الليل المطبق ، تخرج وجـوه وأشكـال المـاضي المنقـوشـة على الجدار الكبير ، لتتحرر من سجنها وتتجه نحونا .

حقاً، لقد كانت هناك جموع كبيرة من الكهان، تقطن تلك المعابد، من الكاهن الأكبر، والشخصية السياسية العليا في الدولة، إلى الكهان الصغار خدام المعابد، إلى عمال المصانع، وجموع الخدم والمساعدين الذين يزرعون الحياة في ساحات وأروقة المكان المقدس.

في معبد الكرنك، وفي عهد سلطة آمون، كان عدد الأفراد الذين يجب عليهم الحضور إلى المعبد يومياً يقدر بالمئات والآلاف. وتوضح لنا أوراق البردي[1] العدد الكامل للجموع التي تقوم على خدمة الاله آمون في عهد حكم رمسيس الثالث (١١٩٨ - ١١٦٦ ق. م)، ويساعدهم جموع مماثلة من القرويين والصيادين، وربابنة السفن، والمديرين، والعمَّال الصناعيين، وقد وصلت أعدادهم إلى ٨١٣٢٢ شخصاً! . . .

ولنذكر بهذه المناسبة، إن هذا الاله الشري، كان يملك ٤٣٢ مزرعة، و٢٣٤٣ كيلومتراً مربعاً من الأراضي الزراعية، و٨٣ مركباً، و٦٤ ورشة بناء، و٦٥ قرية مع سكانها، جميعها مكرسة لاصلاح وحراثة وترميم الأماكن المقدسة.

ومن قراءة هذه الأرقام، ندرك الأهمية غير العادية لخدم آمون، وتصور هذا العدد الهائل من الكهان والموظفين المرتبطين بمراكز العبادة، والمشرفين على هذا البناء الضخم، فقد أمكن حتى الآن إحصاء ١٢٥ وظيفة من بين الوظائف المرتبطة بالخدمة الالهية الفائقة القوة.

كانت تلك بلاشك حالة استثنائية، فمقابل هذه الثروة الهائلة، كانت ثروات باقي المعابد تذبل وتموت فمعابد هليوبوليس وممفيس، وهما أكبر المدن بعد طيبة، تمتعتا بموارد محدودة جداً، فقد وصل عدد المستخدمين في معابدهما إلى نسبة $\frac{٧}{٢٧}$ من مستخدمي معبد آمون؛ والجدول التالي، عبارة عن مقارنة دقيقة بين أملاك المعابد الثلاث:

	طيبة	هليوبوليس	ممفيس
الرجال	٨١٣٢٢	١٢٩٦٣	٣٠٧٩
الحيوانات	٤٢١٣٦٢	٤٥٥٤٤	١٠٠٤٧
البساتين	٤٣٣	٦٤	٥
الأراضي الزراعية	٢٣٩٣ كم٢	٤٤١ كم٢	٢٨ كم٢
السفن	٨٣	٣	٢
الورش	٤٦	٥	-
القرى	٦٥	١٠٣	١

ويبـدو واضحـاً أن تفـوق معـابـد طيبـة كان ساحقـاً. فإلى جانب كون هليـوبـوليس وممفيس مدينتـين كبـيرتين، فقد كانتا في وضع متناقض مع طيبة من حيث أعـداد الاكليروس العـالي القـدرة. إلى جانب ذلـك نجد بعض أنواع من العبادات المختلفة قد تعايشت في حدود ضيقة معها، واضطرت للاكتفاء بخادم أو خادمـين، وتعلمنـا النصـوص: بأن هنـاك آلهـة لاتملك رجال دين متفرغين، فقد كانت تعيش على هامش الآلهة الغنية، التي لم تتردد في تقديم كل عون لها.

وبين هاتين الحالتين العليا والدنيا، تظل الغالبية العظمى للمعابد المصرية مجهزة بأعداد لابأس بها من رجال الدين، مثل معبد أنوبيس في الفيوم المجاور لهرم الملك سيزوستريس الثاني (١٩٠٦ ـ ١٨٨٨)، والذي يقوم على خدمته مايقرب من خمسين فرداً، منهم ستة كهان دائمين، وأربع مجموعات تتناوب دورياً، تتألف كل مجمـوعـة من أحـد عشر خادمـاً. وفي مكان آخر من مدينة أسيوط، كان الإله «أو ـ بو ـ حوت» يكتفي بعشـرة من الخـدم، بينما في تيدجوي مدينة بيتيزيس التي

تكلمنـا عنهـا سابقاً، كانت تملك جمعاً من الكهان يصل عددهم إلى ثمانين كا هنـاً يتنـاوبـون الخدمة دورياً أيضاً، إضافة إلى بعض المستخدمين الدائمين. ولانبالغ إذا انتهينـا إلى حقيقـة مفـادهـا بأن كل معبد من الدرجة المتوسطة كان يقوم على خدمته بصورة دائمة وثابتة من ١٠ ـ ٢٥ مستخدما.

الـطـبـقــات الـكــهــنــوتـيــة[٢]

من الواضح جداً أن الجموع المختلفة التي تعيش داخل المعابد، لم تكن من الكهان، ولكن الغالبية المطلقة كانوا كذلك، بصفة أو بأخرى. فالكاهن: هو كل رجـل يمتلك طهـارة جسـديـة، أو يضـع نفسه في مكان الطهارة والنقاء الفيزيائي المطلوب، بغية الدخول إلى المكان المقدس أو الاقتراب منه، أو لمس أي جسم أو طعـام مخصص للإلـه. وعمليـة الانخـراط في طبقة الكهنوت الدنيا كانت بسيطة ومختصرة جداً، غير محددة بالوقت وليس لها مراسم احتفال بالتتويج. ورغم وجود عدد كبير من الأتقياء والأطهار، فإن هنالك فرقاً شاسعاً بين كاهن المعبد الصغير العادي والكاهن المخوَّل برؤية الإله.

وهكذا ظهرت أعداد لابأس بها من الطبقات الكهنوتية، التي وزعت خدمة المعابد فيما بينها وكان لهؤلاء الحق بأن يطلقوا على أنفسهم اسم الكهان. ويمكن أن نميـز هكـذا الاكليروس الأعلى، والأدنى، والمسـاعـدون؛ لكن المشـاكـل والمنافسات الحامية ستظهر بين هؤلاء الرجال عندما نحاول تحديد طبقة كل منهم.

إنهـا في المقـام الأول، طبقـات متأرجحـة، فقد تصنف بعض المجموعات الكهنوتية في الطبقات العليا من الاكليروس، وأحياناً في الطبقات الدنيا؛ ويمكن اعتبـار النواحين والمغنين مـن حيـث مكـانتهم شخصيات أساسية أوثانوية؟ قد تكـون أهميتهم، ومنـزلتهم ازدادت مع الـزمن؛ فيجب علينـا والحـالـة هذه،

وضعهم في تسلسل درجات القداسة في آن واحد حسب المصادر المصرية الكثيرة في جميع العصور، وحسب جداول التصنيف اليونانية التي يمكن أن لا تعكس سوى ناحية متخلفة عن التنظيم الكهنوتي .

إن هذا التصنيف غير كافٍ، فهناك فئات متنوعة من رجال الدين والاخصائيين العاملين في المعابد، سيكونون غير مرتبطين بهذه الطبقة أو تلك، إنها حالة الكهان الاداريين أحياناً، الذين غالباً مايكونوا حياديين، كذلك حالة التقنيين من الكهان القراء، كتبة المعبد، الميقاتيون، الذين يلعبون دوراً هاماً في العبادة والحياة في المعبد. هكذا يمكن قبول تصنيف أكثر تفصيلاً، مبنياً على الدور الفعلي الذي يقوم به كل خادم، أكثر من اعتمادنا على الأهمية الأخلاقية التي يصعب تحديدها، والمتصلة اتصالاً وثيقاً بنشاطه .

المستخدم الاداري

عندما يكون المعبد صغيراً، ويمتلك مساحة محدودة من الأرض، فإنه يحتاج لعدد ضئيل من المستخدمين، نظراً للسهولة في تسيير الأمور الادارية، وتقتصر الادارة هنا، على تدقيق الدخل المنتظم للمحاصيل الزراعية التي تملأ مائدة الإله من جهة، ومراقبة تأدية المراسيم الدينية وحسن سير الاحتفالات من جهة ثانية . ولاتخلو النصوص من بعض الفقرات، التي تشير إلى قيام كهان المعابد الصغيرة، بحمل الألقاب الكهنوتية والمناصب الادارية، والانتقال من عبادة الإله إلى إحصاء أكياس القمح .

عندما يصبح المعبد على درجة من الأهمية والاتساع، فإن هذا الجمع في الوظيفة يصبح مستحيلاً . فمعبد آمون في طيبة مثلاً، كان يملك ادارة خاصة ـ مجموعة ادارية أشبه بالوزارة في عصرنا الحاضر ـ ولم يكن يسمح للقائمين على



بعض الكتبة يقومون بإحصاء المحاصيل ضريح مينّا (السلالة الثامنة عشرة)

العبادة التدخل في شؤونه. أما مدراء الأملاك، ورؤساء الكتبة والحسبة، وقادة الجند، فكانوا يشغلون المناصب الهامة، كان هناك رئيس كبار الخدم، والوكيل الممتاز للمستخدمين، ورئيس الشرطة ورئيس القطعان الذي يحتل منصب مدير الدخل، وهناك مدير الحيوانات ذات القرون والحوافر والطيور، كما وضعت الأراضي الزراعية تحت إشراف مدير الأراضي، وارتبطت المخازن برئيس دائرة المخازن، أما المالية فوضعت بأمرة السلطة العليا لمدير الخزانة الرئيس العام لكل ماهو موضوع تحت حكم آمون. وإلى جانب كل من هؤلاء المديرين الاداريين، يقف جمع من المساعدين والمستخدمين المنفذين الذين يجعلون من الدنيوي الخاص بالإله ادارة عملاقة في مكاتب لاحصر لها.

إن رقعة البردي التي أخذنا عنها جدول أملاك الثلاثة الكبار من اكليروس مصر، تعطينا فكرة واضحة عن العائدات السنوية لأملاك كل من هذه المعابد، حقاً إنها أرقام معبّرة: فإكليروس آمون مثلاً، كان يتلقى هبات ضخمة من الفضة والذهب والنحاس وآلاف قطع الألبسة وأكياس الحبوب، ومئات الآلاف من الطيور.

من هذا الاحصاء الدقيق، نستطيع أن نتخيل أعداد الكتبة وآلاف الأوراق المحفـوظـة والمكاتب من كل نوع التي تتطلبها هذه الادارة، وإدراك بأن الكهان قد كلفـوا أنفسهم الاشـراف على الادارات الخـاصة. عملياً، من غير المستحيل أن يكون مختلف أعضاء الادارات المؤقتة من رجال الدين. فالهيئة الادارية لمعبد ما، مع مدير المعبد ومدير قطعانه، وكاتب بيت الاله، ومدير مخازنه. . . . كان يرأسها أمـير المقـاطعة الذي يضيف لها إلى جانب أعمالها بعض المهام الكهنوتية؛ «هابيد جفـا» أمـير مقـاطعـة أسيـوط مثلاً في عهد سيزوستريس الأول ١٩٥٠ ق.م كان يعتبر نفسه عضواً في الجسم الكهنوتي، وبنفس مرتبة كهان المعبد القائمين على خدمته.

ومـع مرور الـزمن، فقـدت وظيفـة الاداري تدريجيـاً شكلهـا الكهنـوتي؛ فالليسونيس Lesonis (شخصية تعينّ سنوياً) من العصور الدنيا، أصبح مسؤولاً، أكثـر من كونـه كاهنـاً، والذي حلَّ مكانه في العصور اليونانية والرومانية، ماأطلق عليـه اسم «الـرئيس المـدني للأمـلاك Epistat الـذي ينضـوي تحت ادارتـه جبـاة الضـرائب المـاليـة، والـوكـلاء المكلفون بادارة الأراضي المقدسة، والحسبة الذين يعدُّون الجداول اليومية.

المستخـدم الـديـنـي

مقـابـل هذه الادارة الكهنـوتيـة المتفـاوتة، يقف الموظف الديني على نسق واحـد، مع مايُسمّـون «خـدم الالـه» ـ الذي ترجمه اليونانيون إلى اسم لايخلو من المبالغة «بالانبياء». فالاله المصري، لم يكن في الحقيقة قوة مجردة تعبد في أي مكان وزمـان، إنـه سيّـد قادر، حاضـر بجسـده في مكـان منعـزل من المعبـد؛ تنحصر الخـدمـات الـواجب تأديتهـا له في الأمـور المـاديـة فقـط: الغذاء، النظافة. . . .

الـــخ، كذلـــك خادمُـــه من الكهنـة، يمكن تشبيهـه بالخـادم الـذي يقـوم على خدمةالسيد في قصره، ويحمل اسم خادم أو أجير.

وفي الكثير من المناسبات، نجد المعابد المتوسطة الغنى في أيدي خدم الإله البسطـاء، وبأعـداد قليلة منهم. لكن عنـدمـا يكـون للمعبد بعض الأهمية، فإن المستخـدمـين يتواجدون بأعداد كبيرة، وعندها يظهر التسلسل في السلم الوظيفي بين مختلف الشخصيات التي تحمل اللقب نفسه.

وكـــما هو منطقي، فإن عدداً لابأس به من الكهان الآمونيين (نسبـــة إلى آمون)، كان الأكثر تقسيماً وتوزيعاً: فقد أمكن إحصاء أربع طبقات من «الخدم» تندمج في مرتبة واحدة، أما الطبقة الخامسة، فتضم البسطاء من الخدم، الذين لم يدخلوا في سلم الـترفيعـات Curous للمنـاصب العليـا. وقـد امتد هذا التقسيم الصـارم ليشمـل الأنبياء من كهنة آمون، وبعض الكهان الآخرين وخاصة الذين غالبيتهم من الخدم، والذين تطلبت أوضاعهم هذا التقسيم.

ويبـدو لنـا منطقيـاً، بعـد تحديـد هذا الترتيب الاداري، بأن نرى الميادين الكهنـوتية تتقدم بانتظام حسب المراحل المتتالية للوظائف الدينية. وبالفعل، فقد عرفنـا من الـوثـائق الكثيرة، بأن التجاوز الحاصل في المراتب الدنيا والمتوسطة كان شائعـاً، وأن الارتقـاء الوظيفي في هذا الوسط Corsus, Honorum كان أخف شدة وقسـوة وتطبيقـاً عما كنا نعتقده في الوهلة الأولى. ويمكن التأكيد على الأقل، بأن «الترقية» تعتمد على الانتقاء التدريجي، وأن عدد الكهان المدعوين لتسلم أعلى المناصب، يتضاءل تدريجياً كلما زاد ارتقاؤ هم في السلم الوظيفي.

وهكـذا كان الكـاهن الثـاني من كبـار كهنـة آمـون الطيبيـين، الـوحيـد في صفـه، ويشغـل مرتبـة متميـزة في الدولة. إنه شخصية فذّة... ينوب عن رئيسه النبي الأول عند الضرورة، في الوقت الذي كانت تفرض عليه مشاغله السياسية والـدينيـة الكثـيرة، أن تجعله بعيداً عن معبده؛ لكن لديه اليد الطولى على قسم

كبير من «الدنيوي» الخاص بآمون، من مراقبة المصانع والأراضي الزراعية، إلى مراقبة الضرائب الأجنبية المسلمة للإله. وقد وُضع في خدمة بيته جمع من الموظفين والجند والكتاب، والمأمورين المباشرين الذين يراقبون بإشرافه حسن انتظام العمل.

أمام النبي الأول للاله الكاهن الأكبر فكان شخصية عالية الشأن، يستمد سلطته في الدولة من سلطة الإله الذي يخدمه، كان يحمل أحياناً اسماً خاصاً متصلاً بالوظيفة التي يشغلها أصلاً في عبادة إلهه.

وهكذا، فإن الأسقف الأكبر الطيبي (الكاهن الأكبر) يحمل اسم النبي الأول لآمون في طيبة، وإن نبي هليوبوليس كان يحمل، إذا صدقنا القول، الاسم الفصيح: الذي يمكنه رؤية الإله الكبير اللقب الذي يصبح إذا أعادت الأجيال التالية ترجمته: **الكبير في نظر الإله رع**. أما الكاهن الأكبر للإله بتاح في منفيس، فكان يحمل المنصب التقني «**الزعيم الأكبر للعمال الحرفيين**» وكما هو معلوم، فإن جميع الصناعات كانت برعاية الإله بتاح.

أما رؤساء الأساقفة، فكان باستطاعتهم الخروج من الترتيب، بعد تسنمهم مختلف درجات الوظيفة الكهنوتية. وكثيراً مانلمس لدى طائفة من رجال الدين المعتبرين في البلاد، أن مصير بعض الكهان الكبارمنهم متعلق بالظروف السياسية، والادارة الملكية. ويمكن أن يتم أختيارهم من بين جمع أنبياء بيت آمون، عمال البلاط، وكبار قادة الجيش؛ لكن الملك، كانت لديه مطلق الصلاحية بتعيينهم من خارج هذه الفئات المفضلة: تلك كانت حالة «نيبونّيف». وقد سمحت حرية الاختيار هذه للملك، بأن يضع على رأس السدة الكهنوتية، رجالاً مخلصين لشخصه، والصمود إلى حدٍّ ما، أمام المتطلبات المتزايدة للكهنوت القوي.

وسنرى، أنه كثيراً ما كانت الوظيفة الأعلى تمنح لأعضاء هذا الكهنوت،

الـذين أصبحـوا من الشخصيـات المـرموقة والعالية في الدولة، وجرت العادة، أنه بعـد أن يعـين الملك الكـاهن الأكـبر ـ خاصة عندما يتم اختياره من خارج سلك الكهنـوت الـذي سيشـرف عليـه ـ يتم تثبيتـه بوحي إلهي ؛ وخلال تتويجه سياسياً ودينياً، يتلقى الكاهن الأكبر الجديد خاتمين من الذهب، وصولجاناً رمزياً، ثم يتلو الملك على مسـامعـه الجملة التقليـديـة : **ها أنت الكـاهن الأكـبر للإله العاشر : كنوزه، مخازنه تحت سلطتك، وأنت رئيس معبده**[٣].

تلك كانت طبيعـة كبـار كهـان آلهـة مصر، الطبقة من «خدم الاله» القادرة حسب العرف المتداول على «فتح أبواب السماء» وتأمل الاله أثناء العبادة اليومية. كان يجري اختيار النخبة الكهنوتية والزعيم الديني الأعلى للعبادات من أصحاب المراتب العالية الذين تم اختيارهم من بين أعضاء كهنوت مصر.

مقـابـل هذه الطبقـة المميـزة، كانت تعيش جموع غفـيرة من رجـال الدين الأدنى، ومثلهم المســاعـدون وتقضي الاشارة هنا إلى عالم الكهان الخاص قليلاً، الـذين لايتـدخلون إلا عنـدمـا يستدعي عملهم بعض المراسم الخاصة بالعبادة، ويطلق عليهم اسم «الاختصاصيين».

الاختـصـاصـيـون

أدرج هؤلاء في مصاف كبار الكهان أو في صف المرؤوسين : وبلاشك كانوا أحيـانـاً من بين فئـة الأولـين، وأحيـانـاً من الآخـرين ـ وعلى الأغلب غرباء عن الجهتين. ومايهمنا في الواقع، هو الصفة الاختصاصية لوظيفتهم، أكثر من التقدير الأخلاقي الذي يجعل منهم أساقفة كباراً أو مساعدين من الدرجة الأدنى.

ومن بين هؤلاء الكهـان المعينـين لوظـائف محددة، صنف الكهـان الجذور الـذين تصفهم الـوثـائق اليونانية : بأنهم الأفراد القائمين على الخدمة والطقوس،

وأعمال النظافة اليومية، وإكساء وتزيين التماثيل الالهية، والمحافظة في قاعات المعبد على المواد المخصصة للاستعمال اليومي، كالحلي، والثياب ومتطلبات العبادة. هؤلاء الكهان الجذور، لم تشر النصوص الهيروغليفية إلى خاصيتهم: لكن وثائق الامبراطورية المتوسطة، تكلمت عن **شانجوتي** «كاهن المئزر» والمحتمل أن يكون الكاهن الأصلي، لكن عندما تقدم كتابات العصور السفلى تعريف هؤلاء الكهان، فإنها تلجأ إلى تعريفهم بجملة طويلة تشرح فيها أعمالهم:

إنهم جماعة من الناس مخصصة لنظافة الاله، تدخل قدس الأقداس لتزيين الآلهة بحليها (مرسوم كانوب)[٤]، أي أن هذا الدور كان يجب أن يعود لأحد خدم **الاله** الذي يحمل هذا اللقب ويستأثر بهذا المنصب الوحيد، رغم التخصصات المحددة التي يتلقاها. بعد ذلك، وُجد أنه من المناسب تخصيص تسمية معينة خاصة للخدم الذين يلبسون التماثيل الالهية.



الكاهن سيم، وكاهن قارىء، ضريح آمن آخت (زوجة رامسيد)

ويـدخــل ضمن الاختصــاصيــين أيضــاً، العلماء والمثقفـون من «بيت الحياة»(٥). وستكون لنا مناسبة أخرى، لاجراء دراسة مفصلة عن هذه المؤسسات شبه الدينية؛ لنقل ببساطة إنها كانت دوراً للموظفين مجاورة للمعابد، حيث تُدوَّن إلى جانب أشياء أخرى، كتب الطقوس اللازمة للعبادة، واعداد العناصر المكونة للعلم المقدس، وينتمي لهذه المؤسسات كتبة بيت الحياة، والعلماء، ومستخدمو بيت الحيـاة، هؤلاء الـذين أطلق اليـونـانيـون على بعضهم اسم «كتبة المعبد». بعضهم من الكهـان المحـترمـين بشكـل خاص، نظراً لثقافتهم الواسعة، وممثلين رسميـين للعلم داخـل المعبـد. ومنهم إذا دعت الضـرورة، يتم اختيار ممثلي رجال الدين لدى الملك، أثناء المهمات الرسمية التي تتطلب مشاركة المعابد في مصر.

وهكـذا، ففي السنـة الـرابعة من حكم أبسماتيك الثاني ٥٩٣ ق.م، وعندما اقتضت الضـرورة، العثـور على كاهن يحمـل عطـر آمون إلى الملك، فقد اختير بيتيزيس من تيد جوي كاتباً لبيت الحياة، لأنه الأديب والعالم، الذي يقدم الجواب المقنـع لكـل سؤال موجـه إليـه. لقـد عَبَرَتْ علمـه شواطىء المتـوسط، وأوردت النصـوص اليـونانية واللاتينية، عبارات كثيرة عن الحكمة والمعارف التقنية لهؤلاء الكتبـة الـذين استطـاعـوا معالجة الأمراض (هورابولون ١، ٣٨) وعرفوا العناصر (غـاليف) والجغـرافيـا (هـير ودوت ٢. ١٨)، وشارات الحيوانات المقدسة، وسير قدمـاء الملوك (ديـودور)، وقـدرة التنبؤ عن المستقبـل (جوزيف، سويدا، ايليان) وأوقات هطول الأمطار (اميان مارسيلّين)...

وتقـاسـم الكهـان القـراء، كتبـة كتـاب الالـه، الـذين أسـماهم اليونانيون «الكهان المجنحين» Ptérophore، نسبة للريشتين اللتين تزينان غطاء رأسهم هذه الشهـرة العـامة، والشعبية في بلدهم بالذات. ولم يكن جلُّ هؤلاء الكتبة والعلماء من الكهـان، بل كانـوا معينين في جميع الأحوال كعلمانيين (ليس هم بالاكليروس ولا رجال دين)، يمارسون مهنة الطب في الدرجة الأولى، وقد نُسبت لعلمهم جميع

الـوصفـات الطبيـة التي ظهـرت على ورق الـبردي (ورق بردي لنـدن ٨، ١٢، وبـرلـين: ١٠٦٨)[٦]. **أمـا في الاحتفـالات الجنـائـزيـة فيظهـرون كأخصائيين، يقـومـون بالمراسيم المفيدة للأرواح السعيدة، وتضعهم الكتب السرية في مصاف الكهان القراء.**

وأخـيراً، وخـاصـة، فهم يمثلون بالنسبـة للشعب المصري صنف الساحر الشعبي، بطـل القصص والأسـاطـير التي تروى في المساء وأثناء السهرة. هكذا، فالنبـوءات التي كان الملك «سنيفرو» في الأزمنة البعيـدة للأمـبراطورية القديمة، يتلذذ لسـماعهـا، كانت تُعـزى للكـاهن القـارىء نيفرتي[٧] وهـو عالم من الـدلتا الشـرقيـة، في حين كانت حكـايـات خيـوبس[٨] تتحـدث عن المغـامرات البائسة للكـاهن القـارىء «أوباونر» الذي عرف بطريقة السحر كيف يتخلص من خصم كان زوجته تمارس الحب معه.

وتطلعنـا الحكـايـات نفسهـا على «دجـادجـامانخ الشهير» الساحر الماهر، الـذي تمكن بألعـابـه السحـرية من ادخال روح المرح إلى صدر الملك، ويجب أن لاننسى أخيراً القصة الشعبية عن الساحر الذي يأمر بالأعمال الشريرة، والتي جاءت من قصـة «لـوسـين»، فهي تظهـر صورة كاتب مقدس من ممفيس. انظروا كيف يروي المؤلف الروحي «فيلوبسيدس» المغامرات المزعجة لبطلها «اوقراتيس»:

كنت عندها شاباً، أقيم في مصر، حيث أرسلني والدي لإكمال دراستي. في أحـد الأيـام، جاءتني رغبـة في الصعـود إلى النيل حتى «كوبتوس»، والتوجه من هنـاك لرؤيـة تمثـال ممنـون، وسماع الصوت العجيب الذي ينطلق منه عند شروق الشمس، لقـد سمعت الصـوت، لم يكن مثـل الأصـوات المألوفة للأموات، إنه صوت غير واضح، لكن ممنـون نفسـه، فتـح فمـه وأعطـاني وحيـا (كـاهن عند الاغريق، وقد ساد الاعتقاد بأن الاله يجيب عن سؤاله حول أمر من أمور الغيب)

من سبعة أبيات من الشعر، والتي أستطيع أن أرويها لكم، إذا لم يكن هذا غير ممكن.

لدى صعود النهر، صادف أن كان بين المسافرين مواطن من ممفيس، وواحد من الكتبة المقدسين، رجل معجب بمعرفته ومهارته في جميع مذاهب المصريين. يقال بأنه قضى ثلاثة وعشرين عاماً في المعابد تحت الأرض، وكان ايزيس يعلمه السحر.

قال اريغنوتس: إنه «بانكراتس» الذي تتكلم عنه، إنه معلمي، رجل مقدس أجرد (حلق شعره وسائر أوبار جسمه) يرتدي لباساً كتانياً، مفكر، يتكلم اليونانية (ولكن بشكل سيء) طويل القامة، أنفه أفطس، مسطح، شفتاه بارزتان، أطرافه السفلية هزيلة وضامرة.

أجاب أوكراتس: إنه «بانكراتس» بعينه. كنت أجهل في البداية أي نوع من الرجال هو، لكن عندما رؤيته، وعند كل رسو للسفينة، كان يصنع العجائب الواحدة تلو الأخرى. وخاصة التجول مع التماسيح، والسباحة مع وحوش كانت تجثو أمامه، وتداعبه بذيلها، عندها، عرفت أنه كان رجلاً مقدساً، ثم عرفت بالتدريج والبديهة رفيقه، ودخلت عميقاً في خصوصياته، عندها أفضى إلي بكل أسراره، وفي النهاية طلب مني أن أترك خدمتي في ممفيس وأتبعه وحدي قائلاً لي: لن ينقصنا الرجال لخدمتنا، ومنذ ذلك الوقت انظروا كيف كنا نعيش.

لما وصلنا إلى المضافة، كان رفيقي يمسك بعارضة الباب، أو المكنسة والمهراس، ويغطي أحدهما بالقماش، ويقرأ على أحدها بعض التعاويذ السحرية، يبدأ الجسم الجامد بالمسير، ويظنه الحاضرون، رجلاً يذهب ليشرب الماء، ويحضر الطعام ويقوم على خدمتنا وقضاء حاجاتنا بمهارة. وعندما تنتهي أعمال الخدمة وتصبح لالزوم لها، كان يعيد الأجسام إلى سابق وضعها، المكنسة والمهراس، بعد تلاوة التعاويذ السحرية عليهما. انتابتني رغبة شديدة لتعلم هذا السحر، لم

أستطـع الحصــول عليـه : كان غيـوراً رغم كونـه تحت تصـرفي . . وفي أحد الأيـام ، وبعـد أن جلست خفيـة في زاويـة مظلمـة ، سمعت السحر منه دون أن يدري . كانت حكمـة السحـر مؤلفة من ثلاثة مقاطع . ثم ذهب إلى الساحة بعد أن طلب من المهراس مايجب عليه فعله .

في الغـد ، توجـه السـاحـر إلى السـاحـة لمعـالجـة بعض القضايا ، أخذت المهـراس وألبسته كما يفعـل المصـري ، وقـرأت المقـاطع الثلاثة للكلمة ، وأمرته بإحضـار المـاء . وبعـد أن ملأ الإناء وقدَّمه إليَّ ، قلت له : يكفي هذا ، توقف عن جلب الماء ، وعد كما كنت مهراساً ، لكنه لم يمتثل لطلبي ، وظل ينقل الماء لدرجة أغـرق البيت لكثـرة ماجلب منـه ، كنت شديد الانزعاج ، لأني أخاف من غضب «بانكراتيس» لدى عودته ، وهذا ماحصل فعلاً

أخذت عندها فأساً وكسرت المهراس إلى نصفين ، لكن كلاً من القسمين أخذ إناء وذهب لاحضار الماء ، وبدلاً من حامل واحد أصبح عندي حاملان . في تلك اللحظة ، جاء بانكراتس وفهم على الفور بما جرى ، وصنع من حوامل الماء قطعاً من الخشب كما كانت قبل السحر ، وتركني دون أن أشعر به ، واختفى ، ولم أعرف أين . . . . .

يرتبـط بهؤلاء الاخصـائيـين أيضـاً مجمـوعتـان من الكهـان : الميقـاتيون ، والمنجمـون . وقـد أثـيرت آراء كثـيرة مختلفـة حول المجمـوعة الأولى ، ونشرت في الكتب المتـداولـة . وأغلب الظن : إن هؤلاء الكهـان علمانيـون وأصحاب تفكير واسع ، يحضرون أفرادياً إلى المعابد ولمدة ساعة واحدة يومياً ليقوموا بالخدمة فيها ـ أعمال مجانية نوعاً ما ، وسمح هذا الشرح لمهامهم بتبرير الظروف الكثيرة لأسباب ظهورهم : ويبدو أن هؤلاء الكهان ، الذين يعملون أيضاً لمدة ساعة كانوا يهتمون بأشيـاء أخـرى : الفلكيـون المكلفون بتحديد توقيت العبادة في الليل والنهار. هم

الـذين تشـير إليهم النصـوص، أنهم يظلون واقفـين على المصـاطب والسطوح، يتابعون النظر إلى السماء، ويراقبون حركات الكواكب في الليل.

أمـا المنجمـون، فكان عليهـم واجب معرفة تقويم الغيب، والايضاح لكل صاحب طلب أين تكمن أيام الهناء والرفاهية، وأيام العجاف في السنة المصرية. وبالفعل فقد وُجدت تقاويم كثيرة من هذا النوع، حيث أضحى بالامكان تحديد أيـام السعـد وأيـام النحس، بمقـارنتها بأحداث الأساطير الالهية التي حدثت في اليـوم نفسـه من السنـة السـابقـة. فبعض الأيام كانت سيئة بشكل واضح، وكل شخص يعلم أنـه إذا ولـد فلابـدَّ له أن يمـوت بهذه الطريقة أو تلك. . . . عندما يولد ابن الملك مثلاً، إذا اعتقدنا على الأقل بالحكايات الشعبية[٩]، فإن الجنيات ـ إلاهات حاتحور السبـع ـ يحددن في نهايـة المطـاف قدره. لكن الاعتقاد بأن هؤلاء السيـدات النبيـلات لم يكلفن أنفسهن عنـاء التنقـل عنـد كل ولادة، ولا يكـترثن بسعادة الأب أو بؤسه، مما يضطره (أي الأب) بالتوجه إلى اختصاصي التقويم، ليعلم من تنبؤاتـه عن أيـام السعد والنحس؛ تلك كانت مهام الكهان الميقاتيين، التي تتحدد بتلبية رغبات الزبائن فقط.

وفي العهـود الأخيرة من الحضارة المصرية، أصبح الكاهن المنجم والميقاتي مزودين بكثـير من العلوم: فقـد تسللت إلى مصـر فكـرة ربـط قدر كل شخص بالظروف الكونية لولادته، فجرت العادة بوضع التقويم الزمني المستقبلي للمولودين حديثاً، وذلك بتحديد تأثيرات الأبراج التابعة للكواكب التي كانت مسيطرة لحظة ولادتـه. لكن هذه المـمارسـة المتأخـرة جداً، لم تكن لها صلة بالأعـماق المصـريـة القـديمـة، فالكـاهن الميقـاتي المـوجـود دائـماً في المعابد في فترة العصور الذهبية، يكتفي بتحـديـد حياة الرفاه والشقاء لأيام الولادة حسب الظواهر الاسطورية التي حدثت في تلك الأيام.

المنشدون والموسيقيون

لعب المنشدون والموسيقيون كأخصائيين، دوراً هاماً في حياة المعبد الدينية. ولم تكن الفرائض الدينية تحتوي على تلاوات فقط، بل تتداخل في بعض جوانب الصلاة منها، مقطوعات من تلاوات معدَّلة ومرتلة بمرافقة الغيتار (الهارب). سنتكلم لاحقاً عن ترتيلة الصباح التي توقظ الإله من نومه؛ نصوص أخرى من **دنديرا، وميدامود** وأماكن أخرى، تقوم على ايقاع غنائي، ومقاطع غنائية جماعية وردَّاتها. جميع هذه التظاهرات الفنية تطلبت وجود أخصائيين.

وفيما يتعلق بالموسيقيين والمغنين المقدسين، رجالاً ونساء، فقد توفرت لدينا المعلومات الكافية حولهم. ويبدو أن أهمية دورهم قد تطورت مع الزمن: يصنف كليمانت الاسكندري مثلاً، المغنين والمنشدين في مرتبة كبار الكهان؛ ينصب الاهتمام على أن تكون الأصوات متناغمة، ووقع الأناشيد متوافقاً مع التقاليد الدينية للخطب المقدسة؛ كذلك بعض التدريبات كانت ضرورية لتكوين هؤلاء الفنانين وصقل أصواتهم ومواهبهم، والذين ينعمون بحياة اجتماعية عالية المستوى. وفي عهد الامبراطور جوليان في نهاية العصر الوثني، كان يُجنَّد في الأسكندرية موسيقيون مقدسون للاحتفالات الدينية (جوليان، الرسائل ١٥٩ (٥٦)).

أما في العصور القديمة، فلم نتأكد كلياً، فيما إذا كان المغنون في المعابد شخصيات معتبرة سامية. وتظهر لنا مجموعة الوثائق الاقتصادية والاجتماعية الهامة، نُصُب العطاءات، أن هؤلاء كانوا فقراء مساكين، يملكون قطعة صغيرة من الأرض، مولعين بالموسيقى (خاصة موسيقاهم)، نذروا أنفسهم وحياتهم للمعبد: مقابل مهاراتهم تلك، كان رجال الدين يضمنون لهم أمنهم وحياتهم؛

كل شيء يدعو للتفكير بأن دفع الضرائب المالية، والمصادرات العسكرية لم تضمن لهم المزايا نفسها في الحياة المدنية.

أما المستخدمات من الإناث[11] اللواتي يشاهدن لأول مرة في ساحة المعابد، فيبدو أنهن تمتعن بوضعية اجتماعية أعلى، فقد عُهد لهن بممارسة المهام الكهنوتية؛ ومنذ الامبراطورية القديمة كانت الأمثلة كثيرة حول النسوة الكاهنات الالهات؛ نسوة من المجتمع الراقي، أو بكل بساطة بنات الكهان اللواتي ورثن الوظيفة الكهنوتية عن آبائهن ـ ويبدو أن النسوة قد استطعن جعل العبادة جيدة وعالية المستوى كالرجال.

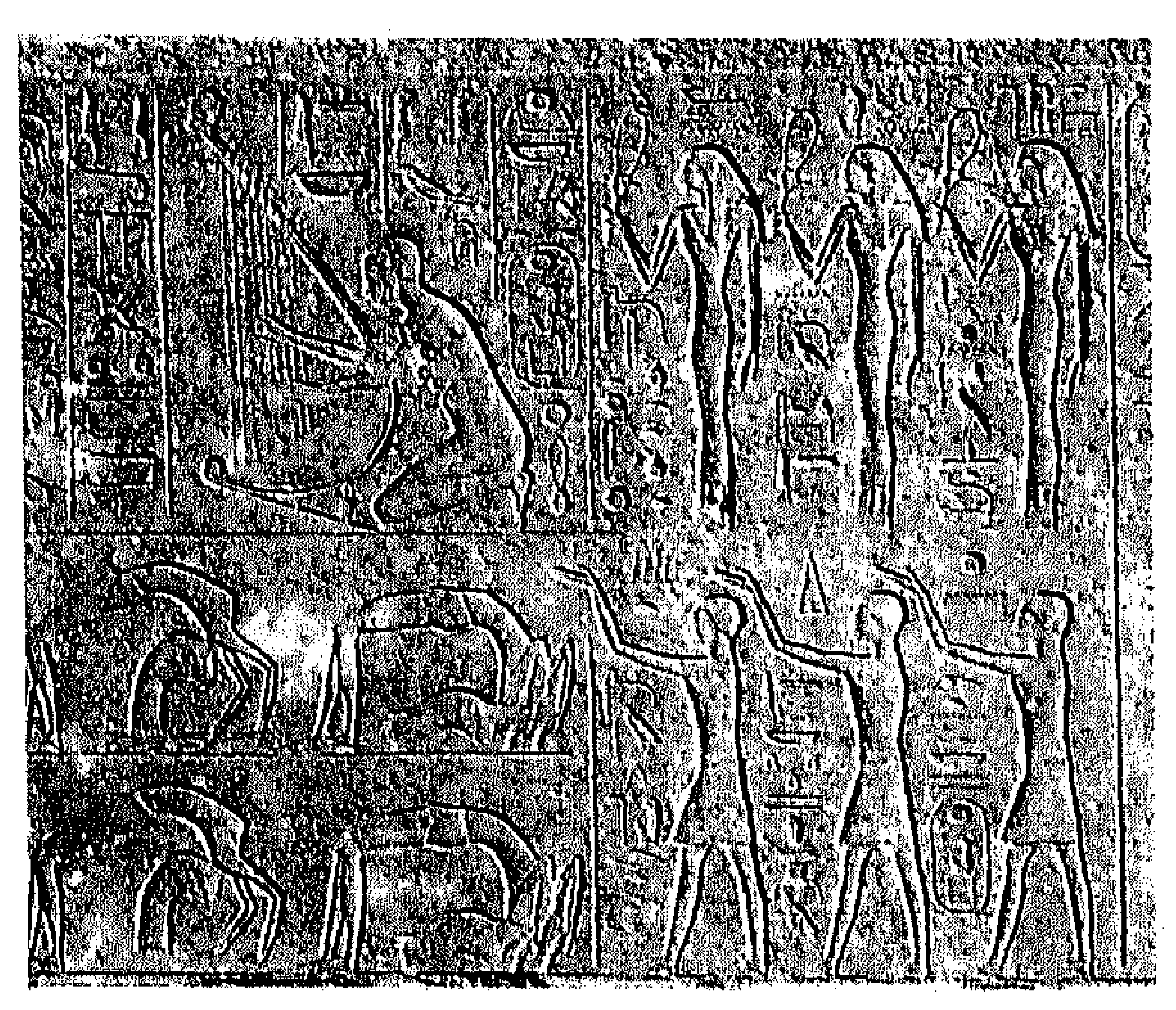
ومع مضي الزمن، ضعف هذا المبدأ وتمَّ التوصل تدريجياً إلى التخصص النسائي في العبادة: إن التنصيب الطبيعي لزوجة الاله على الأرض، الالهة المعبودة التي تشغل مكاناً مرموقاً في اكلير وس آمون، يبقى حالة منعزلة، لايقابلها مثيل في المدارس الدينية الأخرى؛ لكن حضور النسوة المغنيات والموسيقيات في المعابد كان ثابتاً ودائماً: وتظهرهن النقوش البارزة وهنَّ يضربن على آلاتهن الموسيقية «كالمزهر»، كما يحركن أوتار الغيثار أمام الآلهة ليدخلن الطرب والراحة إلى نفوسها من تناسق أنغامها.

إلى جانب هذا العمل الفني الرائع، كانت النسوة تظهر في بعض المناسبات المحدودة جداً: خلال عرض وتمثل الأسرار الدينية مثلاً، كانت فتاتان تلعبان دور الالهتين ايزيس، ونفتيس.

لتحضر فتاتان بجسدهما النقي، عذراوان خاليتان من الوبر والشعر، رأسهما مزين بشعر مستعار، بيدهما دف صغير، واسمهما مكتوب على كتفيهما ايزيس ونفتيس، تنشدان معاً مقطعاً من قصيدة في هذا الكتيب أمام الاله

(بابير وس بريطانيا، موسيقى ١٠، ١٨٨).

إذا ماصدَّقنا بابير وس آخر (برلين ١٤٢٥)، فإن هذا المشهد يجري أمام



موسيقى ورقص إكراماً للاله، الهيكل الأحمر.

الباب الكبير لأقواس معبد آبيدوس، لكننا لانستطيع الجزم بأن الأشخاص الشباب المدعوون للقيام بالخدمة (الصلاة) كانوا معتبرين من بين خدم المعبد الدائمين. إنهم كغيرهم من الاخصائيين الآخرين يمكنهم لعب دور هام ومؤقت في الاحتفالات الدينية، بعد حصولهم على شروط الطهارة الجسدية. وعلى هذ المنوال، كانت أحوال الفتاتين اللتين أعتادت النصوص اليونانية أن نطلق عليهما اسم التوأمان من سيرابنوم(١٢).

ستكون قصة هاتين الفتاتين طويلة إذا ماروُيت بالتفصيل، وسنرى بعض خطوطها الرئيسية: كانت والدة الفتاتين قد هربت مع جندي يوناني، ولجأ والدهما إلى هيراكليوبوليس خوفاً من بطش خصمه، ومات هناك. حضرت الفتاتان اليتيمتان إلى كهان سيرابيوم في ممفيس طالبتين اللجوء إليهم، حيث يوجد صديق

والـدهما (١٦٣ ـ ١٦٠). ولقـاء تأمـين العيش لهما، فقـد فُرض عليهـما لعب دور الالهتـين الاختـين ايـزيس ونفتيس وذلـك خلال الاحتفـالات الجنائزية المصاحبة لدفن آبيس. وهكـذا أمضت الاختـان حيـاتهـما في هناء وراحة نسبية، لولا بعض المآسي التي جاءت فيما بعد لتعكر صفو حياتهما. وهذا ما أصبح قصة أخرى. . . .

وأخـيراً قادتنـا بعض النقـوش البارزة إلى الاعتقاد بأن النسوة المحجبات، باستطاعتهن عند الضرورة وخلال الاحتفالات الرمزية لعب دور الالاهات.

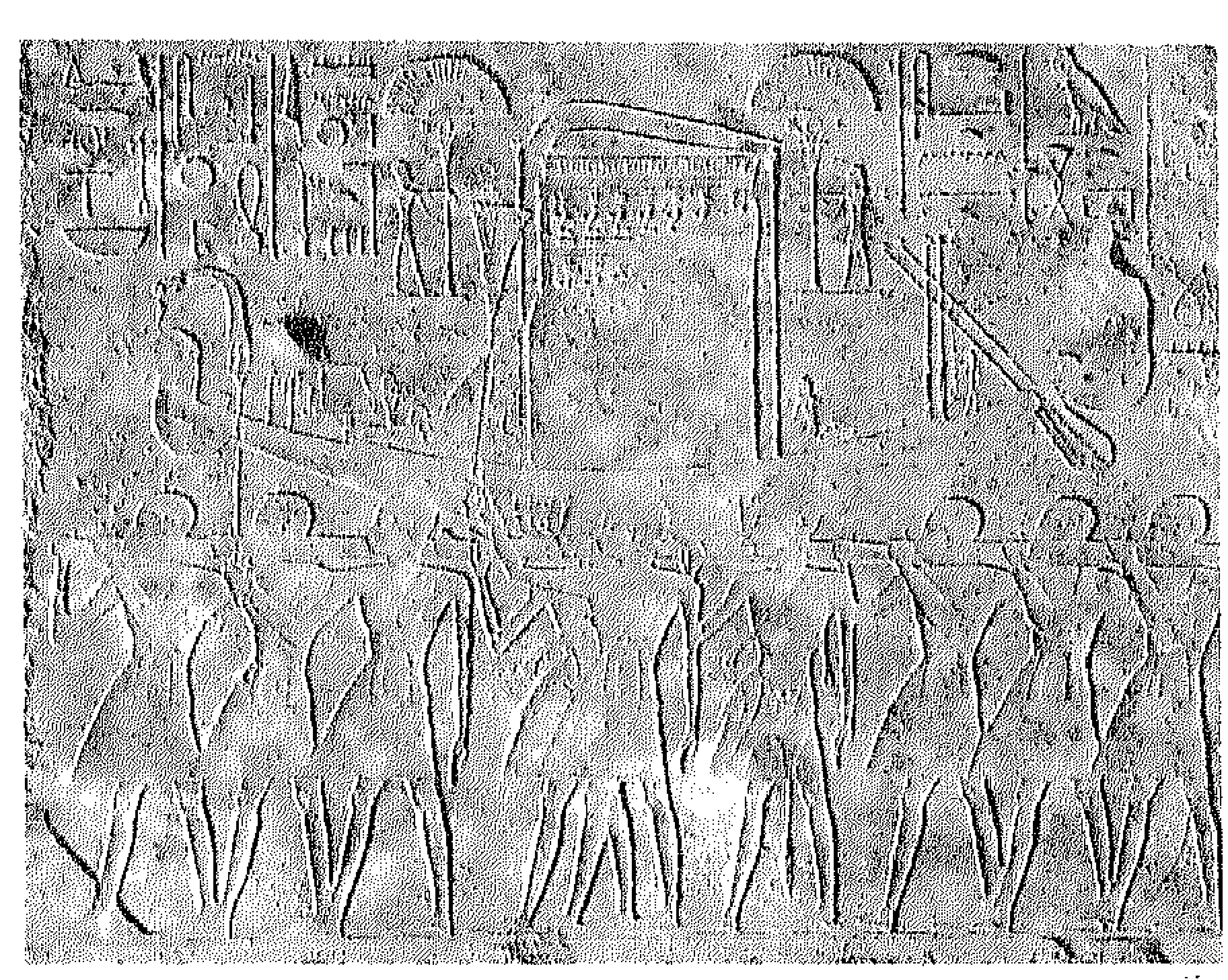
كنـا ذكـرنـا سابقـاً، بأن الهيكـل الكهنـوتي التابع لمعبد ما يتألـف من كهان دائمـين ومجمـوعـات متنـاوبـة من الخـدم (القـائمـين على الطقوس). وكان هذا التنـاوب محدداً بنظـام عشائري كهنوتي، وهوما أطلق عليه اليونانيون لفظ الرئيس (فيلاي). وعلى هذا المبدأ البسيط جداً، أنقسم المستخدمون المؤقتون إلى أربع



الالهـة محبـوبة آمون (تمينيرديس)
السـلالـة الخـامسـة والعشرين ـ
متحف القاهرة.

مجموعات أو فرق متوازية فيما بينها من حيث عدد الأعضاء وتوزيع المهام، وكل فرقة تتناوب الخدمة الدينية لمدة شهر واحد، أي أن كل فرقة من هذه الفرق لاتعمل أكثر من ثلاثة أشهر في السنة وهكذا تصبح الخدمة في المعابد فصلية.

وفي عهد البطالمة، تأسست فرقة خامسة دائمة العمل لمساعدة الفرق الأربعة في صيانة المعبد. ويقوم على رئاسة كل فرقة رئيس القبيلة يدعى «فيلارك». وعند نهاية كل شهر، تترك الفرقة التي انتهت خدمتها إلى الفرقة التالية لتحل مكانها وتستلم المعبد بأثاثه وأوضاعه حتى لحظة الاستلام. وفي هذه المناسبة أي عندما يتم التسليم تظهر المنافع الشخصية بالاستفادة من عمليات الجرد على ألواح الخشب وأوراق البردي حيث يمكن للفرقة الجديدة التأكد من وجود جميع المعدات والأدوات وخاصة المتعلقة بالعبادة في حالة جيدة وكاملة: من تماثيل، آلات موسيقية دمى صغيرة، آنية، وأمتعة أخرى تتعلق بالعبادة.

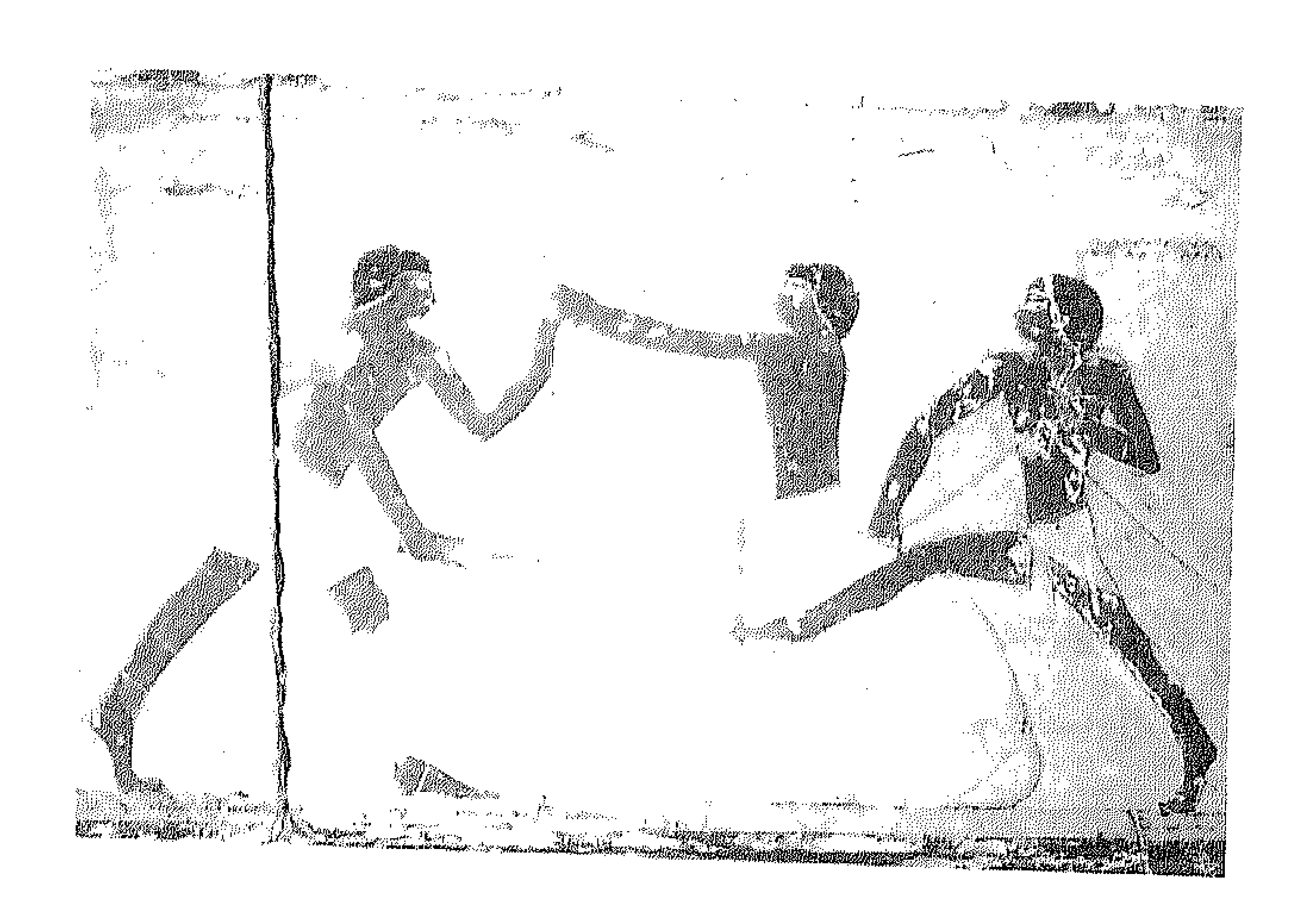


نقل سفينة آمون ـ الهيكل الأحمر ـ
الكرنك

صغار رجال الدين

يقف وراء العبارة العامة للاكليروس الأدنى، جميع الكهان الذين يحق لهم حمل لقب الأتقياء. أو الذين لهم دور بسيط في العبادات الدينية، والنشاطات المقدسة، فهم باختصار صغار الكهان. ويستطيع الكهان الأتقياء شغل مختلف المناصب: حملة القارب المقدس، السقاية في المعبد ورشه بالماء، مراقبة الدهانين والرسامين، ورؤساء الكتاب والعمال اليدويين للمُلك المقدس، أو أن يكونوا عمالاً يدويين بسطاء مكلفين بأحذية (صنادل) الاله... يتوزعون إلى طبقات في المعابد الكبيرة التي تمتاز بكثرة رجال الدين، منهم رؤساء الأتقياء أو المتقدمين في التقوى، أو من المرؤوسين المصنفين داخل فئة كبار الكهان الصالحين للقيام بجميع الأعمال التي يتطلبها المعبد والعبادة.

إلى جانب الكثير من صغار رجال الدين يوجد **الرعاة** Pastophore، حملة الأشياء المقدسة، والذين سبَّب دورهم الكثير من المشاكل الصعبة الحل.... كذلك **الأحبار** المكلفون بتقديم القرابين، فهم ينحرون الحيوانات المخصصة كقرابين للآلهة. إنهم ظاهرياً جزارون بسطاء تنسبهم بعض النصوص اليونانية إلى صغار الخدم، أما النصوص المصرية فتصنفهم ضمن مستخدمي بيت الحياة. ويجب على هؤلاء الجزارين الذين يقدمون القرابين والذبائح للآلهة، معرفة بعض المبادىء والرموز الدينية التي سينطقون بها أثناء ذبحهم الحيوانات، لكن عملهم الفعلي يتجاوز كل تلك المبادىء البسيطة. أما الحيوانات المخصصة للآلهة، فيجب أن تكن منتقاة، يجري ذبحها حسب بعض القواعد. ويأتي في النهاية **مفسر الأحلام** الذي أطلق عليه اليونانيون اسم «عالم بالغيب»، فهو كاتب مثقف ضالع في علم الظواهر الليلية، يضع نفسه في خدمة المؤمنين الراغبين في معرفة



مشهد قصابين ضريح نيبيث السلالة الخامسة . كلود روجر فيوليه .

معنى الأحلام ، في الوقت الذي انتشرت فيه فكرة قضاء الليل في المعبد لتلقي التعاليم الالهية . ومن المعلوم أن تفسير وشرح الأحلام قد أضحى نشاطاً هاماً لخدم المعابد الصغيرة من المنتجين لصغار رجال الدين والمساعدين كتبة بيت الحياة .

المساعدون وضيوف المناسبات

وأخيراً يجب على الأقل التحدث عن المستخدمين العلمانيين المساعدين ، الذين يسمح لهم نشاطهم بالسبر المادي للمعابد ، دون أن يشكلوا بمعنى الكلمة جزءاً من العالم الكهنوتي ، هؤلاء هم : البوابون والعمال حراس الأبنية المقدسة ، المستخدمون في المعامل والورش ، الخبازون ، الجزارون ، بائعوا الزهور ، المراقبون لهذه الجموع ، حاملوا القرابين والتقدمات الذين يتواكبون في صفوف ومجموعات مرتين يومياً ، وهم يحملون طعام الاله ، يسير خلفهم حملة المكانس الذين يزيلون

آثار الأقدام عن أرض المعابد الصغيرة: تتلوهم أطقم الفنانين، والمهندسين المعماريين، والنقاشين، والدهانين والنحاتين الذين ستبقى مهامهم ترميم، بناء، تزيين الأبنية المقدسة حسب تعليمات كتبة بيت الحياة.

العبيد من ذوي الوظائف غير المستقرة، هم أفراد مساعدون يسهرون على عناية الحيوانات المقدسة، ويقدمون لها العلف اليومي، ومن ثم عرضها على السياح مقابل مكافأة مادية مناسبة. إلى جانب هؤلاء المساعدين الذين يصعب احصاؤهم لكثرة عددهم، والذين لايمكنهم الادعاء بانتمائهم الكهنوتي إلا من زاوية ضيقة جداً، فإن المعابد كانت تستقبل أيضاً جموعاً هائلة غريبة من الناس الذين يمكن وصفهم ببضع كلمات: المعتزلون عن البشر بمحض ارادتهم، أو المتعبدون.

إن كثرة المؤسسات الدينية الموصوفة بالتقوى في العصور الأخيرة من الحضارة المصرية التي كانت تخضع لقاعدة أخلاقية صارمة، وتساهم بكرمها وعطائها في صيانة أماكن العبادة[١٣]، قد سمح بوجود مجموعات الأتقياء المتعبدين بمحض ارادتهم في ساحات المعابد، والذين يحتفظون لأنفسهم بحرية الدخول والخروج منها حسب رغباتهم، مقابل ذلك، هناك فئة أخرى من الأشخاص، لم تكن تجد في الهيكل راحة نفسية فقط، بل ملجأ حقيقياً من الأخطار الخارجية التي تهددها[١٤]: شرطة، تجنيد، مصائب أخرى، ويمكننا بعد كل هذا، تصور الموكب الضخم والمحزن من الفقراء المساكين ـ أو من قطاع الطرق مشوهي الوجوه ـ الذين يحضرون إلى ظل الأسوار المقدسة التي لايمكن اختراقها، للاستجداء والحصول على كسرة من الخبز، لضمان حياتهم البائسة.

وقد كرَّس بعضهم نفسه ظاهرياً على مدى الحياة لخدمة الاله، مثل الحثالة التقية معصبي الرأس في سيرابيوم من ممفيس، والمعتزلون بمحض ارادتهم، المتطوعون الذين وجدنا لهم بعض العقود: تقديم مبلغ من المال للكهان مقابل

شمولهم بحمايتهم من الأخطار. تالبنينيس، امرأة كانت تكرس حياتها لخدمة إله معبد صغير في الفيّوم، وتتصل به بعبارات ترددها:

أنا خادمتك. وكذلك أولادي وأحفادي، لاأستطيع التحرر أبداً من معبدك، سوف تحرسني، وتسقيني، تدفع عنى الأذى، تبعد الأرواح الشريرة المذكرة والمؤنثة تحميني من كل عفريت، من كل ميت، من كل غريق، من كل روح شريرة عدوة.

أما المجرمون، فكان عليهم الاكتفاء بالضمان والأمان الماديين، اللذين كان يمنحه لهم حرم المعبد، مقابل تأديتهم بعض الأعمال البسيطة، لتبرير حصولهم على الطعام.

وإلى جانب هؤلاء اللاجئين المتطوعين، يقف المرضى الذين يبحثون عن ملجأ للتخفيف من أوجاعهم، باستخدام الوصفات اللازمة لشفائهم. وأخيراً عرفت المعابد في العهود الأخيرة فئات من الضيوف المدهشين جلّهم من الفقراء والجياع: وخلفت نصوص الفلكيين والمنجمين عنهم، لوحات مليئة بالحياة: «الاقلاع عن كل عناية جسمية، تعبيراً عن رقيهم الروحي وتقواهم، إنهم أنصاف عراة، يرتدون الثياب البالية، يطلقون شعورهم تنموبطريقة كثة أشبه بذيل الحصان، للإشارة إلى سجنهم الطوعي، وأحياناً يقيدون أجسادهم النحيلة بالسلاسل. لاشك بأنهم كانوا يفرضون على أنفسهم صياماً صارماً عن الطعام، كانوا نظاميين لأبعد الحدود، جعلهم زهدهم وتقشفهم في أعين العامة بأن يكونوا جديرين بتقبل الوحي الالهي، وكانوا يشرحون الأساطير الالهية للزوار من السياح والحجاج، فهم بذلك أشبه بمترجمين، وغالباً متنبئين، يعيدون تلاوة الوحي الذي دخل روعهم، لقد حصلوا على بعض الفوائد من ذلك الجنون الرباني الذي كان يمتلكهم.

هوامش

١ - بابيروس حاريس ٨١ نص نشره «يـواريسن» بعنـوان: بابـيروس حارّيس ١ الكتـابـة الهيروغليفية. ف. بروكسل ١٩٣٣، ومن أجل سائر العصور (الامبراطورية القديمة)، ب. بوسنر كريجر: محفوظات المعبد الجنائزي تذكاري ركاكاي - القاهرة ١٩٧٦.

٢ - حول الاكليروس والمستخـدمـين الاداريـين في معبـد آمـون الكـرنـك، انظر جي لوفيفر تاريخ..... بابيروس صفحة ٨١/ ٥٩

٣ - لوفيفر: تاريخ.... بابيروس ١١٩ - ١٢٠ وصف كبير كهنة آمون نيبونّيف

٤ - من أجـل مرسـوم كانـوب ٢٣٨ قبـل الميـلاد، انظر فر - دوماس: وسائل التعبير باليونانية والمصـريـة في مراسيم كانـوب من ممفيس، القـاهـرة ١٩٥٢، وحول هذه النصوص انظر التـوضيـح الحديث لنفس المؤلف، النصوص المزدوجة أو الثلاثية اللغة، نصوص اللغات في مصر الفرعونية، القاهرة ١٩٧٤ صفحة ٤١ - ٤٥.

٥ - حول بيوت الحياة انظر آ. هـ. غاونير: بيت الحياة ١٩٣٨ صفحة ١٥٧ - ١٥٩.

٦ - البابيروس الطيبة في لندن وبرلين، نشرها ريزنسكي. وهناك بابيروس طيبة لندنية، وفي لايبزيك وبرلين.

٧ - نبوة نيفرتي. الأدب المصري القديم. بركلين ١٩٧٣ صفحة (١٣٩ - ١٤٥).

٨ - رؤيـا خويس: بابـيروس وستكار. لوفيفر: حكايات مصرية من العصر الفرعوني باريس ١٩٧٦ صفحة (٧٠ - ٩٠)

٩ - تهتم الإلهـات بملوك المستقبـل من السلالة الخامسة. أخذ هذا القول من بردي ويستكار «نصـوص مقـدسـة ونصـوص مدنسـة من مصـر القديمة. فراعنة ورجال باريس ١٩٨٤ صفحة ٢٧ - ٢٨

١٠ ـ حول المستخدمات من النساء في معبد آمون، يمكن قراءة المقطع المخلص لهذا الغرض في «ج. لوفيفر ص ٣٣ ـ ٣٤ ويمكن قراءة كتاب: م. جيثّون: زوجات آلهة السلالة الثالثة عشرة باريس ١٩٨٤.

١٢ ـ المراجع حول التوأم سيرابيوم كثيرة، فهي مذكورة بالتسلسل في ف. ويلكين برلين ١٩٢٧.

١٣ ـ ف دوسينغال: الجمعيات الدينية في مصر حسب الوثائق العامية القاهرة ١٩٧٢، الجمعيات الدينية في مصر حسب المصادر الهيروغليفية الشعبية واليونانية.

١٤ ـ ف. نون دوس: حق اللجوء إلى معابد مصر في ذكرى سيرج سونيرون.



رمسيس الثالث يحمل شارة آمون ـ متحف القاهرة

٤

الأنشطة المقدسة

كل من زار مصر، يتذكر المناظر المدهشة لمصاطب شعارة، شمس محرقة تسقط بشدة على عالم خرب: مباني متهدمة، جبال من الرمل وهجها لا يحتمل، إنها على عكس القبور التي تسري فيها رطوبة عذبة، بعث مفاجىء لعالم قديم قدم الاهرامات، سجلات متوضعة ودقيقة، جمع من الرجال يتحرك، يعمل، يغني على مرأى من عين الزعيم اليقظ.... نحن وسط منطقة غنية لمعبد كان في الماضي كبيراً، وجمع من الخدم والمقرَّبين يحيط به ويعمل من أجله. ها هو عند نهوضه من النوم يعدُّ له خادم شعره المستعار، وخادم آخر يدلِّك قدميه، وثالث يقدم له ثيابه، بعض الأقزام الأليفين يختارون الطوق المناسب لتقليده له، بينما يستقبله عازفو الغيثار (الهارب)، والمغنون بأصواتهم العذبة، لقد بدأ العمل اليومي، الموجهون والحكماء يقدمون تقريرهم: يظهر أنه بداية يوم قاسٍ وصعب، يكرسه في مراقبة المُلك الواسع الذي يعيش عليه السيد، والذي سيجعله غنياً.

هذه الحياة للسيد الاقطاعي الكبير، القادر كلياً على ملكه، الساكن في قصره، وسط جماعة من الخدم النشيطين، كان قد عزاها قدماء المصريين لآلهتهم: الكائن السامي الذي نزل إلى الأرض، وسكن قصراً رحباً «قصر الاله»: «خدم الاله».

«الكهان» كانوا يقدمون له العناية التي تتطلبها شخصيته المرموقة من النهوض حتى النوم، وكان يُغسل، يُلَبَّس ثيابه، يُعطَّر، يُطعم، يُسلى بالغناء والموسيقى، يوضع وسط مزاج المرح والسعادة ليتمكن من القيام بواجبه كالاله: تأمين حسن انتظام سير الكون. وقد كُلِّف الكهان بالخدمة المنزلية لهذا الكائن السامي.

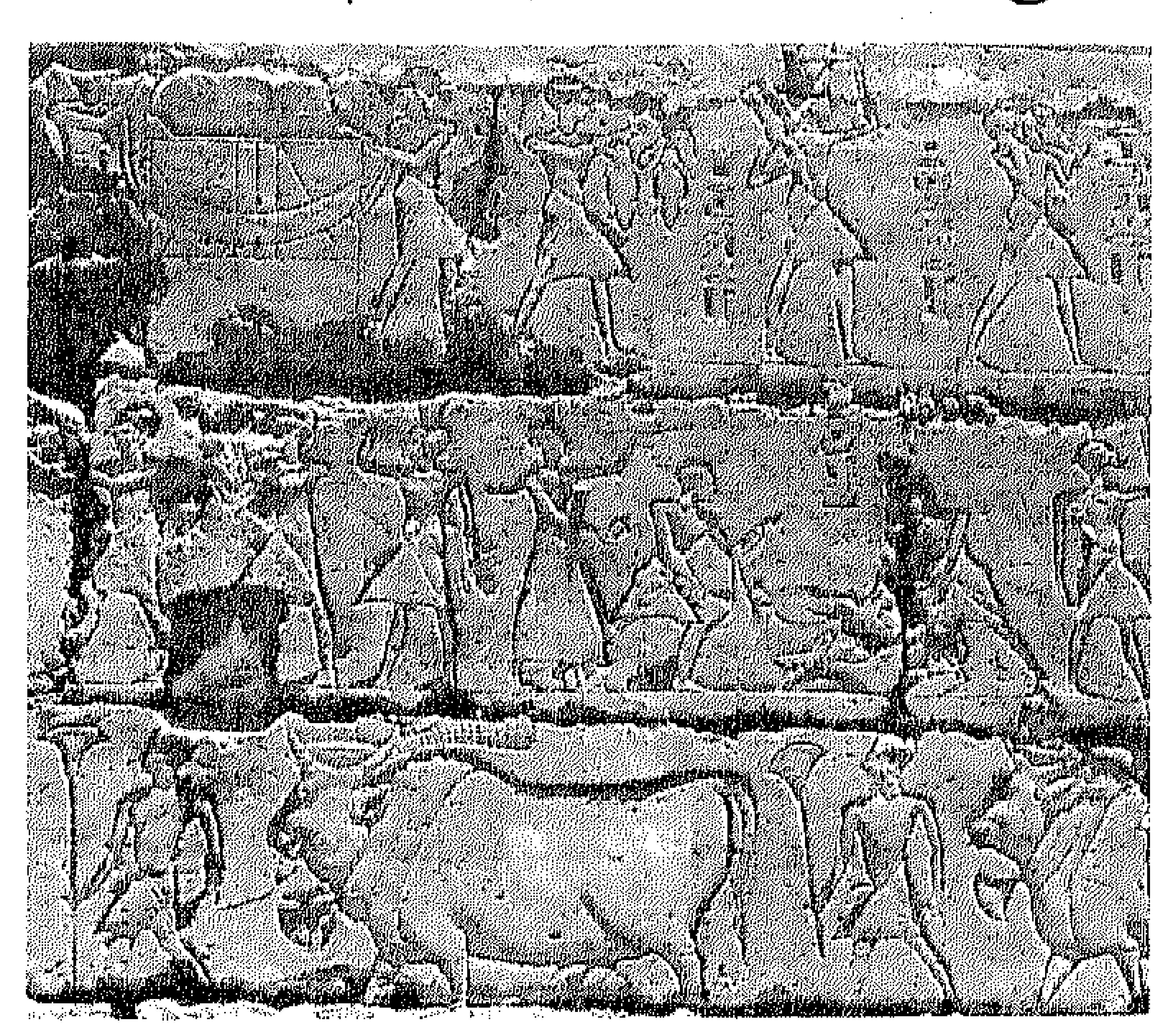
لكن السيد هنا، هو القادر على كل شيء، لايدع الناس يقتربون منه مثل رجال الريف؛ من جهة ثانية فإن مزاجه الجيد والسيء، لايقرران مصير بضع عشرات من القرويين فقط: بل يمكن أن يؤدي غضبه إلى نهاية البشرية. . . . أخيراً لايمكن لسلطة إلهية أن تسكن الأرض بدون إنزال العقاب، لأن باستطاعة القوى غير الطاهرة والشريرة أن تصيبها وتجرحها. . . فيجب إذن، اتخاذ كافة الاحتياطات لضمان سلامة الحضور الالهي، داخل أعماق أسرار المعابد، بعيداً عن أعين الناس ودنسهم. وبصورة خاصة، فإن نقاء المعبد وطهارة الخدم، والصرامة في ممارسة العبادة، والانتظام في توقيت التقدمات، جميعها شروط ضرورية لتلبية الحاجات الالهية، هذه المبادىء الثابتة سارت عليها جميع الديانات والعبادات في مصر.

تنام مصر، ويخيم الصمت على المدن والأرياف، وعلى النيل والصحراء. إلا أنه خلف الأسوار العالية للساحة المقدسة، وعلى مصطبة المعبد، يقف رجل يقظ: مراقب الكواكب يدون حسب ميل النجوم توالي الليل؛ لقد حان الوقت. . . .

بإشارته، ينهض حي بكامله من الملك الالهي؛ الأضواء تظهر، النيران تشتعل، الحياة تستأنف مجراها. خلال بضع ساعات، تبدأ الخدمة المقدسة، كل شيء يجب أن يكون جاهزاً. وتبدأ الحياة في المصانع، والمخابز: يقدم الكتبة للمراقبين قائمة تقدمات اليوم الجاري؛ السرعة هامة جداً. . . وبينما توقد الأفران يجري تحضير الحلويات والخبز، وينحر القصابون كبش التضحية، بعد أن يتأكد

الكاهن من نقائه وصلاحه؛ تحضر الخضار والفواكه وتوضع على الأطباق، يجتهد المحاسبون في تسجيل جميع المواد المعدَّة للتقدمة الالهية، ثم يقوم صغار كهان المعبد بتطهير وتنقية قطع اللحم بواسطة ماء البئر المقدس؛ وعند ازدحام النشاط في المصانع، تمضي الساعات المميزة بالمنادي: سيرونو الواقف على السطح؛ وتكون السماء قد امتلأت نوراً بضياء الشمس من الشرق.

عندها تدب الحياة في حي آخر من المدينة الدينية: هاهم الكهنة الذين تركوا مساكنهم، يتوجهون بمجموعات صغيرة مرئية وسط الظلام الداكن لبياض ثيابهم الكتانية، نحو البحيرة المقدسة؛ ينزلون إلى الماء المغشى بضباب ناعم، بواسطة أربعة سلالم جانبية. يقومون بالاغتسال، ليس بهدف تنظيف أجسادهم، بل لإدخال الحياة الالهية فيها شيئاً فشيئاً: الماء المقدس، كالبحر الأولي، حيث خرج منه العالم في البدء، فهو قوة مولدة: كل من يبلل جسده به، سيشعر بالتمتع بقوة جديدة، ويرتفع من الحياة السفلى ويدخل العالم الأزلي حيث تسكن الآلهة.



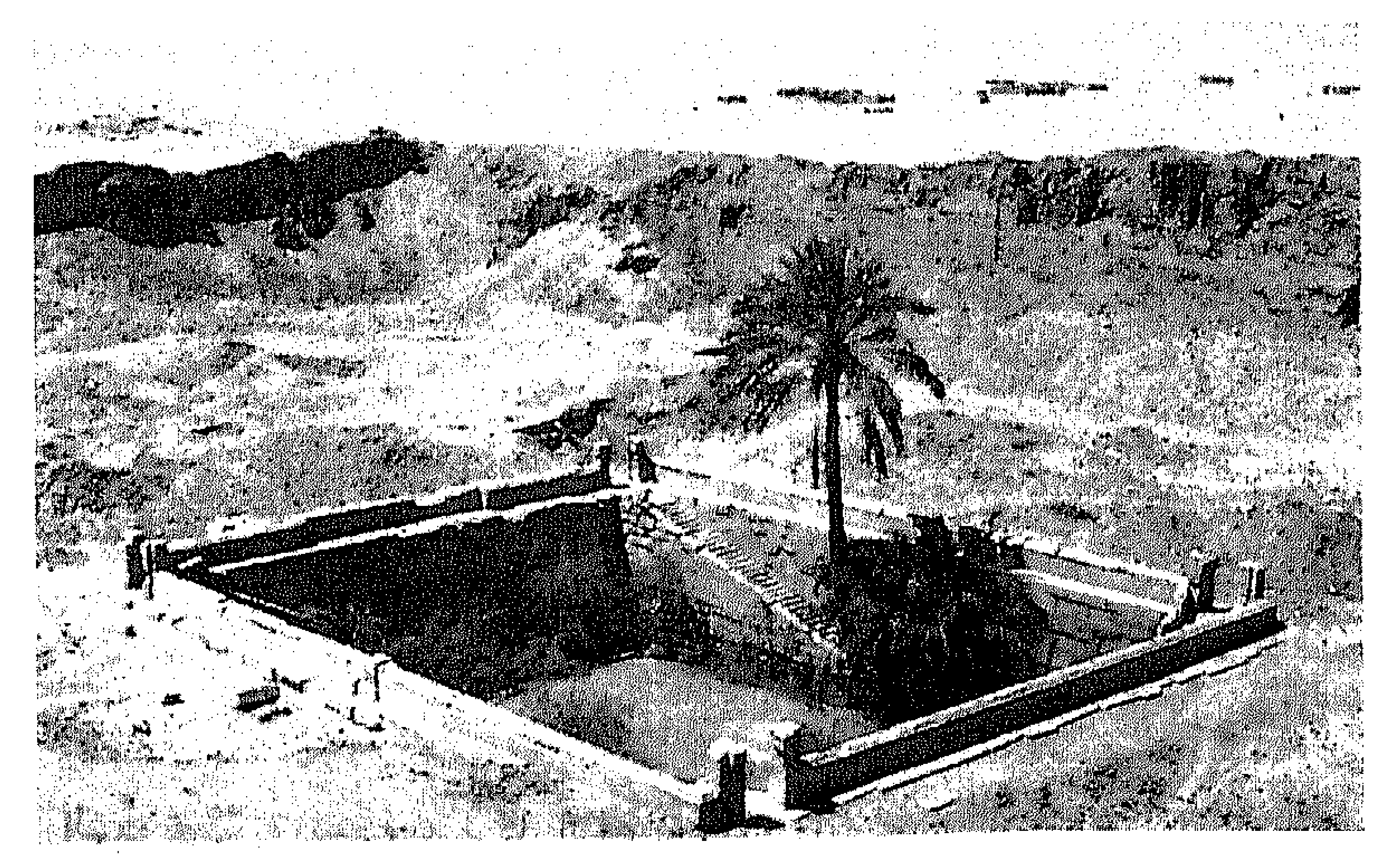
تحضير القرابين المخصصة للإله، معبد مدينة حابو

سيدخلون هذا العالم : من أول باب في جدار الحجر الرملي المحيط بالمعبد، وهاهم في الفسحة الكبيرة التي يحيطها البناء المقدس؛ هناك، يتفرقون، كلٌّ يذهب إلى عمله، تجديد الماء في الحوض الاحتياط، تبخير، تنقيات مختلفة، خدمة تحضير كاملة تجري في الغرف الجانبية المقدسة، وعلى الطريق الذي سيسلكه موكب التقدمة، إلا أن الوقت يمر، السماء مضاءة كلياً، حمراء على حافتها الشرقية.

عندما يصل موكب «التقدمة» تبدأ الورش التحضير بسرعة؛ دقيقون في مواعيدهم كالعادة، في اللحظة المطلوبة، يشرعون بتسليم الطعام الصباحي الذي سيقدم للآلهة، ويتقدم الحمالون نحو الممر الجانبي للمعبد حاملين على أذرعهم المطوية، الأطباق المحملة بالأزهار، والثمار، ومن أجل التوازن قد يحملون على رؤوسهم الاثقال الكبيرة من الخبز واللحوم التي تطلبها الشهية الالهية، وجرار البيرة أو الخمر التي تروي عطشها. يتقدم الموكب خادم مرتِّل باتجاه المعبد الذي تفتح أبوابه واحداً إثر الآخر؛ ترتفع الصلاة، بتكريس الطعام لآلهة المعبد، طالبين منهم قبوله : بعد وصولهم إلى غرفة المذبح، الكائنة وسط المعبد، غير بعيدة عن قدس الأقداس، يقف الحمالون، ويضعون أطباقهم على الموائد الدائرية والمذابح، ثم يضعون جرار الشراب على الحوامل التي تحيط بقاعدتها الطويلة المحدودة، وتغطى هذه التقدمات بالزهور والنباتات الخضراء.

وبينما ينسحب الحمالون، يقوم الكهان بالتطهير، وتكريس التقدمات بالرش والماء، ودخان البخور، حيث تبدأ مرحلة أخرى جديدة من العبادة.

النوافذ الضيقة صنعت على مستوى السقف، حزمة من الضوء القوي نوعاً ما تدخل غرفة المذبح؛ تنتصب أمام الكهان وجوقة المرتلين (الخورص) القابعين قرب التقدمات، الواجهة الكبيرة لقدس الأقداس المغلق حتى ذلك الوقت. أحد المشرفين الكبار على الاحتفال من المرتبة العالية، يمكنه فقط الدخول أثناء حضور



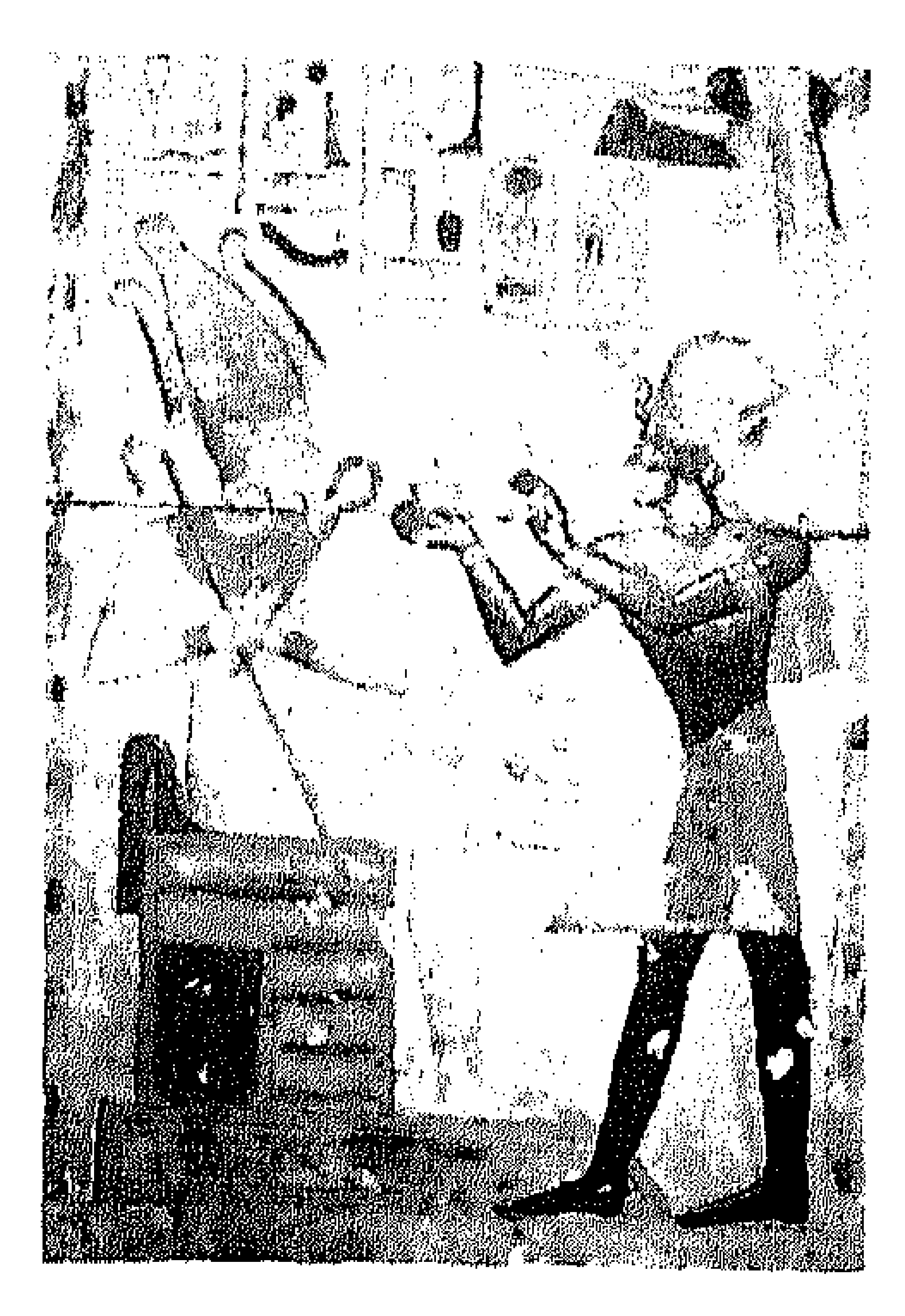
الالـه، يصعـد بضـع درجـات تفصله عن قداس الأقـداس، وينزع خاتم الطين الـذي كان يغلق المـدخل الليلة السابقة؛ يدفع المزلاج، ويبعد المصراعين. وتبدأ الشمس التي تجاوزت الأفق بالصعود في الطرف الشرقي من السماء؛ وينشد رئيس جوقة المرتلين أمام الاله، النشيد الصباحي:

استيقظ، أيها الاله الكبير، بسلام! استيقظ، فأنت في أمان[٢]

ويـردد المغنـون بصـوت واحد ضخم تهتز له الدعائم المائة للسقف، وتتردد أصداؤ ه من هيكل إلى هيكل، محدثاً صدى قوياً:

أنت مستيقـظ، أنت بسـلام؛ استيقـظ جيـداً بسلام، استيقظ، ياإله هذه المـدينـة الحي! الآلهـة تقـدس وتعظم روحـك صباحاً، أيها القرص المجنح الذي ينهض لدى خروجه من أمه نوت! أنت الذي تكسر سجنك الطيني، وتنثر غبارك المذهب على الأرض، أنت تولـد من الشـرق، وتتـلاشى في الغـرب، وترقد في معبدك كل يوم[٣]. . . . .

ثم يستأنف المغني دعـاءه القصـير، الـذي تتغـير نبراته، بينما تعاود الجوقة



تقدمة البخور للإله أوزيريس،
معبد ستحي الأول في أبيدوس.

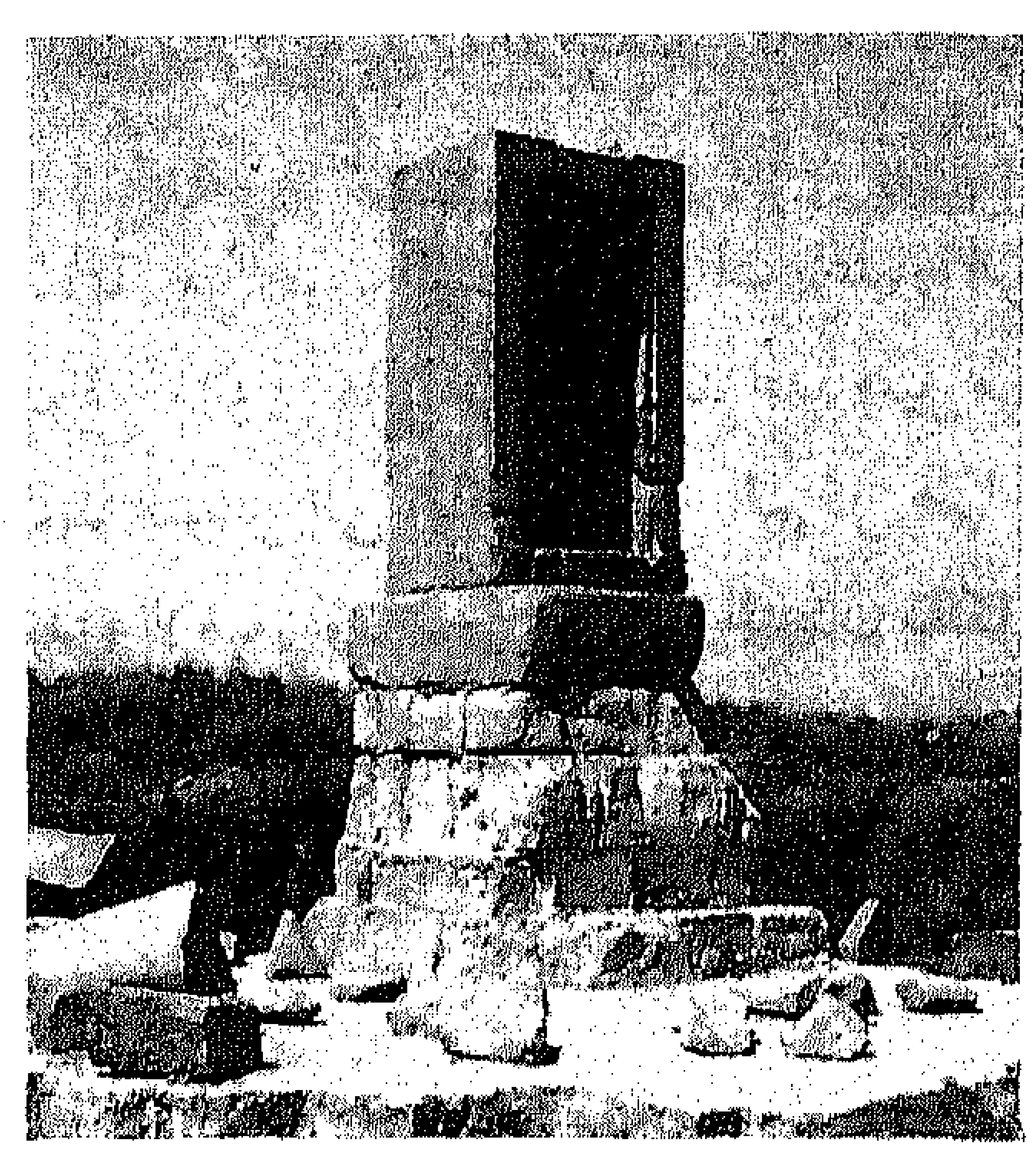
الـردّه بصـورة رئيسـة بعـد كل آيـة، بعد الانتهاء من ذكر الصفات الالهية، ينتقل رئيس الجـوقـة إلى الآلهـة المشاركين، ومن ثم إلى أجزاء الهيئة الالهية التي تستيقظ للحيـاة: **أعينكم تنشـر اللهب! أعينُكم تضيء الليل! أجفانكم تستيقظ بجمال، أيها الوجه الناصع، أنت من لايعرف الغضب!**[٤]

هكذا تذكر الأعضاء الالهية التي تنهض للنهار خمساً وأربعين مرة، بينما تردد الجوقة:

أنت مستيقظ، أنت بسلام... أنت تنثر غبارك المذهب على الأرض.

وجـهـاً لـوجـه «المجـابهــة»

الكاهن وحده يحق له الاقتراب من الاله، والدخول إلى قدس الأقداس؛ الظـلام فيه داكن، الشمعـة المشتعلة منـذ الليـل بدأت تخبـو شيئاً فشيئاً، داخل مقصـورة صغـيرة، القـارب المقدس مسجًى على قاعدة مصنوعة من الغرانيت أو البـازلت، بابهـا مغلق بمصـراعيـه. في مكـان اخـر، صندوق خشبي لاستيعاب



مقصورة (ناوس) منديس
المكرس للاله سحو

المعـدات والأدوات الضـرورية للعبـادة، وبعض قطـع القماش: والمذبح، الذي توضع فوقه أطباق تقدمات الليلة السابقة.

يبدل الكاهن الشمعة ويشعلها: الظلال الكبيرة للقارب، لمقصورة الاله، للخادم، تنتقل على الجدران المنحوتة أو المدهونة، بألوان زاهية: وتعود الحياة إلى قدس الأقداس بعد ثبات الليل الطويل، ثم يحطم الختم الطيني الذي يوصد أبواب المقصورة، ويسحب مصراعيها نحوه برفق وهدوء - لحظة احتفالية - لتخرج صورة الاله من الليل، في نفس اللحظة التي تبزغ فيها الشمس في الأفق ومع الكلمات الأولى لنشيد الصباح. . . .

جميع الذين تجولوا في صالات متحف اللوفر، يتذكرون بالتأكيد، الهيكل الصغير الذي أقيم في نفق أرضي لتمثال الاله أوزيريس؛ يبدو الاله في بيته الصغير (مقصورته)، المنار بأسلوب ذكي، بمصابيح جانبية، ويبقى الزائر مشدوداً بذلك المنظر الغريب، صورة الخشب المنبثقة عن الظل، ضخمة ورعناء، لكنها تبدو ساحرة للغاية. هكذا يتوجب ظهور الاله عندما يفتح الكاهن مصراعي

المقصورة، شكل مبهم في الظل، لكنه متلألىء بعينيه المرصعتين وتاجه، وحليه المعدنية من فائض ممتلكاته.

لم يكن تأمل الاله حقاً مشاعاً. من حيث المبدأ، كان الملك باعتباره ابن الالوهية، مخولاً بذلك فقط؛ الواقع، أنه في كل معبد، يتواجد عدد قليل من الكهان - ذوي الرتب العالية - يمكنهم التوسل إلى الملك بالسماح لهم كل صباح رؤية الصنم المقدس الذي كونته القدرة الالهية، وبوضع اليد على التمثال بشكل عناق، يعيد الكاهن الروح، للإله المرئي في سماء مصر، كما يعيدها لحاملها على الأرض، ليسود ويحكم كل يوم في معبده، ويكون حاضراً في مقصورته، وكذلك في الكون.

ثم يبدأ الكاهن بالصلاة، أذرعه مسدلة إلى جانب جسمه، بوضعية الاحترام والخشوع، مكرراً تلاوة الصلاة أربع مرات لتبلغ زوايا الأفق الأربع، وهي الحدود القصوى للعالم:



كاهن في وضعية السجود
(السلالة الثالثة) متحف القاهرة.

أعبـد سيـادتـك ، بعبـارت مختارة ، بصلوات تزيد من عظمتك ، بأسمائك العظيمة ، بمظاهرك المقدسة التي ظَهرْتَ بها في اليوم الأول للعالم[٤].

وجبـة طـعـام الالــه

كانت القرابين تنتظر دائماً على المذابح ، حتى يأذن الاله بها ، يقوم الكاهن بعدها ، بنقل طبق الليلة الماضية من قدس الأقداس ، ليملأ غرفة المذبح بالخبز ، والحلويـات الطازجة ؛ التقـدمـة الرمزية فقط ، تدخل إلى مقربة من الاله ، وتمثل اللحـوم ، والحلويات ، الخضار والثمار المكدَّسة على المناضد الدائرية . ثم بعملين رمـزيـين ، قرابـين البخـور ، وقـرابين ماعت يجري تقديم الطعام إلى الاله والعالم ومناطق نفوذه .

لم تكن الألوهية تستهلك الأطعمة ، وهذا واضح لاريب فيه : جزمن روحه غير المـادي فقـط ، موجـود في تمثـاله : هكذا تكتمل وجبة طعام الاله خارج حدود الادراك البشـري : تمر النفس غير المـاديـة للأطعمـة في الـروح الربانية ، دون أن يتبدل أي شيء في وضع القرابين المكدَّسة على المذابح . . . . عندما يكتفي الاله ويشبـع بعـد وقت محدود ـ وتشبـع معـه الـربانيات الثانويـة المحيطة به في المعبد ، ترتب القـرابـين على المـذابح الموجودة حول تماثيل سائر الشخصيات السامية التي حصلت على امتياز رؤية نُصُبها داخل حرم المعبد المقدس ، ومن ثم يرجعون إلى الورش لتوزيع باقي الطعام على كهان المعبد حسب مستوياتهم المختلفة . هكذا يرى الخادم الالهي تكريس القرابين من قبل الاله ، مكتفين بحقيقتها المادية ، بعد أن تكون الربانية والأموات المميزون قد اكتفوا وشبعوا من الذات غير المادية .

أقـام الفـراعنـة الأبنية تحت الأرض ، لضمان طعام الاله من جهة ، وخدمه المقدسين والمستخدمين من جهة ثانية . لكن قد يحدث أن بعضاً من رجال الدين ،



الملك يقـدم ماعث إلى آمـون. لعب تصـويـري حول الاسـم الأول لرمسيس الرابع، معبد خرنسو.

ذوي الضمائر الضعيفة، يميلون للعبث بهذه الموارد المالية بالاستخدام المباشر لها، دون إخضاعها أولاً للمتعة الالهية.

وهكـذا تحدد النصـوص بدقة أنه : **شوهدت مؤونة الآلهة؛ لكن نطلق هذه التسمية على مايخرج من المذبح بعد أن يكتفي الإله منه.** (معبد ادفو)[٦].

الـنـظـافــة

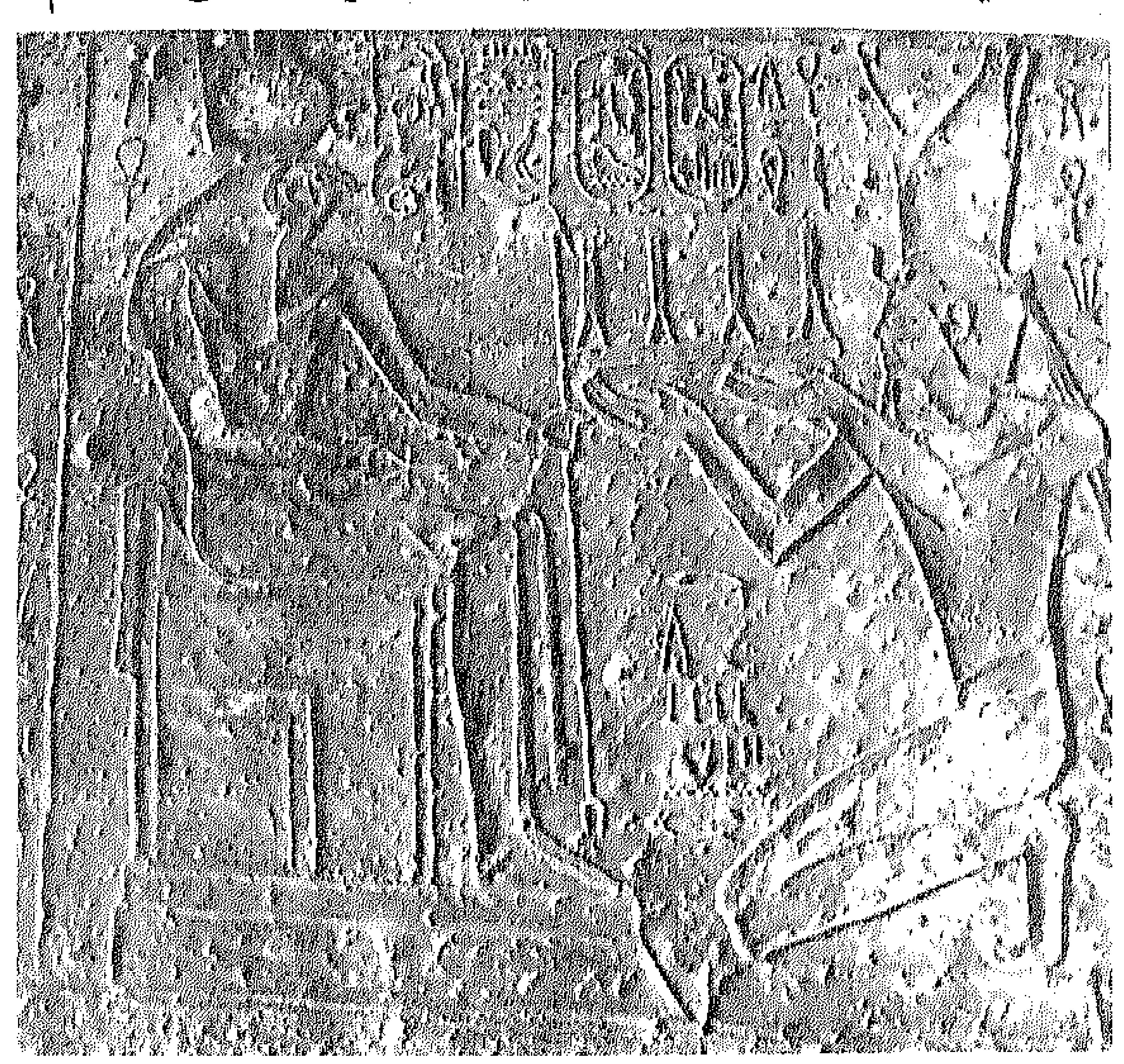
بعـد انتهـاء الوليمة، تبدأ عملية التنظيف؛ يُغسل لاله، تُخلع الثياب التي ارتداها في الليلة السابقة، ويُلبس ثياباً جديدة، ثم يُجمَّل.

معـروف أنـه ليس كل ثوب صالحاً لترتديه الآلهة والكهان: الصوف مثلاً، لايمكن أن يدنـو بأي صفـة كانت من الكـائنـات والأشيـاء المقـدسـة. القطن الخـاص، والكتـان النـاعم يستخدمان فقط في إكساء الأشخاص المقدسين، وهو القماش الوحيد الضروري الذي يقدَّم للتماثيل الالهية. لهذا الغرض ألحقت معامل

النسيج بالمعابد، التي كانت مهمتها الوحيدة، تحضير الأقمشة المخصصة للعبادة؛ بهذه المناسبة تذكرلنا الوثائق التاريخية: بأن أقمشة مدينة «سايس» في الدلتا كانت مشهورة جداً في العصر اليوناني ـ الروماني، وتروي أوراق البابيروس كثرة الخلافات بين المعابد والملوك، لتحديد مايعود لأحدهم وللآخرين من انتاج المعامل المقدسة.

كانت هذه المعامل تزود المعبد بالأقمشة بانتظام، والتي خصصت لها غرفة دُعيت «غرفة الأقمشة»، المكرسة لحفظ الاحتياطي من الألبسة. أخيراً هناك كاهن متخصص «Lestoliste» **يدخل إلى قدس الأقداس لتزيين الآلهة بثيابها**، كانت مهمته (أي الكاهن) الاشراف على هذه الثياب والاستئثار باستخدامها.

تستمر نظافة الاله إذن، بالتقدمة المتتابعة لأربعة شرائط من قماش الكتان الناعم، المحفوظ في صندوق قدس الأقداس؛ القماش الأبيض أولاً ثم الأزرق،



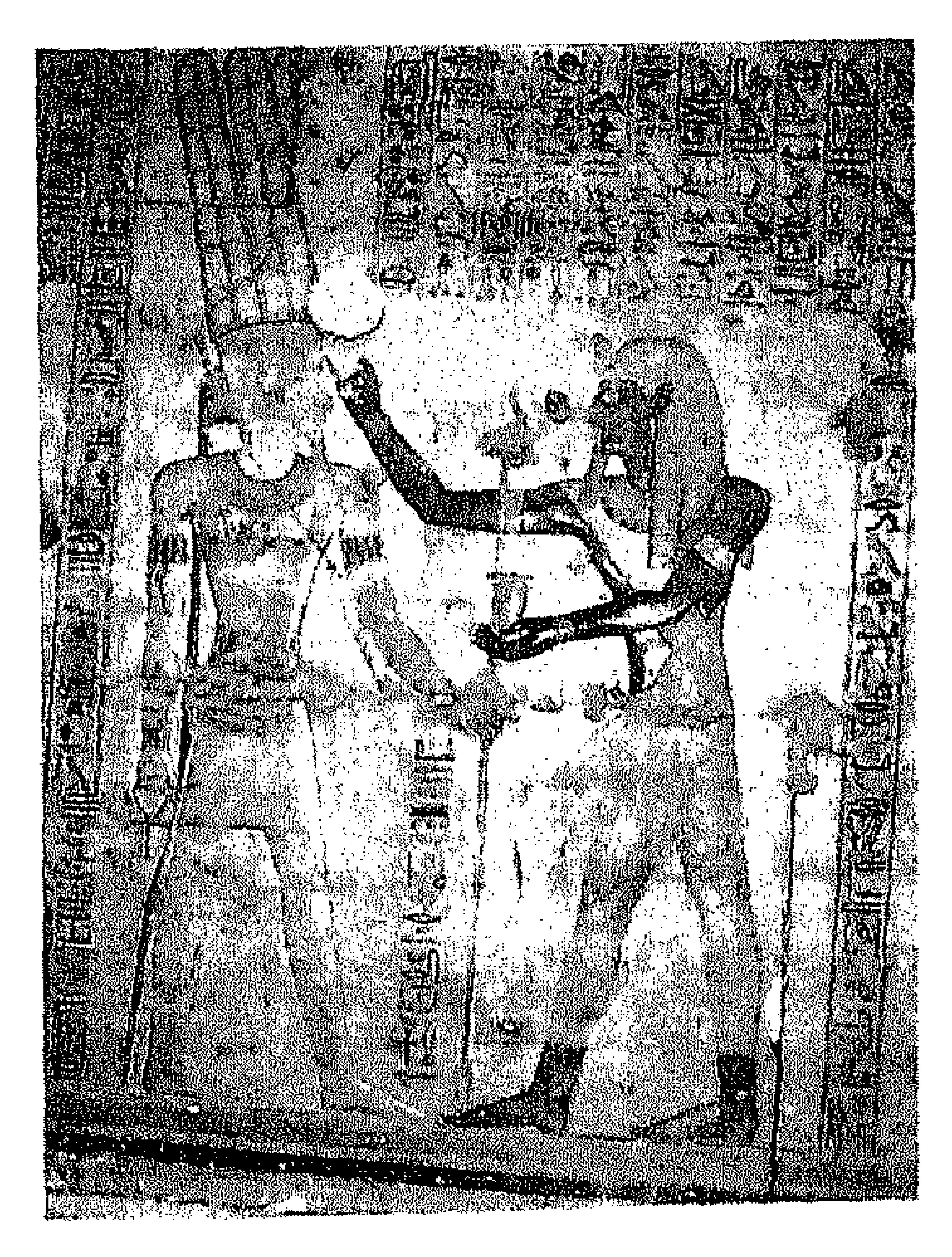
رمسيس الثاني يقدم الشرائط الأربعة الشعائرية لـ مونتو معبد كبير في أبو سنبل.

الأخضـر، أخـيراً الأحمـر. من الناحية العملية لم يكن اللباس الالهي يجدد يومياً، لكن التجـديـد كان يحصـل أيـام الخـدمـة الاحتفـاليـة التي تجري مرة أومرتين في الأسبوع. إلا أن شرائط الأقمشة الأربعة كان يجري تقديمها بصورة رمزية يومياً(٧).

بالنسبــة للزينــة كان الاجـراء نفسـه، فهي لم تكن تقـدم للإلـه إلا أثنـاء احتفالات الأعياد؛ لنذكر في هذا السياق ماكانت تشتمل عليه:

كان كل معبد يحتوي على غرفة صغيرة، مغلقة بعناية في الأوقات العادية، تحمـل اسـم الكنـز أو الخـزانـة. هنـاك، تُحفـظ الأشيـاء الثمينة المتعلقة بالعبادة، والمستلزمـات المـاديـة للربانية: لوحات صدرية، أطواق من جميع الأنواع، أغطية رأس مصغـرة، تصـوِّر كافـة الأوضاع ـ تكاد لاتحصى ـ التي يمكن أن تزين رأس الالـه، تقـدمـات رمـزية لعين أودجا، من الساعة المائية، المزهر، وأطواق أمينات والصولجانات، والأساور. كانت هذه الأشياء المختلفة، مصنوعة بأفضل الطرق، ذهب، فضـة، ومرصعة بالحجارة الثمينة اللازوردية، أو بالمعجون المرصع بالعاج من كافـة الألوان، صاغها بأعلى درجات الفن عمال اختصاصيون مهرة. ولم تكن تخرج هذه الأشيـاء من المعبـد، إلا أثنـاء العبـادات الاحتفالية، ويقدمها المشرف المتخصص للإلـه واحـدة تلو الأخـرى، بعـد أن يكـون قد ألبسه الكتان الناعم، لاتمـام زينتـه البهية. أما أثناء الصلاة الصباحية، فلم تكن تُعرض هذه التقدمات الثمينة. بالمقابل فإن احتفالاً أخيراً ينهي التزيين الالهي: مسح الاله بزيت الزينة ميـدجت medjet بمسـك الكـاهن بيده اليسرى قارورة مرمر صغيرة مملوءة بالمرهم الثمين، ويغمس بها أصبع يده اليمنى الصغير، ويدهن به جبهة التمثال الالهي، وهو يتلو الصلوات المقدسة.

عنــد هذه النقطـة من الطقس، تكـون الـزينـة الالهيـة قد انتهت، الالـه اغتُسل، أُلبس، زُين، عُطِّر بالزيت، شبع بما فيه الكفاية من الطعام، فيستطيع



مسح أو ترسيم الاله آمون ـ رع معبد ستسحي الأول أبيدوس.

والحالة هذه أن يجابه من جديدٍ ظلام قدس الأقداس: تكون القدرات الالهية هنا، قد حُفظت وتمت صيانتها من جميع الأخطار، وتبقى بذلك مؤهلة للقيام بدورها الكوني لليوم التالي.

المراسيم النهائية للعبادة الصباحية

تبقى بعض شعائر الطقسية الواجب القيام بها، دون اجراء، لكن جزءاً منها يجب تنفيذه بسرعة، بعد أن تم إنجاز الهامّ منها. بعض رشات من الماء على مقصورة التمثال، وقدس الأقداس لتؤمن للإله مزيداً من الصفاء والنقاء الماديين؛ ثم يقدم الكاهن خمسة من أحجار النترون: (النترون يمن وادي الملح، حالياً وادي النترون، والنترون مكان بعيد من القبّ في مصر العليا)، ثم خمس حبات من

ملح النيتري ، وخمس حبات من الراتنج . ويسدل الخمار من جديد على وجه الاله في مقصورته ، وتُغلق أبوابه ، بوصدها بالمزلاج وختمها بالطين إلى اليوم التالي . أخيراً وقبل إخلاء المكان ، وبعد تبخير نهائي ، يُنقّى الهواء ويطهَّر من أي حضور منافي ، ويفرغ الماء الزائد في الأوعية داخل الأرض ، وتمحى بالمكنسة آثار الخطى التي ارتسمت على الأرض المغطاة بالرمل . بعد الانتهاء ، ينسحب الكاهن تاركاً مقصورته مغلقة والشمعة مشتعلة ببطء . وطبق الخبز على المذبح ، ثم تغلق أبواب قدس الأقداس ومحتوياته من المتاع الثمين ، لقد انتهت بذلك مراسيم الصباح[٨] .

ماهو إجباري لهذه الاحتفالات ، الزمن المادي للتلاوات والتراتيل ، اعادة تنظيم المعبد بعد الخدمة (الصلاة) الصباحية يتطلب بعض التفاصيل . كانت الشمس ماتزال عالية في السماء لدى الخروج من الغرفة المظلمة لقدس الأقداس كان الكهان يشاهدون النور الساطع في الفضاء المصري . مادياً ، كانوا في هذا الوقت أحراراً حتى صلاة الظهر ، ماذا يعملون حتى ذلك الوقت؟ من المحتمل أنهم يشرعون بتناول طعامهم : تكون عندها التقدمات قد نقلت من مذابح الآلهة ، وموائد الشخصيات السامية الممثلة بتماثيلها ؛ لتستهلك في الورش . ويستطيع الكهان بعدها القيام بمهامهم الوظيفية من ادارة داخلية ، جرد للموجودات ، تقارير مسائل متعلقة بالبناء وترميم الأبنية المقدسة ، وأخيراً إقامة العدل بين رجال الدين . وتأتي صلاة الظهر لتأخذهم من أعمالهم الكثيرة .

خدمة الظهر

كانت فترة خدمة الظهر أقصر بكثير من فترة الخدمة الصباحية[٩] . حيث تُقدَّم للإله جميع أنواع العناية التي يتطلبها في الفترة الصباحية ؛ كذلك يبقى قدس الأقداس مغلقاً ، لأن الآلهة لاتتلقى أي طعام قبل غياب الشمس ، فخدمة

الظهـر، مجرد تظـاهرة دينية ، تهدف إلى تحديد الوقت الكوني الهام في حياة الاله ، حيث تكـون الشمس قد بلغت قمـة مسـارهـا لتبـدأ انحـدارهـا ، وأكثر من كونه احتفالاً إضافياً للنصب المقدس الذي تلقته عند الفجر.

تشمـل خدمـة الظهـر بشكل أساسي ، على رش الماء ، وحرق البخور أمام مقـر إقـامة الآلهة الضيوف ، والملوك المؤلهين المعبودين في المعبد إلى جانب الآلهة ، وحـول المعبـد وخـارجـه أمـام القـاعات الصغيرة المخصصة للعبادات المشتركة. غسـل الآنيـة ، تجديد الماء في الحوض ليبقى مملوءاً دائماً - يشبه الجرن المقدس - في قاعـدة المـذبـح ، سقاية ، وتبخير مختلف الزوايا المحددة بالطقس ، وجميعها تشكل خدمة الظهيرة.



فرعون يقوم بالسقاية . إدفو.

الخـــدمـــة المســائـيــة

مهـما اكتسبت مراسيم المسـاء من أهميـة ، فإنهـا تبقى أقل رونقاً وعظمة من مراسيم الصبـاح . فالمـراسيم المسـائية ، كانت تكراراً للخدمة اليومية الأولى ، مع اختلاف بسيط ، وهو بقاء المعبد مغلقاً ، وإقامة مراسيم العبادة في المعابد الصغيرة الجـانبيـة المحيطـة بقـدس الأقـداس : تكـريس ، إرواء ، تبخير ، رفع الأطعمة ، تطهير كلي : وعلى وجه التقريب كل ماتحويه المراسيم الصباحية . في النهاية يجري تبخـير أخـير ، وتغلق أبـواب الهيـاكل الصغيرة ، والممرات ، وينسحب الكهان . وبينـما الظـلام يخيم بسرعة على الوادي ، كان الآلهة يخلدون للنوم كالبشر ، ويظل الكـاهن الفلكي ساهـراً على مصطبة المعبد ، يتابع حركات النجوم والزمن الليلي ليعلن حلول الفجر .

وكـما وصفنـا العبادة اليومية ، فهي تجري في وقت واحد ونمط ثابت في جميع المعـابـد المصـريـة . ومن البـديهي ان تكون ضخامة الاحتفالات بمشاركة أعداد كبـيرة من البشـر ، ووفرة التقدمات كانت متعلقة بأهمية المعبد . كانت هناك معابد صغيرة متواضعة ، يقوم على خدمتها خادم أو خادمان ، حيث لم يكن للترف فيها من موضع ، لكن كل شيء يدعو للاعتقاد ، بأن مبدأ الخدمات الثلاثية كان متبعاً في جميـع المعـابد . ويمكننا التأكيد بأقل قدر ممكن ، أنه في المعابد الكبيرة «كرنك ، آبيدوس ، ادفو ، دنديرا ، فيلاي» ان طقوسها الدينية كانت تجري في أوقات واحدة من النهـار ، وبمـراسيم متشابهة تقريباً ، بينما النعوت والأسماء الالهية مختلفة فقط . وحسب الحـال ، فإن بعض تفـاصيـل العبـادة كانت تأخذ مكاناً متفاوت الأهمية : فقـد أدخلنـا إلى المخطـط النظـري نوعاً من التلاوات والتطورات الطقسية التي لم تكن موجـودة إلا أثنـاء الاحتفـالات الضخمـة التي تقام كل أربعة أو خمسة أيام ،

ولكن مقابل ذلك أهملنا التفاصيل الثانوية الخاصة جداً لمعبد ما، لنعبر بواسطته إلى ذكر الطقوس في جميع الأنحاء المصرية. أما الصورة العامة التي ستبقى منها، لم تبتعد بكل تأكيد كثيراً عما يجري كل يوم في الأغلبية الواسعة من المعابد.

وكما ظهر لنا، فإن العبادة المصرية لم تكن خالية من الرهبة والعظمة. وإن أجزاء كبرى من أوجهها تبدو مادية صرفة. فصورة الآلهة التي تُغتسل، وتُلبس وتُغذى، لاتستجيب لمفهوم روحي كبير للعبادة. ومن جهة أخرى، فإن جزءاً كبيراً من الرمزية المتصلة بمعاني الوضوء والتبخير، والدعاء، لانستطيع ادراكه، ولجعله حسياً، ويجب اللجوء إلى شروحات وتفاصيل يصعب ذكرها هنا. لكن الفكرة التي يمكن ادراكها من العبادة المصرية عندما تقتصر على هذين النوعين من الانطباعين ستكون غير منصفة.

لقد لاحظنا عندما دعت الظروف، التوافق والتوازي بين حركات السماء، والشمس، والكواكب، ومختلف المراسيم الطقسية؛ يجب الادراك أن الكهنة لايكتفون بالعناية بمعابد وأصنام تتمتع بحاجات وشهوات بشرية، بل كانوا يفكرون الحفاظ بصورة متداخلة في التمثال، على جزء من القدرة الالهية الفائقة المرئية في الحياة نفسها وحركات الكون بحيث تتطلب كل حركة هامة في مسار الشمس احتفالاً خاصاً، مُهدى للنصب الأرضي للألوهية التي تشع على العالم بضيائها: إن التغيير في الترتيب الذاتي للمعبد وبالأخص الطقوس والمراحل الرئيسية في حركة الكون لاتفتقر بأدنى شك للشاعرية والعظمة.

بعد كل هذا القول الذي لايمكن تجاهل حقيقته، وتحت هذا الوجه الذي تكشفه لنا النصوص، فإن العبادة هي تتابع لأعمال صريحة محددة بنظام من الطقوس والمراسيم تجري في ساعة محددة ثابتة: كل شيء حُسب بدقة، وكل شيء فيه محدد: الظرف، المكان، اللباس، الشارة، الصيغة.

وكما هو الحال في خدمة السيد الكبير التي ذكرناها في بداية هذه الفقرة،

هنـاك سلسلة من العمليـات الـواجب تنفيـذهـا ، أكثـر من كونهـا ممارسـة روحية داخليـة . فالعبـادة عنصـر هام ـ لايمكن الاستغناء عنه ـ في الحياة الدينية . شيء واحد ملفت للنظر في أحد عناصرها : الشعب الذي لايشارك في شيء من المراسيم اليومية للخدمة الالهية ؛ الصلاة من إحدى مهام التقنيين ، إنها عمل متميز في الحياة الدينية الذي لايترجم سوى أحد نواحيه الأقل فردية . الروحية الفردية الغنية التي توجـد لدى خدمـة المعـابـد ، يعـبر عنهـا في مجالات أخرى . أما الحماس الجماعي الممنوع في المكان المقدس والذي لم تقدر حجمه حتى الآن ، فقد يجد فرصة خاصة للتعبير عن نفسه في الاحتفالات الدينية خارج المعبد .

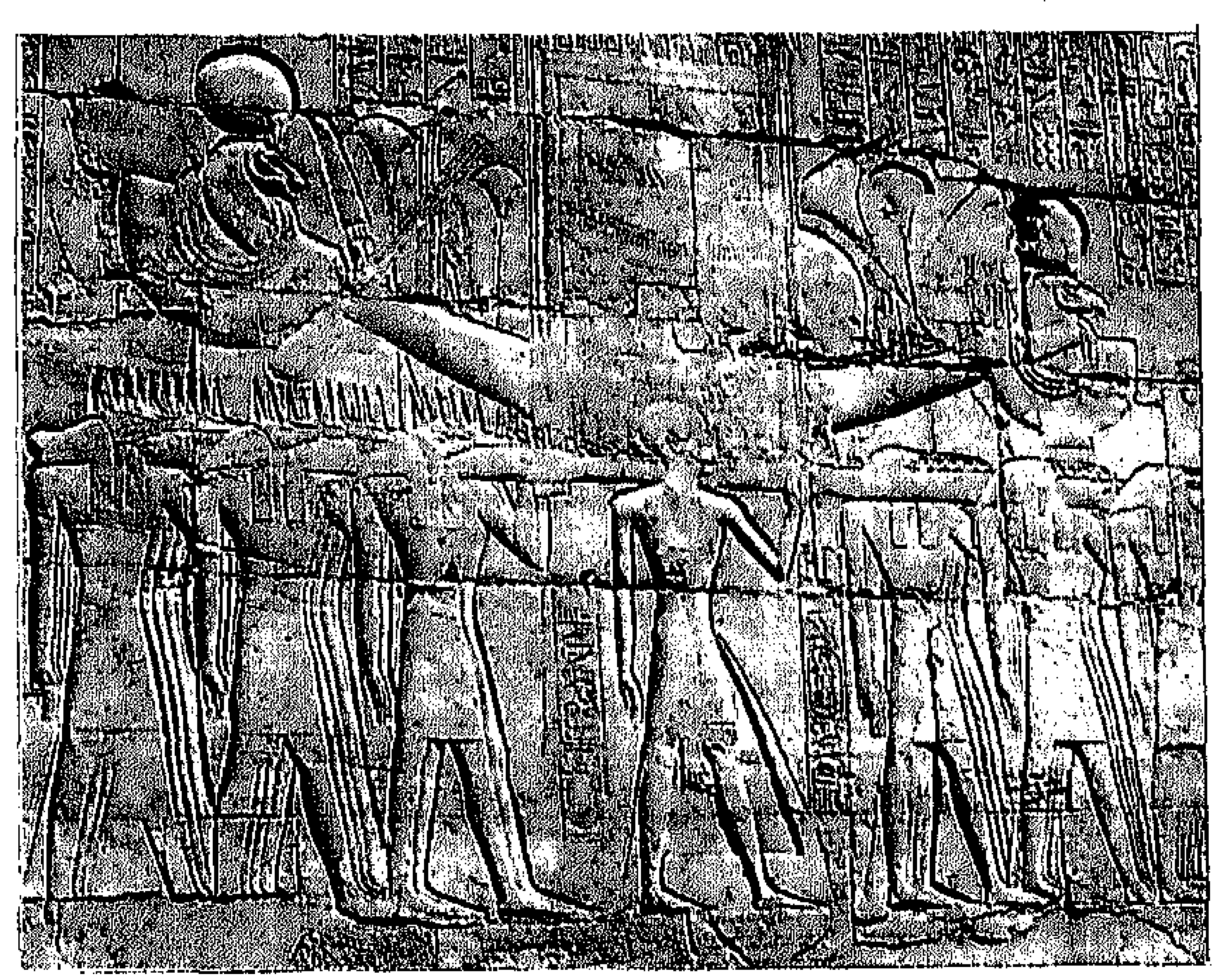
الـطّـــواف

لم تكن العبـادة اليـوميـة للآلهـة داخـل المعـابد تمثل النشاط الديني الوحيد للكهـان . غالبـاً ماتجـري صلاة احتفـاليـة كل أربعـة أو خمسة أيام ، بدل الصلاة النظـاميـة ؛ فالصـلاة ، تتطلب الكثـير من البـذخ والعظمـة واتسـاع بالطقـوس لايستهان به ، لكن خاصة واحدة توافق الاحتفال ، وهذا أمر شائع ، بخروج الاله من داخـل المعبـد ، والـطـواف خارجـه ، وفي تلك الأثنـاء ، كان يُوضع تمثال الاله المـوجـود داخـــل هيكـــل صغـير من الخشب ، على قارب يحمله الكهـان على أكتـافهم ، مخترقـاً أزقة القرى . كان القارب نموذجاً مصغراً للسفينة ، يمكن للإله أن يمخر على متنه عباب نهر النيل ، وأن يقوم في تلك المناسبة برحلات طويلة . في الـزمن العـادي ، يظـل القـارب مسجّى في معبـد الإلـه على حوامـل صغيرة من الحجـارة ، وفي بعض المعـابد الأكثر اتساعاً ، كانت تخصص للقارب غرفة مفتوحة أشبه بالمرآب في الوقت الحاضر.

كان القـارب مزينـاً بمقدمته ومؤخرته برأس الالوهية الذي تستخدمه حاتحور

بتقاسيم وجهه الضاحك، حوروس الصقر الجارح، خونسوذو الرأس المتوج بالقرص القمري. وفي وسط القارب ثُبِّت هيكل صغير من الخشب مغلق على مصراعيه، وفي داخله صنم الإله، وفوق هذا الهيكل مظلة من الخشب الخفيف أو القماش المشرع على أعمدة رفيعة من الخشب. وفي المؤخرة كما في السفينة العادية، مجذاف طويل جانبي يقوم بمثابة دفة التوجيه.

في بعض الأحيان، كانت صورة الإله أمام مقصورته تأخذ شكل صورة السجود في وضع الاله. في الداخل؛ أخيراً ترتفع في المقدمة، بعض الرايات المقدسة المتنوعة بحسب المعابد، حالة الوقوف مثل: أبو الهول، الصقر، وآخرون، يمكن لهذا القارب أن يأخذ أبعاداً مختلفة. أقل بكثير من الأبعاد العادية لسفن النيل: يجب أن لاننسى، بأنه كان يجب حملها على ظهور وأكتاف البشر وغالباً لمسافات بعيدة مع الأخذ بعين الاعتبار امكانية وضعها داخل قدس الأقداس، ذو البعد المتواضع. لكن بعض المشاهد في المعابد الكبيرة تظهر لنا سفينة كبيرة يتطلب حملها أكثر من ثلاثين رجلاً.....



نقل وحمل قارب آمون قاعة محملة على أعمدة في كرنك

رغم أن لقب **حامل الزورق** يعد من بين المهام الدينية الدنيا، فإنه من المحتمل خلال الطواف بهذه القوارب الكبيرة العملاقة، أن يتناوب الرجال في حملها على أكتافهم، ليكتسبون بهذا الحمل ثناء ومحبة مواطنيهم، وبعض فضائل الالوهية: يقول لنا مصري من عهد رعمسيس: «**لقد حملت بتاح على طول ذراعي**».

«**ليعطني هذا الإله النعمة لألآون طوباوياً. بحمايته ورعايته**». وفي غياب المنافع الروحية يمكن على كل حال إقامة علاقات مع الآلهة، وهذا ماكانت عليه حالة شخص يدعى **موزي**، الذي يخبرنا نصبه المحفوظ في مدينة طولوز الفرنسية، بأنه تعرِّف على شريك له عندما تناوب معه على حمل قارب الاله... كان الكاهن يمشي أمام القارب، يحمل المبخرة بيده ينثر منها دخان البخور لطرد الجن والأرواح الشريرة التي تحوم حول القارب، كان الكهان يسير ون خلفه، بمواكب طويلة بثيابهم النقية الطاهرة، يرتلون بعض الأناشد الوقعية. ينشط حولهم جميع المؤمنين والعاطلين عن العمل متأثرين وغوغائيين، مطلقين صرخات الفرح، مع جوقات المغنين المقدسين.

لقد احتفظت مدينة الأقصر بجزء من هذا الطقس القديم، لأنه خلال الاحتفال بالعيد المحلي أبو العجاج زعيم المدينة المقدس، يستمر الرجال في جر القارب عير شوارع المدينة، وأحياناً يحمل على عربة مجهزة بدواليب[١١].

المحطات

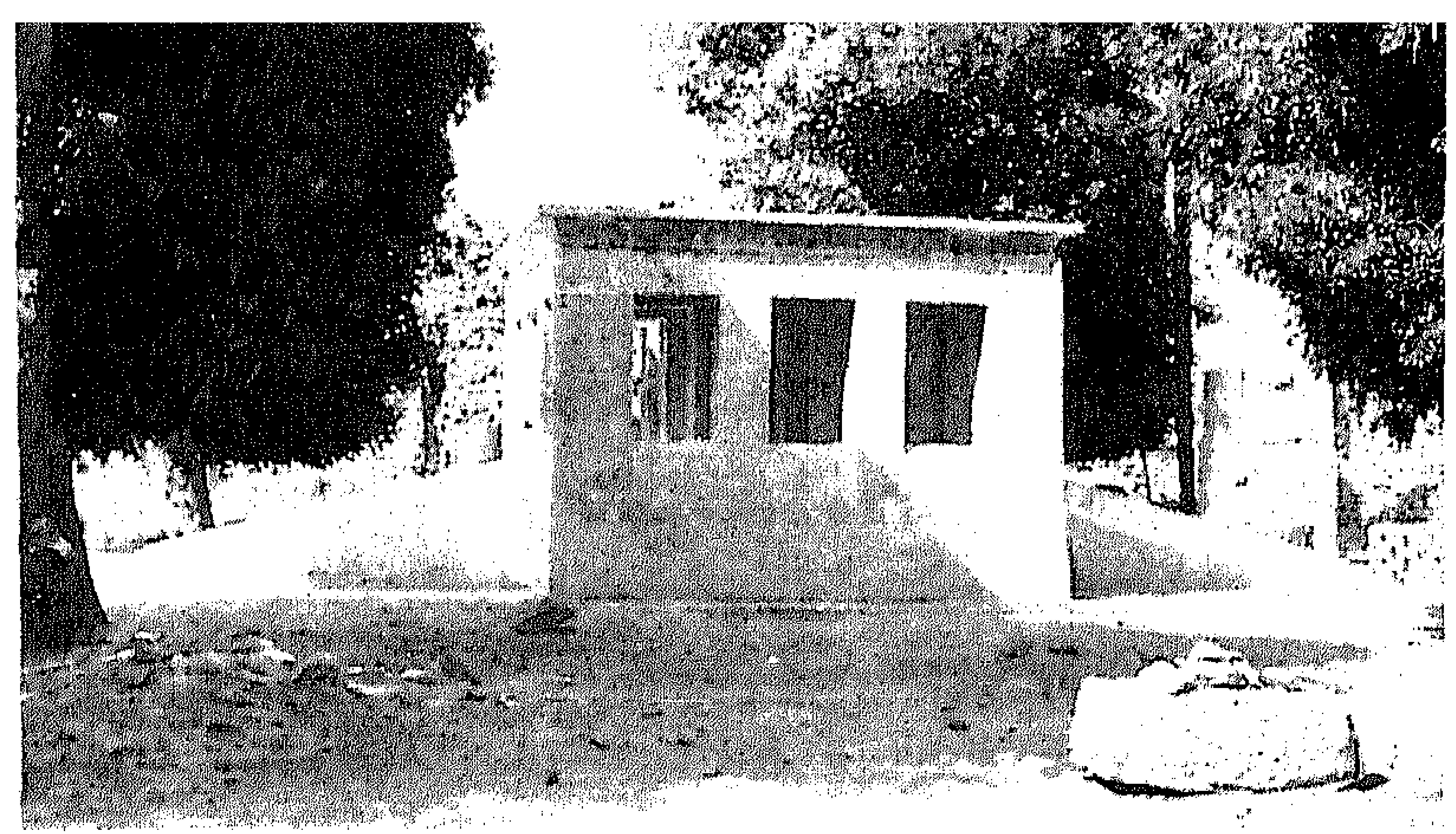
خلال الرحلات الاحتفالية، لايقطع الإله طريقه دفعة واحدة ليعود إلى حصنه في قدس الأقداس: بل كان طريقه مليئاً بالمحطات المتباعدة عن بعضها مئات من الأمتار. هناك الاستراحات القصيرة[١٢]، كان الحاملون يستريحون

بعض الوقت، بينما يقيم الكهان أمام الصنم الصغير الطقوس المطلوبة (التبخير، تقدمات متنوعة قراءة الكتب المقدسة). وفي هذه المناسبة تعطى النبوءات باستشارات مكتوبة وفي المساء إما أن يعود الاله إلى معبده، أويقبل الضيافة في معبد صغير ليستأنف بقية رحلاته في صباح اليوم التالي.

هذا النوع من التظاهرات الدينية لم يكن نادراً[١٣]، **فالتقاويم الدينية** المحفوظة في الكثير من المعابد تثبت لنا أن الرحلات كانت فصلية إلى حد ما. بمعدل خمس إلى عشر رحلات. مخصصة لأحد الآلهة، أولآلهة آخرين من المكان نفسه، والذي يتبدل مساره حسب الهدف من الطوّاف والمعبد المقرر للإستراحة الليلية. وفي ظروف أخرى، يخرج الإله بدون قارب: ففي بوتو (في الدلتا)، كان الإله «مين»[١٤] الذي يرتدي الأحمر، والمزين بصدرية، يذهب للاستراحة على عربة تجرها الخيول - بينما كانت الجموع المهتمة بالحضور، ترتجف من تأثير الرعب المقدس....

وقد يحدث أن يقوم المؤمنون اتباع الإله بجر الإله بدفع عربته، وأن مشهداً كاملاً من تاريخ الخرافات قد أشير له في تلك المناسبة. كان ذلك أثناء أعياد بابريميس حيث يقول هيرودوت: يتبادل الكهان قوة الضربات الشديدة تكريماً لربانيتهم، لدرجة أن بعضهم كانوا يموتون من تأثير جراحهم.

الحياة الكهنوتية، كما نرى، محفوفة بالمخاطر أحياناً. بينما نراها في الممارسات العامة وأثناء الأعياد الشعبية تسير في استقرار وأمان. إن دورهم يتبدل باستمرار تبعاً لطبيعة الاحتفالات: حراس الإله في رحلاته، كانت لديهم بعض الطقوس الواجب تنفيذها أثناء توقفات المواكب، بعض المشاهد الدينية أيضاً يجب انجازها لأنها تتعلق بموضوع العيد نفسه؛ لكن هذه الأعياد قد تُكرَّس لأي من المناسبات والأحداث الهامة كفيضان نهر النيل، وأعياد الحصاد: - جميعها تصل بالمواسم الزراعية: عيد السكر، أعياد أوزيريس، أعياد آمون الأقصر - كذكرى لمراحل



المعبد الصغير الأبيض إلى سيزوستريس الأول ـ كرنك.

حياة الآلهة؛ عيد الوادي في طيبة ـ المكرس لعبادة الآلهة الموتى والمرحومين من مدينة الموتى؛ أخيراً، أعياد خاصة لكل معبد، لاحياء ذكرى انتصار الإله على أعدائه، والتأكيد على التتويج السنوي لحيوان مقدس ليرافق في اليوم الأول من السنة، الاتحاد بين الإله وتمثاله على الأرض.

بعض هذه الأعياد كان علنياً يقام من معبد إلى معبد وسط الفرح الشعبي. البعض الآخر كان سرياً تجري مراسيمه داخل حرم المعبد. غير أن الكهان يستمرون في جميع هذه الأعياد خدماً للألوهية داخل المعبد وخارجه: وأثناء مغادرة الإله المعبد، تكون مشاركة الجموع شكلية: كانت تحي الإله، وتلوّح بأيديها فرحاً لمروره من أمامها، ولكنها لم تشارك أبداً في المراسم والاحتفالات التي يتلقاها. في حالات خاصة جداً أثناء الاستشارات التنبؤية فإن الكهان يقومون بدور الوساطة بين الإله والجموع التي تعبده.

الحقيقة أنه في بعض الظروف، تكون الديانة الشعبية والقانون الشخصي للعلمانيين: بحاجة إلى خدمات الاكليروس: العبادة الالهية، إيمان الجماهير يجدان أرضية مشتركة؛ عندما يُراد استشارة الإله وطلب نصائحه. إذا كان الأمر

يتعلق بالفصل بين خصمين، أو تحديد خط سلوك للمستقبل، فإن البصيرة الالهية هي الحكم الفصل: العالمة بكل شيء، والحاضرة في كل مكان، الإله يعرف أفضل من البشر، يميز الصحيح من الخطأ، يتنبأ بالمستقبل: بنزاهته التامة المطلقة، لايتأثر بالظروف الاجتماعية للمتظلمين، ولا يميز في حكمه بين غني وفقير يقول نشيد للامبراطورية الجديدة «أيه آمون رع» **أنت منصف البؤساء، الذي لايأخذ الهدايا قسراً».**

وهكذا فإن عادة اللجوء إلى الوحي بدأت في عهد الامبراطورية الجديدة، وتطورت وانتشرت بشكل واسع؛ فالناطق باسم الألوهية مترجم لارادته، ومنذ ذلك الوقت لعب الكهان دوراً هاماً واجتماعياً.

ونقول في نهاية المطاف، أنه لم يكن من السهل دائماً استشارة الإله ولكن هناك تقنيات متعددة لاستشارته.

الوحي الإلهي من القارب

واحدة من مسيرة الوحي الإلهي شائعة كثيراً، تنص على طلب رأي أو مشورة الألوهية أثناء تجوالها. . . . لقد تكلمنا سابقاً عن أيام الأعياد، والأيام التي يترك فيها الإله قدس أقداسه لزيارة زملائه الآلهة. ينتقل القارب الذي يحمل التمثال الالهي من استراحة إلى أخرى على أكتاف الحمالين وسط هياج الجماهير وتهليل المؤمنين، وهذه المناسبة هامة لاستشارة الإله: يحاول السائلون الذين يشقون موكب الجموع بصعوبة بالغة الاقتراب من القارب، بينما يسود الصمت تدريجياً حولهم، وقشعريرة الخوف تنتاب أجسامهم النحيلة حيث يتوجهون بطلبهم المباشر للألوهية: **«إلهي الكريم، هل صحيح أني سرقت هذا الشيء أو ذاك من فلان؟»**. ويلي ذلك الطلب لحظة من القلق، تمتد حسب الوقت الذي يستغرقه

الإلـه ليتأمـل السؤ ال في داخله . وفجأة يشعـر حملة مقـدمـة القارب أن الثقل يهدُّ أجسـامهم ، ويصبـح الحمـل لايطـاق ، وعليهم الانحنـاء تحت ثقـل أصبح وزنه كالـرصـاص : فإذا انحنى الإلـه بهذه الطـريقة فهذا يعني أنه موافق ؛ وفي ظروف أخرى يرى الحمالون أنفسهم مندفعين إلى الأمام أو مضطرين للعودة إلى الخلف فجأة فذلـك بأمـر من الإلـه في قاربـه ؛ وإذا أراد التقـدم للأمـام فالجـواب يكون إيجابياً : في الحالة المعاكسة معناه أن الإله يقول لا . عندما يوافق الإله بالوحي على طلب أحـد المتظلمـين يمكن لخصمـه «**استئنـاف السؤال**» ليحاول التفوق ، لكن حتى ولـو أن الإلـه كرّس فشله بتأكيـد جديـد ، فإن المتظلـم لايعتبر نفسه مغلوباً . يمكنـه أن يجدد طرح أسئلتـه على إلـه آخـر في فترات نزهـاتـه ، أو في اسـتراحـة أخـرى ؛ الكهـان التـابعون لتنظيم كهنوتي آخر لايمثلون دائماً الميل نفسه . يمكن للمتظلم أن يأمل رؤ ية بعض الآلهة الأكثر تسامحاً .

يبـدو أن هذه المـمارسـة الغـريبـة تتعلق بميـل عميق جداً لدى الشعب المصـري . وفي الحقيقـة لم نفـاجأ منذ عدة سنوات ، عندما قرأنا في صحيفة قاهرية لصـدى حادث يبعث على القلق في قريـة من أعـالي مصـر والمنتميـة إلى نفس الأسـاس الاجتـماعي الـذي تنتمي إليـه الطقـوس المصـرية السابق ذكرها . تحت عنـوان جذّاب «التـابـوت الـذي يتحـرك في الهـواء» كان مؤ لف المقـال قد روى فبه الوقائع التالية : قرية تلبس الحداد على عجوز عالي الوقار، مجرِّب وحكيم . انتقل إلى عالم آخـر؛ بعـد البكـاء والعـويل المعروفين ، كُفِّن جسده بحصير منسوج من القصب ، ووضع داخل نعش ونُقل إلى مثواه الأخير ؛ كان الحمالون يتناوبون حمل النعش بين دقيقـة وأخـرى ، كل يريـد حمل هذا الـرجل التقي إلى المقبرة . كانت الجنازة تسير بشكل طبيعي ، والتراتيم الجنائزية تتقدم الموكب ، وياللدهشة : فقد بدأ النعش بالاهتـزاز وسقـط الحـمالـون فجأة تحت حمل شيـخ ثقيـل كما لو كانت حمولتهم من الحجـارة . . . هذه الحـادثـة جديـرة بالتفكـير ، فقد نوقشت بضجة

كبـيرة وبحـماس في جميـع أنحـاء مصـر العليـا ، وانتهت النتيجـة على أن الشيخ المحترم كان يفضل أخذ طريق آخر إلى مثواه الأخير . وبدَّل الموكب طريقه ، وقام بنصف دورة ، ودخـل زقـاقـاً موازياً وهو يحمل الجسد الميت الذي تقلص وزنه إلى درجة لاتُصدَّق . رعب آخر سيطر على الموكب! فقد سقط النعش من جديد على مقـربـة من نقطـة سقـوطـه الأولى . وسرى القلق في النفوس المشاركة في الجنازة ، وأدخـل في الجمـوع رعبـاً كبـيراً . عرف بعدها أن الشيخ رفض للمرة التالية المرور أمام بيت أحد أقاربه . . . . وبعد استقصاء التحقيقات التي جرت بسرعة وبشكل واسـع ، وبـاستخـدام العنف ، اتضح بعدها أن وفاة الرجل العجوز لم تكن عادية حيث أن أحد أقاربه قد تسبب في وفاته . أقرَّ العدل ، بتلك السرعة التي لامثيل لها لفـلاحي الصعيـد بتصفية مشاكلهم العائلية ، إن تأثير المتوفي مرتين على الحمالين أرشـد العـدالة إلى منزل القاتل بحركة عرفها الشيخ المسجَّى في النعش . . . هذه العبـارات كانت متأصلة قبل ثلاثـة آلاف سنة ، وبالطريقة نفسها كان الإله يدلي لأحد من قاربه برغباته ، معطياً حاملية الحركات المعبرة .

أصـوات التـنـبـؤ

رغم أن القارب لم يكن يخرج للرحلات يومياً ، فما زالت هناك أسئلة معقدة وأن جوابـاً واحـداً بسيطـاً لم يكن ليحسم الأمر سلباً أم إيجاباً . في هذه الحاللات ، يُوجـه السؤ ال مبـاشـرة إلى الإلـه الـذي يجيب بنفسـه وبصـوته . وسابقاً ، لم يجد المصـريـون صعـوبة في الوصول إلى الآلهة كما كان الاعتقاد السائد ، على عكس آلهـة اليـونـان الـذين يصعب جداً مقابلتهم ، وكان باستطاعة كل فرد من الشعب مقابلتهم بشكل طبيعي ، من العجوز الجالس على الطريق إلى المرأة الجميلة التي تثير الحب في الاله زوس أو أفروديت الباحث عن الحب العنيف .

وقـد يحدث أحيـانـاً وبـالصـدفـة على ضفاف مستنقع، بعض التجليات الغريبة المرعبة: حكاية الراعي الذي رأى إلهه بأبسط الثياب يخرج أمام عينيه من شجرات القصب! إن تلك الرؤية تبعث على الدهشة حقاً! ولكن الآلهة اعتادت البقاء في معابدها هادئة لاستشارتها دون أن تكلف نفسها عبء الرحلات.

أمـا في العهـود السفلى، وعلى السطـح العلوي لمعبـد البحـري مقـابـل الأقصـر، فقـد بُنيت هنـاك منصـة صغـيرة لهذا النوع من الاستشارات. فالهيكل مؤلف من غرفتـين متتـاليتـين، يفصـل بينهما باب الحجاج، وقد خصصت الغرفة الخـارجيـة للمـرضى الذين يفدون لطلب الشفاء من الإله «آمينوفيس». بينما كان الإلـه يسكن الغـرفـة الثانية. وفي الليل، تنتظر طوابير صغيرة من الجرحى الذين عيـل صبرهم، ليَمنَّ الإلـه عليهم ويعطيهم وصفـة لعلاجهم، ثم ينطلق صوت هادىء وقور ومخيف من المعبد، ويحضر الاله على الفور ويدنو من كل فرد لعلاجه من آلامـه. أمـا القنطـرة التي تعلو البـاب فكانت مثقوبة على شكل نافذة، حيث يقـوم بعض الكهـان المختبئـين في المعبـد، ترجمـة الارادة الالهية للشعب... أما المـرضى، قلما يشكـون من التـدخـل غير الطبيعي، لكن هنـاك بعض العقـول المتحجرة القاسية التي لاتؤمن إلا إذا شاهدت بعينها ولمست بيدها وتحققت جيداً: وتشـرح لنـا بعض الكتـابات الجدارية اليونانية، كيف تمكن أحد الزائرين واسمه «آتينودور» من الصلاة في القاعة المشتركة للهيكل وسمع صوتاً صادراً من المعبد؛ الـرجـل الشجـاع هذا، كان جنـدياً في بلده، اعتقد أن بعض القوانين الموضوعية الصارمة هي التي ساهمت في شهرة المؤسسات، فبدلاً من أن يتصرف كأنه مقتنع، فقـد كانت لديـه الجـرأة مع قلة الاحـترام، بأن يذهب ويفتـح البـاب ليرى من المتكلم. كان الكهان، قد أدخلوا في حساباتهم هذا النوع من الحوادث، فوضعوا خططاً وأساليب ذكية، للتراجع والاختفاء. ومهما يكن فإن هذا الضابط لم ير شيئاً غريباً، بل ازداد تأثره لأنه قد شفي تماماً ووجد أن هذا الحدث جدير بالملاحظة.

وماهو غريب حقاً، الاعتقاد بأن الأحلام التنبؤية مترددة وغير ثابتة؛ فبعض اليونانيين يقبلون عن طيبة خاطر مبادىء الديانة المصرية، لدرجة أنهم يتقاسمون الايمان معهم، وأن عدداً كبيراً منهم لم يكن مضطراً إلى إضافة إيمان جديد إلا الذي تحقق منه.

نعثر أحياناً في أوراق البابيروس، على التعبير الذي يزيل أوهامهم، والشكوك التي كانت تساورهم: «أُقسم بـ«سارابيس» **إذا لم يكن لدي بعض الاحترام لك، سوف لن تراني مطلقاً، كل ماتقوله خطأ، وكذلك ماتقوله آلهتكم، لأنها وضعتنا في مأزق كبير، وفي كل مرة تعلن فيها تكهناتك أننا سوف ننجو، فإننا على العكس نغوص ونغرق أكثر**» (بابيروس سيرابيوم رقم ٧٠).

وأمام تفكير من هذا الطراز، الكثير الانتشار، فإن الكهان في دير البحري شجعوا أتينودور السريع التصديق على كتابة رواية مغامرته البائسة على الجدران.

معابد أخرى كمعبد **كرانيس** في الفيوم، كانت تحتوي على نفس تجهيزات دير البحري. ومن ناحية ثانية، كانت بعض التماثيل الالهية مجوفة، تحتوي على مجرى للصوت، يمكن لرجل متخفي وراء الاله، أن يتكلم باسمه.

الطريقة كانت شائعة الانتشار عموماً؛ وتحدثنا نصوص كثيرة، أن الناس كانوا يذهبون لقضاء ليلة في البناء المقدس، ليتلقوا من الإله بعض الأحلام التنبؤية التي توحي لهم مايجب فعله. تلك حالة المرضى؛ لكنها أيضاً حالة النساء اللواتي يرغبن الحصول على طفل.

فالقصة الشعبية «ساتني»[١٥] تخبرنا مثلاً أن السيدة **مهيتنوسخت** كانت حزينة جداً لأنها لم تحصل على أحفاد؛ كانت يائسة من هذا المصير، فأمضت ليلة في معبد **ايموتس** الإله الشافي، هناك رأت حلماً بأن الإله يتكلم معها قائلاً لها: **ألست مهيتنوسخت زوجة ساتني، الذي ينام في المعبد ليتلقى علاجاً لعقمك من العناية الالهية؟ اذهبي في الغد إلى نبع ساتني زوجك، وستجدين بقايا جذر من**

نبـات البقلة الـذي ينبت هنـاك، إنـزعي أوراق هذا النبـات الـذي تصـادفينـه، واصنعي منه عقاراً لزوجك، ثم ترقدين إلى جانبه فتجدين نفسك حبلى منه في تلك الليلة». ولـدى استيقـاظهـا، طبقت السيـدة حرفياً نصائح الإله، فتحققت رغباتها بسرعة.

وكـما نرى، فإن الكهـان، يعملون طويـلاً حتى في الليـل، وهـذا الاعتقـاد القـديم السـائـد بأن الاقـامـة في المعبـد مع الـوحي الالهي أوبدونـه، كانت سبباً في الحمـل، أصبـح اليـوم مفهوماً غير قابل للتصديق، ولكنه مازال قائماً: فخلال أشهر الشتاء الأربعة التي قضيناها في معبد اسنا في أعالي مصر حيث كنا مشغولين بقـراءة الكتـابات، لاحظت ولمرات عدة بعض نساء القرية يدخلن الغرفة الكبيرة ذات الأعمدة، ويقمن عن قناعة وإيمان بسبع دورات حول الأعمدة، على منأى الأعــين الغــافلة. يطلبن من وراء ذلـك ضمان الانجـاب العـاجـل، ألم تؤكـد النصـوص الهـير وغليفيـة للمعبد الكبير بأن الإله «**يعطي أولاداً (ذكوراً) لكل من يستنجد به، وأناثاً لكل من يتوسل إليه**».

لكن الكهان الناطقين باسم الإله، كانوا مدعوين لمعالجة مسائل أعقد من ذلك بكثير. قصة **ساتني** نفسها تظهر لنا مثلاً، ساحراً مشعوذاً نفَّذ سحره وشعوذته أمام رفيق له أكثر مهارة. أبحر وأستقر في **هيرموبوليس** مدينة الإله تحوت؛ وطلب من الإله في معبده أن يساعده، فأوحى له الإله في الحلم المكان الذي سينسخ منه الصيـغ والـوصفات القوية جداً التي يستخدمها الإله نفسه (**نص صفحة ١٣٢**). ولدى استيقاظه، عمل الساحر حسب وصايا الإله وأوامره، فجرت الأمور بصورة حسنة كما أراد الساحرّ المشعوذ.

وأخيراً، كان الإله يجد بعض الوسائل الأكثر مباشرة في التعبير: كأن يدخل في جسم انسان أوطفل، بطريق الرعب والخوف، وبوساطته يملي ارادته؛ وتصف لنا رواية «**أونامون**» حالة مشابهة من الجنون المقدَّس؛ علمنا بعد ذلك أن الأطفال

الفقراء والمساكين اللاجئين في المعابد، كانوا يُستخدمون كوسطاء لنقل كلام الاله.

تقنيات أخرى غيبية[١٦]

لم تتوقف المصادر الكهنوتية هنا، عن الترجمة للشعب عن الارادة الالهية. فقد استُخدمت طرق إلهية كثيرة، تنص جميعها على تقديم التماسات مكتوبة للإله. يشرح لنا نص لوحي من أيام الكاهن الأكبر «بينيدجم» الاستشارة بهذه العبارات؛ كان لدى آمون كاهن مشبوه بأمره بسبب تصرفه من تلقاء نفسه في غلال الإله، وخلال طواف موكب القارب، حُررت عبارتان بحضور آمون، الأولى:

«**أوه آمون ـ رع ملك الآلهة سيدي الصالح! يقال أن تحوتمس هذا الرقيب على الأملاك يملك شيئاً ما، لم نتوصل لمعرفته**» والثانية: «**آه آمون ـ رع، ملك الآلهة، سيدي الصالح! يقال أن تحوتمس ذلك الرقيب على الأملاك لايملك شيئاً، من الذي لم تتوصل العثور عليه؟**». يتوسل الكاهن الأكبر من الإله أن يحاكمه. وافق الإله على المحاكمة، ووضعت العبارتان أمام المتهم، فاختار احدهما، وطلب من الإله: التأكد من الاختيار ثانية، فجدَّد الإله اختياره، خرج المتهم بريئاً بهذا الاختيار، وحصل بعد ذلك على ترفيع عال.....

يضاف لهذه التقنية ماعثرت عليه التنقيبات الأثرية الفرنسية لبقايا كتابات **في دير المدينة**[١٧]. وهي عبارة عن قطع صغيرة من آنية فخارية أوكلسية، كان المتظلم يكتب عليها مشكلته التي تتضمن مواضيع متنوعة وهذه بعضاً منها:

- **هل هذا الثور صالح بما فيه الكفاية حتى أقبله؟**
- هل سيعين لنا الوزير زعيماً نقبله؟

ـ هل سأتركه ليصبح زعيماً؟
ـ هل قلت كذباً؟
ـ هل سأتلقى توبيخاً؟
ـ هل سرقه الجنود؟
ـ سيدي إلهي، هل توجد واحدة من ماعزي لدى تحوتمس؟

الترقية، التجارة، النشاط المهني، سرقة القرية، جميعها مواضيع كانت تطرح أمام الإله، وعليه الإجابة عنها كلها. كيف كان يفعل؟ ترشدنا إلى ذلك، قطعة فخارية أثرية هامة، تمَّ العثور عليها عام ١٩٥١: فهي لاتحمل سوى كلمة واحدة: لا: وبدون شك كان الإله يختار أحد الجوابين، نعم ولا، فينقل كاهنه جواب الحكم الإلهي لطالب السؤال.

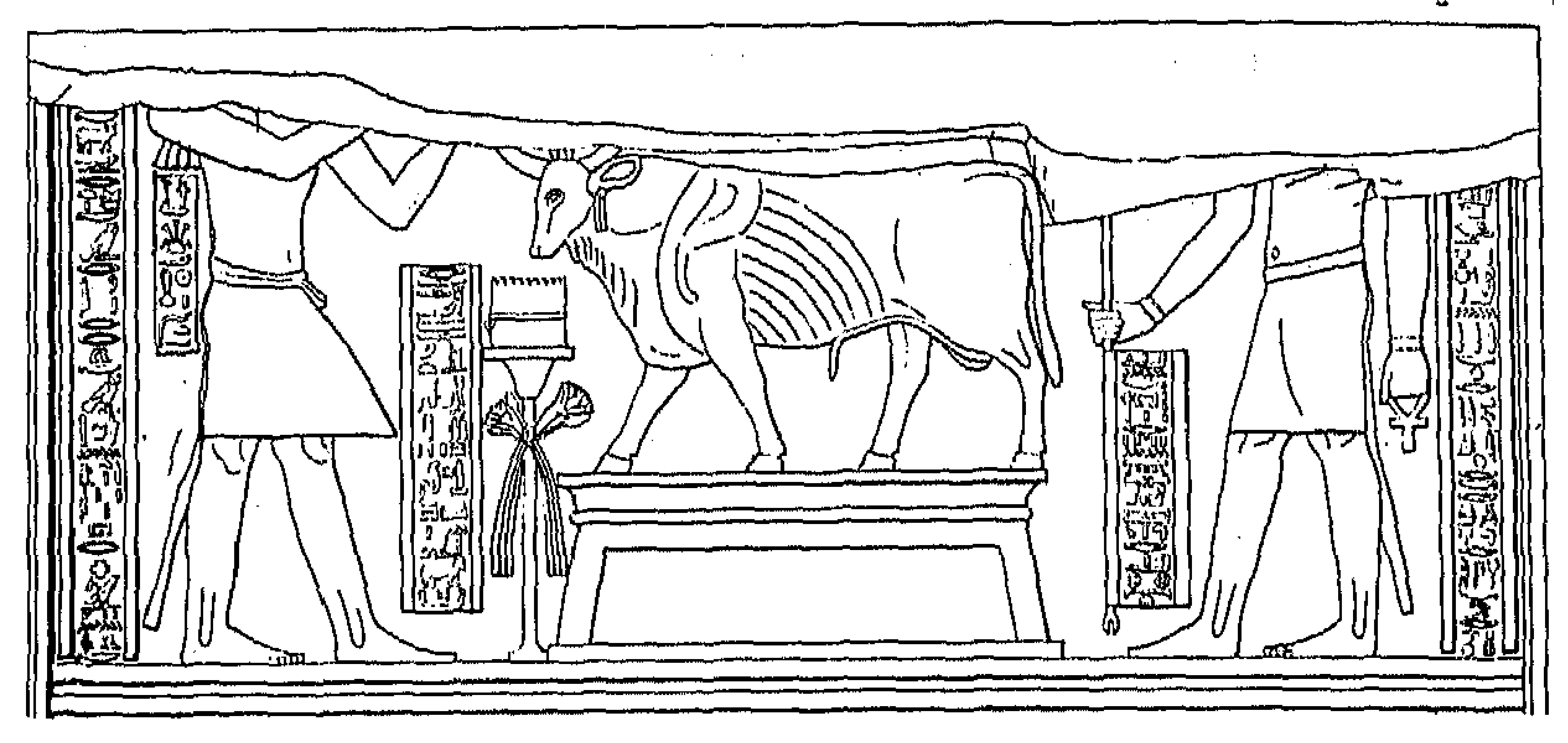
هذا التقليد الشائع في الامبراطورية الجديدة، كان صالحاً ومتبعاً بعد ألف عام من ذلك؛ وقد عثر في معبد «سكنوبايس» الصغير في الفيوم على بعض الأسئلة التي طرحت على الإله من سكان المنطقة: تبقى المشاكل إذن مشابهة لمشاكل أجدادهم البعيدين: المشتريات، المبيعات، المشاكل الضريبية المشورات، المصالح الزوجية: «هل يُسمح لي بالزواج من السيدة فلانة، أو أنها لرجل آخر؟ أوصي لي بذلك واستجب لهذه الصلاة المكتوبة....».

وحي الحيوانات المقدسة:

وحي للتمثال، لقارب الالوهيات، أصوات نبوءاتية، أحلام، الطرق المتبعة لاستنطاق الاله كانت متنوعة للغاية. حتى حيوانه المقدس، كان مدعواً لنقل الجواب الإلهي. تلك حال الثور آبيس، بشكل عام، كان لايخرج من حظيرته إلا مرة واحدة في اليوم ليرتع قليلاً، مما كان يُسمح ـ من بين المنافع الأخرى ـ بعرضه على السياح مقابل أجر عادل».

يروي لنا سترابون: **في بعض ساعات النهار، ينطلق الثور آبيس للباحة، ليظهر أمام الغرباء ورغم امكانية مشاهدته من النافذة وهو في حظيرته، فإن الغرباء كانوا يلحّون في طلب رؤيته خارجها حراً طليقاً، ومن ثم دخوله إلى البيت»**.

وبلاشك فإن تنقلات الثور كانت ترمز وتترجم إلى معنى نبوي، كذلك توضح النصوص بأن آبيس. كان يكشف المستقبل لكل من يستشيره. وعُثر في ميدامود[١٨] وهو معبد من العهد اليوناني الروماني كشفت عنه التنقيبات الفرنسية على خطاب قصير يجيب فيه الثور المقدس لتلك المنطقة عن الأسئلة التي تطرح عليه.



وسيط الوحي الثور ميدامود

العدالة على باب المعابد:[١٩]

إذا كانت الأسئلة التي يجب على الكهان الإجابة عليها باسم إلههم، متنوعة، فإن الوحي الإلهي كان عليه حسم الإجابة في الأمور القضائية وغالباً ماكانت تجري المحاكمات في الامبراطورية الجديدة في المعابد أوعلى مقربة منها.

أضف إلى ذلـك، بأن الكهـان كانـوا يجلسـون إلى جانب الموظفين من أصحاب المقـام في محاكم كل مدينـة (مـرسـوم حورمحب) . ويبدو أن التقليد مختلف تماماً في العصـور الـدنيـا، فقـد كان اللجـوء إل العـدالـة الالهيـة يتم في المعبـد الكبير، وأطـلق عليـه اسـم «بــاب الـعــدالــة» وتـصـفــه النصــوص «**إنــه المكــان الـذي يصغي إلى همسـات جميع المظلومين، حيث يحاكم الضعفاء والأقوياء على قدم المساواة وإقامة العدل ورفع الظلم**».

أحد الأكشاك المستندة إلى واجهة المعبد الكبير في **ميدامود** يبدو لنا أنه كان واحداً من المحاكم الكهنوتية. التساؤ ل السائد هو: أية أسباب نوعية تحفظ رأي الإله؟ من هم الكهنة الذين كانوا مخولين بحقوق لفظ الحكم؟ وماهي نظرة الادارة لهذه المحاكم غير الرسمية؟ لانستطيع الاجابة على مجمل هذه التساؤ لات لنقص الــوثــائق؛ لكن استمــرار المحـاكم الـدينيـة حتى السنوات الأخـيرة في مصـر الاسلامية، إلى جانب قضاء الدولة الرسمي، يثبت لنا بأن تعايش عدالتين ذات وظائف متخصصة شيء يمكن تحقيقه وتصوره.

مثلهم، مثـل أجـدادهم حامـلي القـوارب، الـذين كانت أكتافهم شديدة الحسـاسيـة لتأثـير الإلــه من كهـان القـرون الأخـيرة للمجـوسيـة الـذين أخذوا دورهم بجدية كبيرة كمترجمين للارادة الإلهية.

تـنـقـلات الـكـهــان

تدفـع الظـروف ومتطلبـات نشاط الكهان خروجهم من معابدهم، والسفر عبر البـلاد لأمـور تتعلق بوظيفتهم الكهنـوتيـة: قد تكـون المهـمات الرسمية على نوعـين، دينيـة، وسيـاسيـة. فالأولى تجد مكـانهـا في الأعيـاد الكبـيرة للمعـابـد المجاورة، ومهما بدت هذه المهمة مستقلة في نظرنا، فذلك لأن هذه المعابد المكرس

كل منها لمجموعة إلهية خاصة، قد أقامت فيما بينها علاقات تقارب لتسهيل ادارة الممتلكات، وجمع العبادات تحت ادارة مشتركة، أو علاقات متباعدة بسبب التشابه في بعض العبادات. يمكن ادارة معابد مدينتي **خميس وآبيدوس** إذا دعت الضرورة بواسطة كاهن واحد ودون أي ضرر يذكر، وذلك لقرب المدينتين من بعضهما؛ كانت تلك حالة شائعة أيضاً في المدينتين **ممفيس وليتوبوليس** اللتين كان لهما في العصور السفلى اكليروس أعلى مشترك، كذلك كانت: **فيلاي، وأباتون، وايليفانتين** مدارة بصورة مشتركة. ويجب أن يقضي الكهان المقترحون أو المكلفون لخدمات أو صلوات مزدوجة في عدة معابد، جزءاً كبيراً من حياتهم في السفر والتنقل بين أرجاء المدن.

وفي ظروف أخرى، فإن التشابه بين عبادتين حتى ولو كانتا متباعدتين جغرافياً، يؤدي إلى اتصالات بين رجال الاكليروس من الجانبين؛ كانت تلك حالة مدن **ادفو ودنديرا**، حيث كان معبد الاله الصقر حوروس وزوجته الإلهة المحبوبة حاتحور: في كل عام وأثناء عيد «اللقاء الصالح»، كانت الملكة تترك معبدها في **دنديرا**، وبعد أبحار مسافة ١٥٠ كم، تلتحق ولمدة أسبوعين بزوجها الإلهي في مدينة **ادفو**. وأثناء الرحلة من مدينة لأخرى يتّسع الموكب (المؤلف من مجموعة مراكب) بانضمام مواكب جديدة. وكان كل معبد هام، يجد أنه من المناسب جداً، ارسال أحد ممثليه لحضور الزواج المقدس؛ ويراقب القوارب القليلة المنطلقة من دنديرا، أعداداً كبيرة من القوارب الرسمية تسير خلفها، حاملة وفوداً من الاكليروس الصديق، والجموع التي تحدوها رغبة عارمة في حضور الطقس السنوي[٢٠] والاستفادة من الأفراح الشعبية والأعمال التجارية المصاحبة لها.

اجتماعات أخرى للكهان، يغلب عليها الطابع السياسي والاداري. وبالرغم من تنوعها واستقلاليتها، فإن جميع العبادات المصرية كانت مجمعة ادارياً

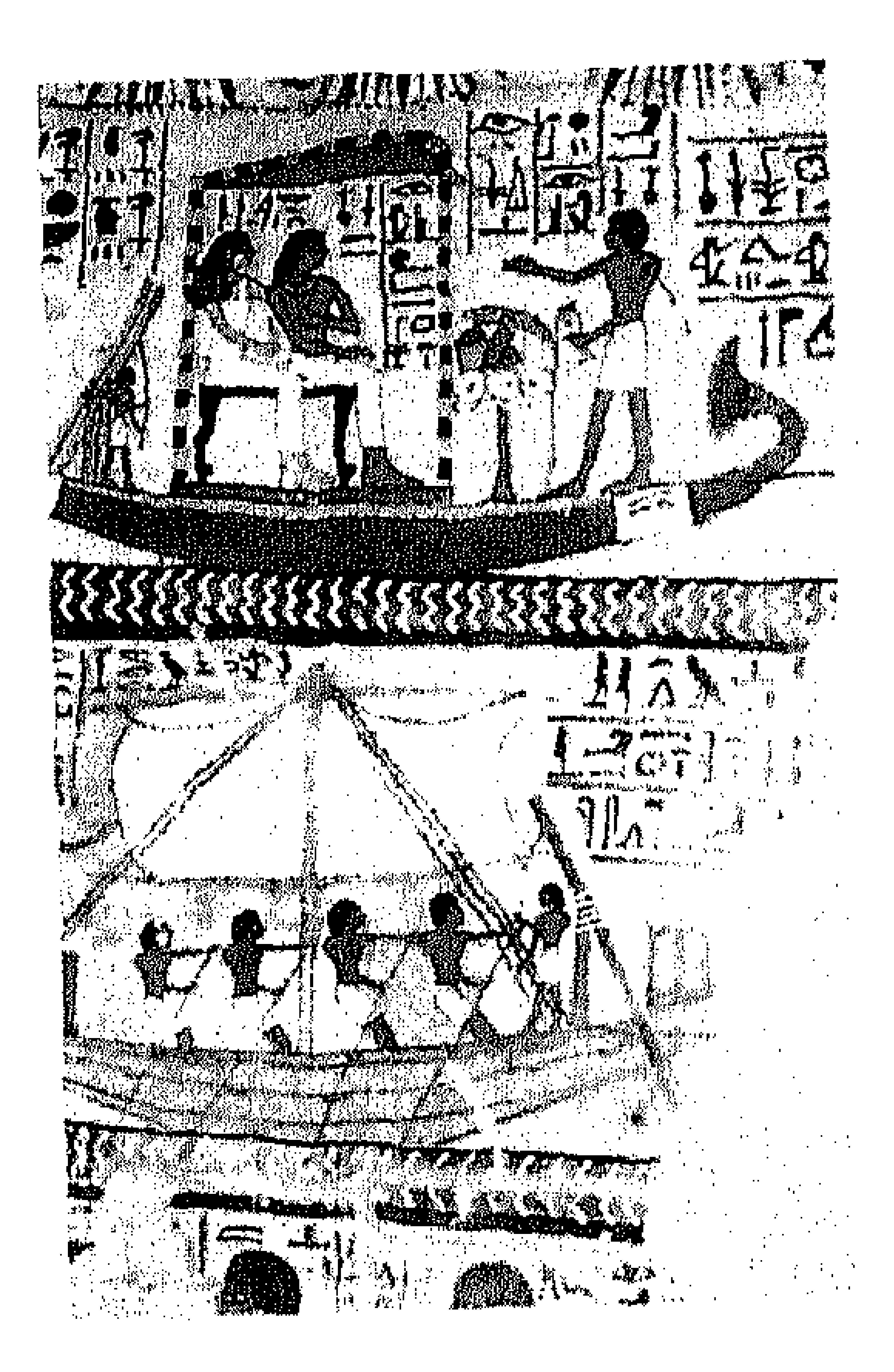
تحت إدارة أحد كبار أنبياء البلد، وهذا مايدعو إلى الاعتقاد، بوجود نفر من رجال الـدين المصـري، كانت لهم منـافـع عليـا تعلو على المسـائل الفردية لعامة المعابد الاقليمية الصغيرة. وكان الملك شديد التمسك بهذا الاكليروس وتأمين إخلاصه له والتفـاني في خدمتـه. في ظروف طارئـة يستـدعي المـرسـوم كاهنـاً من كل معبد لتشكيل مايشبه «لجنة مقدسة» ترافق الملك في الاحتفالات والأسفار. حدث ذلك في السنـة الـرابعة لأبسماتيـك الثـاني، غداة قيامه برحلة إلى بلاد النوبة جنوب مصـر، وكـان الغـرض منهـا تثبيت حكم الملك في محيطـه الآسيوي: **أُرسلت إلى المعابد الكبرى في مصر العليا ومصر السفلى عدة رسائل تضمنت:**

فرعون يسافر إلى بلاد حور في سورية، ليحضر الكهان مع جمع الآلهة من مصر لتصاحب الفرعون إلى بلاد حور. أُرسلت رسالة إلى تودجي، تقول:

ليأت كاهن مع جمع، آمـون للذهـاب إلى بلد خور مع الفـرعون»، تجمع الكهـان واتفقـوا على أن يقـولـوا لـ«بيتيـزيس»: أخـترنـاك لتذهب مع فرعون، لايوجد أي شخص في المدينة يمكنه أن يفعل ذلك غيرك. أنت في الحقيقة كاتب بيت الحيـاة، ولايـوجـد أحـد يمكن أن يطرح عليك مالاتستطيع إعطاء الاجابة المنـاسبـة عليـه. إضـافـة لذلـك، أنت نبي آمـون، وهؤلاء أنبياء كبار آلهة مصر سيصحبون فرعون.

وبمنـاسبـة العيـد الملكي الخمسـين، كانت جميع معابد المدن ترسل ممثليها وتمثالاً لالهها للمشاركة في الاحتفالات والأفراح؛ وقد أوضح نصب هيراكوبوليس (نهـايـة الامبراطورية الوسطى)[٢١] وبعثة الوزير (تا) في العام **٢٩** لرمسيس الثالث هذه العادة قليلاً[٢٢]. إضافة لذلك فقد حفظ لنا يوبيل معبد بوباستيس صورة عن هذه الوفود الكهنوتية القادمة إلى المدينة من الدلتا، لحضور مهرجان الملك أوزوركون.

وبـدون شك، كانت جموع عامـة الشعب، «تشـرب النبيـذ بهذه المنـاسبة



الحج إلى آبيدوس ضريح سينيفر.
السلالة الثامنة عشرة

بمقدار ماتشرب به طول أيام السنة» (هيرودوت)[٢٣]. ولم تكن الوفود الدينية تحرم نفسها من التمتع ببعض الحرية. توضح لنا النصوص أن ذلك التصرف كان منطقياً، فعندما يصادف أحد الكهان، كاهناً بعيداً عن بلده الأصلي، فإن اللقاء لايمكن أن يمر دون كرم ضيافة، فتقدم الخمرة بسخاء، لأنها تثير الضحك، وتجعل الآخرين يخرجون عن وقارهم بالغناء والرقص.. ولكن هذه اللقاءات الكهنوتية سمحت أيضاً بمناقشة المسائل المشتركة التي تخص مختلف معابد البلاد، كالضرائب، والعائدات، والاصلاحات الواجب تنفيذها، والتوسعات المرغوبة. هكذا يمكن للكهان تقديم شكاويهم للملك، وتلقي التعليمات الجماعية حول تأسيس وإقامة عبادات جديدة ـ العبادات والطقوس الملكية مثلاً ـ أو تشييدات جديدة.

ووسط تلك الاجتماعات التي حصلت في المناسبات، نشأت فكرة السينودوس (المجمع الديني) الذي نراه يتأصل ويتطور في عهد البطالمة الأوائل.

منذ ذلك الوقت وفي كل عام، تجتمع جمعية كهنوتية في العاصمة على شكل هيئة (مجمع ديني)، لتلقي التعليمات الملكية، ومناقشة المشاكل المتعلقة بالمعابد ورجال الدين مع الشخصيات العليا في الدولة. يمكن لهذه الاجتماعات أن تمتد طويلاً - أربعة أشهر أحياناً: فالاكليروس إذن، هو دولة ضمن دولة، حيث باستطاعته التفاوض مع الملك، بأي طريقة وأسلوب؟ من السهل تصور ذلك: إلا أن البطالمة كانوا ينظرون للعبادة المصرية نظرة ازدراء واحتقار، وإلى الكهان نظرة مربي الماشية، حتى كبار رجال الدين كانوا بنظرهم أشخاصاً مستقرين يتحدثون باسم الفراعنة، ويكتبون أسماءهم على جدران المعابد، كممثلين ساميين للعبادة الالهية. لكن البطالمة كانوا بحاجة للاكليروس الذي يمارس تأثيراً كبيراً على الجموع الشعبية، ويساهم في ترسيخ أسطورة المكدوني - فرعون، ويكسب الكهان مقابل ذلك، بعض الميزات المالية والحقوقية، والحصانة، مظهرين فروض الطاعة، تجاه أسيادهم الجدد. وفي جو من الاحتقار المتبادل، وجدت الهيئة الدينية والدولة بعض الوقت منفعة في الدعم المتبادل.

لكن المجمعات الدينية الكهنوتية لم تدم سوى بعض الوقت، وهو الوقت الذي بدأ فيه البطالمة التعلق برضى الاكليروس المصري، عن طريق بعض التنازلات. وقد تبدل كل شيء مع قدوم الرومان، حيث لم يبق للكهان من عمل سوى كونهم موظفين ومراقبين في ادارة صارمة.

كهّان المآتم

قبل أن ننتهي من الفقرة المكرسة للنشاطات الكهنوتية الخارجية، يجب علينا قول بعض الكلمات عن فئة أخيرة من الكهان التي لم نتكلم عنها حتى الآن: إنهم كهان الاحتفالات والطقوس الجنائزية (أو كهنة المآتم) ونظراً لعدم وجود تعبير

دقيق بالفرنسية لوظيفة هؤلاء الكهان، فنحن مُرغمون على تصنيفهم تحت تسمية «خدمة» الإله أو «كهان المآتم» وبالفعل فإن هاتين الفئتين من الخدّام، لاتجمعهم سوى ميزة واحدة مشتركة هي الميزة الدينية لوظائفهم. وإذا حدث حقاً أن كهان الأموات ينتمون إلى أكليروس آلهة الحياة الأخرى، آنوبيس، واوزيريس، فهم في معظم الأوقات مستقلون عن المعابد ويشكلون نوعاً من الزمالة المهنية التي لاتمت لأي صلة بعبادة الآلهة، والنشاطات الخارجية التي يقوم بها الكهان. وفي الوقت نفسه، يستطيع الكهان القراء بسبب معرفتهم للكتابات المقدسة، أن يكونوا من عداد مستخدمي المعابد، والظهور في مواكب الأموات. وكان لكهان المآتم دور هام في دفن الموتى، فهم الذين يقرأون مقاطع الطقوس، ويشرفون على المومياء، أو جثمان الميت بإتباع الطقوس اللائقة والباعثة لتحويل الجثة البشرية المسكينة التي جففها وملّحها المحنطون وتحولت إلى جسم جديد فتي مجهز بكامل ملكاته الأرضية القديمة، وجدير بأن يكون ممثلاً جيداً في فردوس العالم الآخر.

ويحمل الخدم الممثلين في المراسيم الجنائزية أسماء قديمة جداً، قد تكون أسماء أجدادهم البعيدين الذين كانوا يشاركون في المراسيم الجنائزية الملكية في عصر ماقبل التاريخ: **ايميخنت مستشار الإله، صاحب**. . . . الفكرة العامة توحي لنا بأن الدفعة الأولى من الاحتفالات ماتزال مكتوبة ومرسومة على جدران الأضرحة، تصور أموات الأغنياء المصريين، والطقوس المخصصة لجنازة الملوك الصغار في دلتا: ومن المحتمل أن يكون الخدام قد احتفظوا بالألقاب التي كان يحملها في هذه المناسبات، الكهان، والمقربون الذين كانوا يرافقون الزعيم الميت إلى مثواه الأخير. قد تبدو تفاصيل هذه الاحتفالات معقدة، إذا ماحاولنا ذكرها بالتفصيل هنا، لنقل بكل بساطة أنها تتضمن تلاوات عديدة، رش بالماء عدة مرات، التبخير بالبخور، على باب القبر، فإن الطقس الأساسي يجري جميعه

عن طريق فتحة الفم، يقوم أحد الخدام المسلح بفأس وينهال على التمثال لابعاد شفاه الميت، بقصد أن يعيد له القدرة على الكلام ومختلف قواه الفيزيائية (الجسدية).

بعد الدفن، يجب تأمين حياة هؤلاء الموتى الذين أعيد إليهم حس الشهية: كانت النحوت البارزة، والرسوم التي تزين جدران الضريح السابق، تبغي هذا الهدف: الحث عن طريق التمثيل فقط، كل مايمكن أن يحتاجه الميت في حياته الأخرى (ماوراء هذا العالم). لكن هذه التصاوير كانت نوعاً من الاستغاثات الشديدة: عادة الطقس الجنائزي، يجب أن تلبي المتطلبات الجسدية للميت.

فئة أخرى من الخدم، **خدم كا**، كان لها دور هام في الصيانة اليومية والدورية لمائدة التقدمات، ومذبح الشراب للأموات، أثناء أعياد الأموات. وكان الأموات يحصلون غالباً على وجبة صغيرة من الطعام، تسمح لكاهن المآتم أن يعيش ويقوم بواجب العبادة. هذه الوجبة الطعامية التي تقدم بانتظام للموتى، كانت في البداية نسخة أصلية عما يستهلك الأحياء، ومع مرور الزمن أصبحت أكثر رمزية، وتقلصت في العهود الدنيا، واقتصرت على الارواء بالماء الذي كان «السقاة» يسكبونه مرددين الصيغة الطقسية المتبعة في غابر العصور، من أجل راحة الأموات وسعادة ظلهم السريع العطب التائه على دروب العالم الآخر.

هوامش

١ ـ م. آليوت صفحة ١٥٢

٢ ـ م. اليوت صفحة ١٥٢

٣ ـ م. اليوت صفحة ١٥٣

٤ ـ م. آليوت صفحة ١٥٣

٥ ـ م. اليوت صفحة ٨٠

٦ ـ م. اليوت صفحة ١٨٥

٧ ـ م. اليوت صفحة ٩٠ ـ ٩١

٨ ـ م. اليوت بابيروس صفحة ٩٤ ـ ٩٧

٩ ـ م. اليوت بابيروس صفحة ١٠٧ ـ ١٢٠

١٠ ـ م. آليوت صفحة ١٢١ ـ ١٣٢

١١ ـ حول موكب أبو العجاج انظر صورة في كتاب وبلكور «حياة وموت فرعون» باريس ١٩٦٣ صفحة ١٩٠

١٢ ـ مثال جيد عن هذه الاستراحات معروض في الهواء الطلق في متحف الكرنك، عثر على البناء مفككاً في الهواء يعود تاريخه إلى عهد سيزوستريس الأول السلالة الثامنة عشرة ومعروف تحت اسم المعبد الصغير الأبيض. وبالقرب منه يوجد استراحة أخرى تعود إلى عهد أمينوفيس الأول السلالة الثامنة عشرة.

١٣ ـ م. اليوت صفحة ١٩٧ ـ ٣٠٤

١٤ - حول أعياد الإله مين هـ. غوتييه أعياد الإله مين - القاهرة ١٩٣٦ ولنفس المؤلف أنظر أيضاً خدم الإله مين القاهرة ١٩٣١ .

١٥ - قصة سينوزيريس ابن ساتني التي أوردتها ورقة بابيروس شعبية موجودة في المتحف البريطاني ترجمها : ج. ماسبير : إنها قصص شعبية من مصر القديمة الجزء الرابع باريس ١٩١١.

١٦ - حول الوحي انظر ج. رودير: عبادات ووحي في مصر العليا زوريخ ١٩٦٠

١٧ - حول الأسئلة والمسائل المطروحة في الوحي والتي عثر عليها في دير المدينة. بيف آو ١٩٣٦

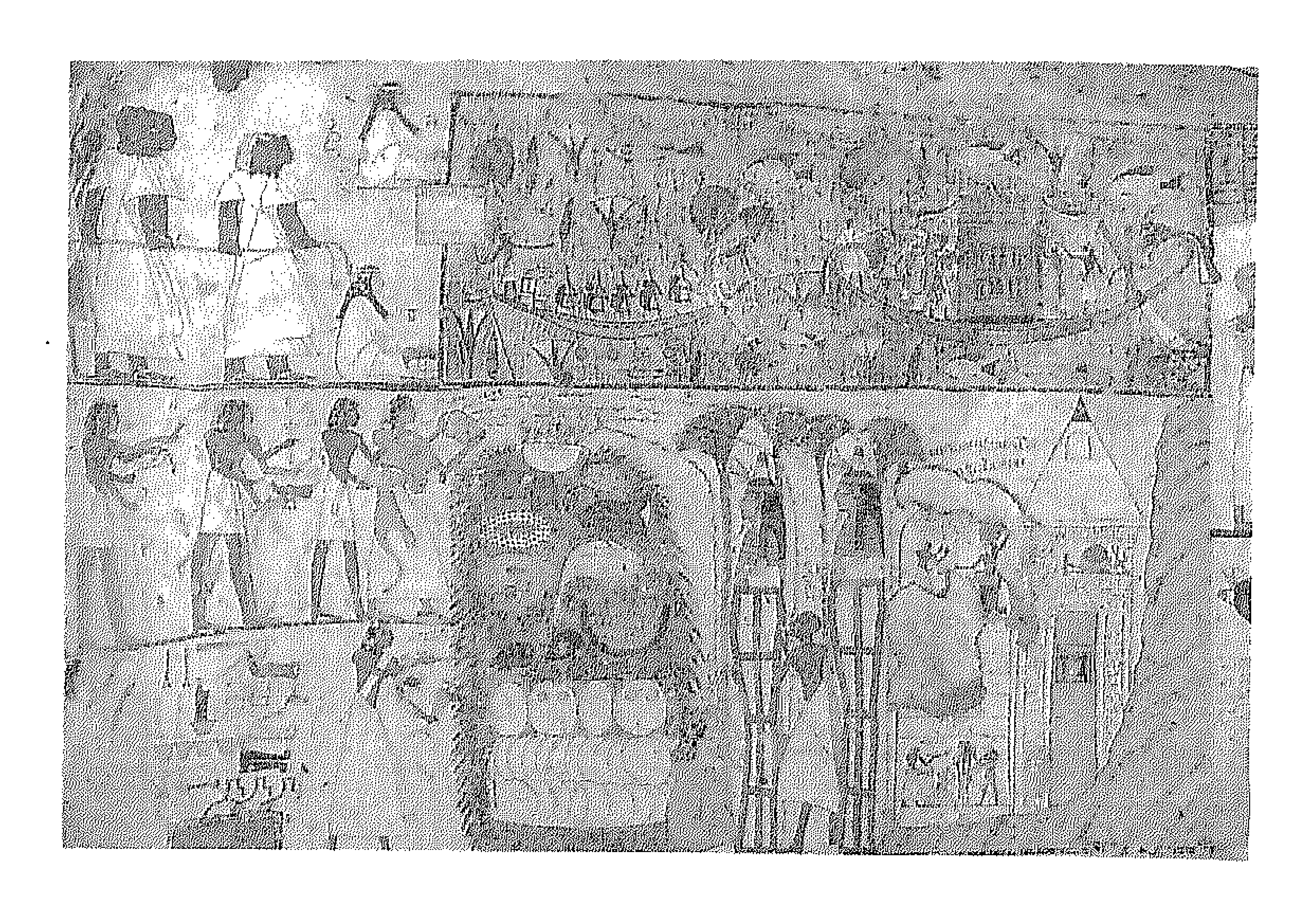
١٨ - وسط الوحي لثور في ميدامود - تقرير حول التقنيات الأثرية في ميدامود ١٩٢٥

١٩ - سونيرون : العدالة على باب المعابد : م. أليوت صفحة ٤٤١ - ٥٦٠

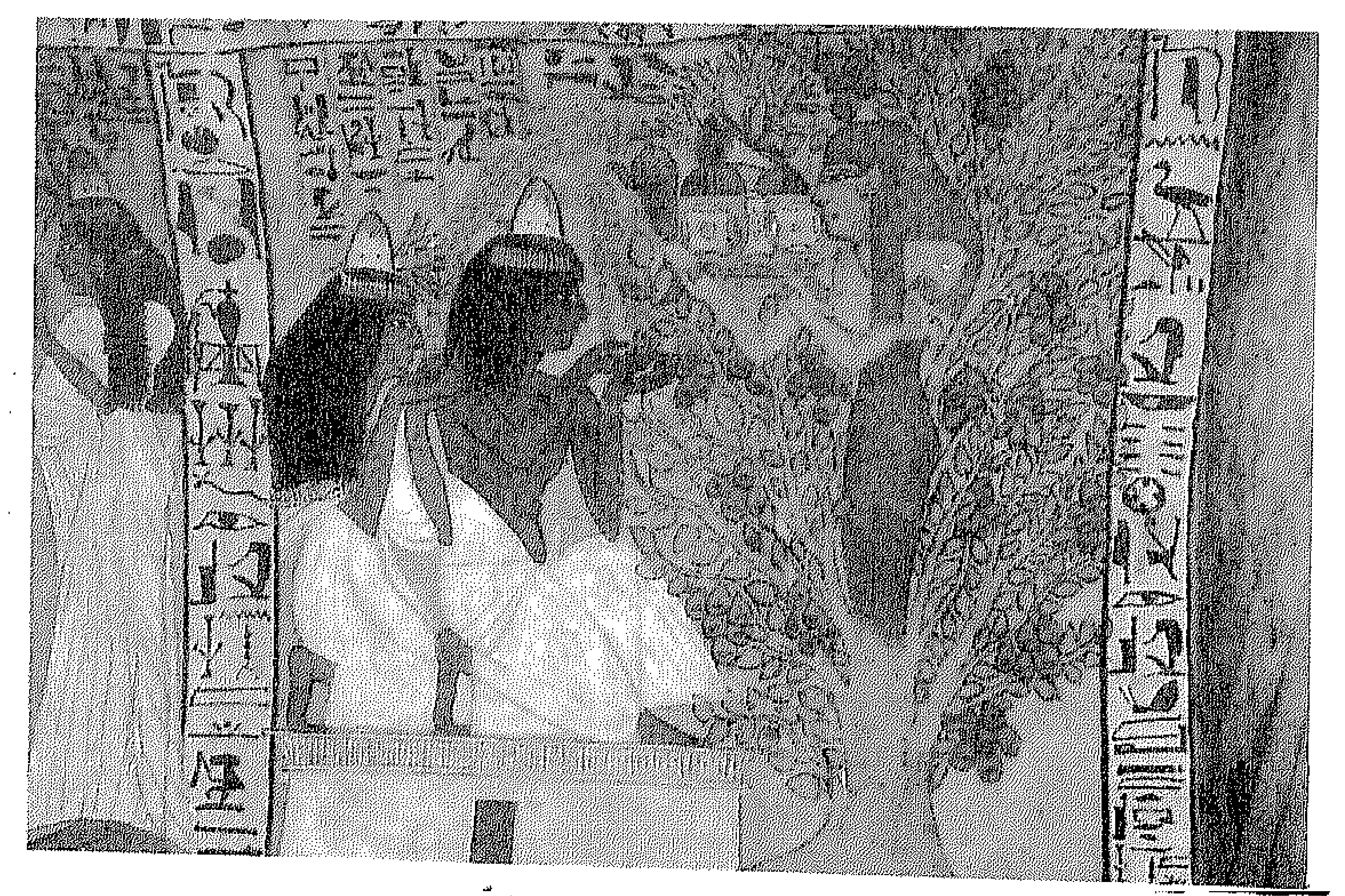
٢٠ - حول عيد لقاء الصدفة : انظر م. آليوت ص ٤٤١ - ٥٦٠

٢١ - نصب الكاهن حورمخوف : انظر: م. ليشتاين : الأدب المصري القديم، بركلين ١٩٧٣ صفحة ١٢٩ - ١٣٠

٢٢ - العيد الذي تعرض آلهة مصر العليا، ومصر السفلى . . . كتابة رمسيس الثالث على معبد ادفو أنظر: كلود لالويت امبراطورية رمسيس باريس ١٩٨٥ صفحة ٣٢٨



احتفالات جنائزية أمام الضريح . ضريح امينيميت زوجه رامسيد



الاهة نوت : عطر القيقب لترطيب الميت ، ضريح سينّيدجم (السلالة التاسعة عشرة)



كان مونتو (السلالة الخامسة والعشرين). متحف القاهرة.

٥

العلم المقدَّس

يتضح لنا من دراسة النصوص اليونانية القديمة، بأنه لايمكن الدفاع عن الفكرة، التي يعتقد فيها المؤلفون القدماء، أن مصر كانت بمثابة آلمهد لكل علم وحكمة. فقد عبر أشهر العلماء والفلاسفة الهلينيون البحر للبحث مع الكهان والتدرب على علوم جديدة. قد لا يذهب هؤلاء إلى مصر، لكن مؤرخي سيرهم الذاتية، يتسارعون بإضافة هذه الرحلة إلى احداث حياتهم التي أصبحت تقليداً هاماً أكثر منه ضرورة.

من كان هؤلاء المسافرون المشهورون؟ إنهم الأجداد العظام أولاً، «أورفيه» **الذين شاركوا في أعياد أسرار ديونيسوس** (دبودور ١ ص ٢٣) حتى هوميروس نفسه **زار مصر أيضاً** (ديودور ٢ صفحة ٦٩). وفي عصر أقل خرافة «سولون» الفيلسوف اليوناني اجتاز البحر؛ تكلم سولون عن رحلة أفلاطون فقال: **إن الناس استقبلوه في سايس: (مصر السفلى) استقبالاً حاراً.**

لدى سؤال الكهان الضالعين في العلوم القديمة، تبينَّ أنه لايوجد أحد بين اليونانيين ولابين من سبقهم يعرف جواباً واحداً عن هذه الأسئلة. لكنه وفي أحد الأيام وبقصد إحراج الكهان المصريين في شرح وجهة نظرهم حول القديم، بدأ

أحـدهـم يروي كل مايعـرفـه عن آقـدم القـدماء: ومن أجل الفراعنة، النيوبي، وطـوفـان دوكـاليـون، وبـيرها، وكل مايتعلق بهؤلاء. لقد سرد أيضاً نسب جميع أحفـادهم، وحـاول عن طريق حسـاب السنين، تحديد التاريخ الصحيح لجميع الأحـداث المـرافقـة لهم، لكن أحـد الكهـان المعمرين صاح به قائلاً: سولون، سولون، أنتم اليونانيون أشبه بالأطفال؛ حيث لايوجد شيوخ عندكم!

ـ سأل سولون: ماذا تعني بقولك؟

ـ أجـاب الكـاهن المصـري: ـ أنتم فتيـان من النـاحيـة العقليـة، لأنكم لاتملكون تقاليد قديمة، ولامفهوماً واسعاً عن الزمن».

وتـابـع الكاهن المصري الشيخ كلامه: الكوارث تخرب الأرض باستمرار، تمزج الأجناس أو تبدلها، تدمر حضارة لتحل مكانها حضارة أخرى؛ هذه الأخيرة بعيـدة كل البعـد عن القـدرة على جمع الـتراث العلمي والثقـافي للحضـارة التي سبقتها، وتجد نفسها في نقطة الانطلاق، ويجب عليها أن تقطع من جديد كامل الطـريق الضـائـع. لكن مصـر بميـزاتها الجغرافية والمناخية تشذ عن هذه القاعدة العامة تقريباً:

إلا أنه في مصر، وفي جميع الأحوال، لاتهطل الأمطار من الارتفاعات على الأرياف، بل تبدو على العكس، تنبع من الأرض، أنظر لماذا كانت هكذا، يقال عنـدنـا: إن أقـدم التقاليد والعادات قد حفظت بهذه الطريقة... كذلك إن أي حدث في عابر الزمان كبير وجدير بالاهتمام في أي ميدان عندكم، أو عندنا، أو في أي مكان معروف لدينا، إلا وكان قد دوّن كتابياً وحُفظ وفي معابدنا (أفلاطون ص ٢٢ ـ ٢٣).

في مصـر اذن، يستطيـع المؤرخ الهليني «اليـونـاني القـديم» أن يجد أفضـل مصـادر المعلومـات. لكن هذا لم يكن العلم الـوحيـد الـذي يستطيـع الكهـان المصريون تعليمه لضيوفهم الأجانب. هكذا فإن تالت من ميليت قام برحلة إلى

الكهّان والمنجمين الفلكيين في مصر، وحسب إحدى رواياته الشخصية، يبدو أنه تعلم الهندسة عن المصريين (ديوجين، لايرس، تالس ٤٣، ٢٤). كانت الهندسة والفلك الفرعين اللذين يرجع إليهما المؤلفون اليونانيون عندما يتعلق الأمر بكهان مصر. يضيفون أحياناً اللاهوت عندما يقبل الكهان الافصاح عن الأسرار لضيوفهم، وهذا لم يحصل كثيراً! لم يكن الكهان يستقبلون دائماً هؤلاء السياح الذين يطرحون الأسئلة بحماس، والكثير من المرات كان يجب استقبالهم بامتعاض، لأنهم فضوليون دائماً، منطقيون صارمون في تعليلاتهم، غير مقتنعين بما فيه الكفاية، يميلون إضافة للايمان إلى الاستنتاجات الذهنية دون الاعتماد على الروايات الرائعة لتقليد يعود لآلاف السنين... خبيرون بواسطة بعض التجارب السابقة بالميول الثقافية الذهنية لهؤلاء الفضوليين الهللينيين، هكذا حاول الكهان التخلص من فيثاغورث عندما جاء بناء على نصيحة تالس، ليجد لديهم الوحي حول العلم والايمان.

يروي بورفير (٢٣٣ - ٣٠٤) رحلة فيثاغورث بالسطور التالية:

بعد أن استقبله أماسيس ملك مصر (٥٦٨ - ٦٢٦) حصل منه على رسائل توصية لكهان هليوبوليس، الذين أرسلوه بدورهم إلى كهان ممفيس لأنهم الأقدم - هذا لم يكن في الحقيقة سوى حباً واعتذاراً. ومن ممفيس أرسل إلى كهان ديوسبوليس (طِيبة) للأسباب نفسها. وكان هؤلاء يخافون الملك فلم يتجرأوا اختلاق الذرائع الكاذبة لابعاد القادمين الجُدد عن معبدهم، اعتقدوا بإمكانية التخلص منه باجباره على تحمل المعاملات السيئة، وتنفيذ أوامر قاسية وظالمة غريبة كل الغرابة عن التربية الهللينية، وتحويله أخيراً عن مهمته. لكن بما أنه كان يُنفذ كل مايُطلب منه بهمَّة ونشاط، انتهى الكهان إلى الاعجاب به وعاملوه معاملة حسنة، ووعدوه بتقديمه لآلهتهم، التي لم تمنح سابقاً لأي أجنبي (بورفير، حياة فيثاغورث، ٧).

وقـد أدى هذا العنـاد والتصميم ، والتعطش للثقافة ، إلى فتح الأبواب التي كانت موصـدة أمـامـه سابقـاً ، والحصـول على رضى وقبول الكهان . كاتب آخر «جـامبليـك» يظهـر لنا من جهته فيثاغورث : **وقد ألف جميع معابد مصر ، بحماس كبير ، مقدّراً من الكهان والآلهة الذين كان يعيش معهم ، متعلماً كل شيء وبانتباه شديد . . . باحثاً عن المعرفة مع جميع المشهورين بذكائهم ومعرفتهم ، لم يتخلف عن أي احتفـال ديني ؛ زار كل بلد بدت له إن في زيـارتهـا الفائدة والاطلاع على شيء جديـد . وهكـذا تعـرّف على جميـع الكهـان ، وتعلم من كل واحـد منهم مايعـرفـه ، وفي هذه الظـروف ، قضى اثنـين وعشـرين سنـة في معـابـد مصـر .** (جامبليك ، حياة فيثاغورث ، ٤ ، ١٨ ـ ١٩) .

ماهي العلوم التي فتّش عن عنـاصـرهـا بصـورة دقيقـة؟ الهنـدسـة بشكل خاص ، **لأنه كان لدى المصريين الكثير من المسائل الهندسية . . فجميع النظريات حول الخطـوط والمستقيـمات كانت تأتي من مصـر** (جامبليك) ، **والفلك درسه في المعـابـد خلال مدة إقـامتـه في مصر أيضاً** . باختصار، لقد اكتسب فيثاغورث من كهان طيبة **وممفيس العلم الذي يجعله عالماً** (جامبليك) ، في تحصيل علمه الخاص بطرق رمزية **وسرية التي اعتاد الكهان عليها** . (بلورتارك ، ايزيس ، راوزيريس) .

ومن ناحيـة أخـرى ، فقـد حضـر إلى مصر أيضاً ، علماء وفلاسفة يونانيون آخرون للتعلم في المعابد المصرية ؛ ولدينا بعض التفاصيل لما تعلموه خلال تلك الفترات التـدريبيـة . فأنـوبيـد مثـلاً ، تعلم من الكهان والفلكيين أسراراً عديدة منها : **أن للشمس مساراً منحنياً** (مساراً مائلاً عن الاستواء السماوي) **موجهاً باتجاه معاكس لاتجـاه باقي الكـواكب»** (ديـودور، ١ ، ص ٩٨) وديمـوقـريطس من جهة ، عاشر الكهان واسلافهم مدة خمس سنوات ، وتعلم منهم أموراً علمية هامة تتعلق بالفلك (ديودور، ١ ، ٩٨) ، والهندسة (ديوجين لايرس ، ديموقريطس ، ٣) .

أمـا افـلاطـون ، فيبـدو أنـه فتّش في مصـر عن توثيق مستنـدات الهنـدسـة

والـلاهـوت (الحيـاة الخفية) **والعلم الكهنوتي عامة** (أولمبيودور، حياة افلاطون).
كما اصطدم بنفس التحفظات والعقبات التي صادفت فيثاغورث.

يقول العالم الجغرافي سترابون في وصفه لمصر، خلال سفره إلى هليوبوليس بهذه العبارات:

لقـد رأينـا الأبنيـة المكـرَّسة سابقاً لمسكن الكهان، لكن ليست كلها: لقد شاهـدنـا مسكن أفـلاطـون، وايدوكس، لأن ايدوكس رافق افلاطون إلى هنا: وعنـد وصـولهـما إلى هليـوبـوليس استقـرا بها وعاشا معاً ثلاث عشرة سنة داخل المجتمع الكهنوتي. هذا ماأكدَّه كثير من المؤلفين، هؤلاء الكهان المنكبُّون بعمق على دراسـة ومعـرفـة الظـواهـر السـماويـة، كانـوا في الوقت نفسه أناساً كتومين منطـوين، ومـع مرور الـزمن فقـط، وبعـد تحضـيرات دقيقة وبمهارة، استطاع افلاطون وايدوكس الحصول على بعض المبادىء الأولية من الكهان، لكن هؤلاء الكهان البرابرة، ظلوا يحفظون في داخلهم الجزء الأكبر والأهم من العلوم. وإذا كان العلم مديناً بمعرفة أجزاء اليوم المتممة للسنة ٣٦٥ يوماً لتكون سنة كبيسة، فذلك يعود للكهان المصريين، لقد جهل اليونانيون المدة الحقيقية للسنة وحقائق أخرى من الطبيعة نفسها، حتى نُشرت ترجمات باليونانية لمذكرات بعض الكهان المصريين الذين استفادوا بشكل هام وواسع من كتابات ومشاهدات الكلدانيين.

غير أن ايـدوكس، كان قد أوصى به آجيـلاس ملك مصـر في نكتـانيبـو، الـذي قدَّمـه للكهـان أثنـاء فترة إقامته؛ فلم يكتف بالطلب من كهنة هليوبوليس بتعليمـه، لأن بلوتـارك يخبرنـا أن ايـدوكس تابـع دروس شينـوفيس من ممفيس (ايـزيس، أوزيـريس، ١٠)، وقـد يكـون كما كان سابقـاً، أن كهان هليوبوليس أرسلوه بطـريقـة غير لائقـة وتـآمـرية لتلقي العناية والتعليم من اكليروس ممفيس الأكثـر قدمـاً وعلماً؟.... ومهـما نتـج عن ذلـك فقـد استفـاد ايـدوكس من هذه الإقـامـة، لأن التقليـد ينسب إليـه الـترجمة اليونانية للكتب المدونة باللغة المصرية

(ديوجين لايرس)، وأنه أدخل إلى بلده المفاهيم الصحيحة لمسار خمسة كواكب كانت حتى ذلك الوقت غير معروفة، والتي دُرِّست حقيقتها في مصر (سينيك، كيست) بصورة نظرية.

ماقيمة هذه الشهادات؟ لنحاول عدم الاسراع في التصديق: جزء كبير من المقولات المذكورة اعلاه من تأليف كاتبي قصص الحياة الشخصية المتأخرين، والذين وجدوا بأن الرحلة إلى مصر كانت تشكل حدثاً لايستغنى عنه في حياة فلاسفتهم، فهو يشبه في الوقت الحاضر رسالة الدكتوراه، التي يحصل عليها طلاب أفريقيا وآسيا من جامعات أوروبا، وكانت مصر آنذاك تعتبر وطن العلم والعلوم، وأصبح من الواجب على جميع الحكماء والشيوخ، الحضور إليها لقضاء فترات تدريبية، لقد أكَّد التقليد ذلك على الأقل، رغم أن البعض منهم لم تطأ أقدامه أرض مصر مطلقاً.

إننا من أجل تحديد الميراث الروحي والتنويه بما تدين فيه اليونان لمصر، قمنا بالتذكير ببعض رحلات فلاسفة اليونان إليها. وبقصد تثبيت المجالات التي تطور فيها العلم المصري: يستفسر المسافرون عما ينفعهم فقط، وسنرى فيما بعد أنه إلى جانب الهندسة والفلك، واللاهوت والتاريخ، كان الكهان المصريون يثقفون في مجالات متعددة، والتي لم يذكرها السياح بشيء. وتكشف لنا بعض هذه المقولات، واقعاً أكثر أهمية بقيمته من الحقيقة التاريخية لرحلات الدراسة: الشهرة العامة للحكمة والعلوم التي تعلقت في أذهان اليونانيين القدماء حول الطبقة الكهنوتية للمعابد المصرية الكبرى، تعتبر نقطة هامة ومُسلَّم بها، فقد كان الفلاسفة اليونانيون، ومهما بلغت شهرتهم، يكسبون لقباً آخر يضاف للتقدير الشعبي، عندما يمكن إضافة منبع لعلومهم «المرحلة المصرية».

نقطة ثانية يجب معرفتها وهي أنه بفضل اليونانيين تمَّ الكشف عن بعض أوجه العلوم الكهنوتية خاصة السرية منها، والاكراه الذي يشعر به الكهان لدى

افشائهم لعناصرها، الرمز والسر اللذان يغلفان الافضاءات التي يُجرُّون إليها.
أخيراً المكانة التي يشغلها في تكوين وتأسيس هذا العلم، إيمان غير محدد في وحي النصوص المكتوبة وفي الطقس والعادات المتعلقة بالماضي.

روح ونـزعـات العـلـم المقـدس

دفـع الغنى بالأفكـار الـرئيسـة، للتـوجـه نحـو المصادر المصرية، في محاولة لتحـديـد المناخ الروحي الذي نشأ فيه العلم الكهنوتي: إن مراجعة بسيطة ودقيقة للمجـالات التي يغطيهـا العلم المقـدس غير كافيـة لاستنباط الميزات النوعية التي أثرت بقوة على طبيعته ونجاحه. فقد وضع وأعدَّ هذا العلم القيِّم تدريجياً، رجال يعيشـون في عالم موجَّـه بكليتـه نحو المسائل الدينية وممارسة العبادة: فهو ذو هدف عمـلي، لكن داخـل إطـار روحي معين؛ إنه تقليدي أيضاً مناهض للتجديدات. فهـو يتطلب في أصله معـرفـة الكتـابـة التي تسمـح له الاطـلاع على النصـوص القـديمـة، المنبـع الـدائم لأي وحي، لكنـه يؤدي إلى عالم كامـل خاص من التفكـير، مبني على القيمـة الإلهيـة لألفـاظ الكـلام، والامكانات التعبيرية غير المحـدودة للكتابة الهير وغليفية. التفتيش عن الكتابات والرموز القديمة، والايمان بالسلطـان الأعلى للأصـوات؛ التخصص التـدريجي بالكتـابـة الهـير وغليفيـة للاستعـمال الـديني، والتفتيش داخلهـا عن نمـط متعـدد التعبـير. هي العنـاصر الدائمة التي تتحكم بالعلم الكهنوتي، وتضفي عليه مظهره الأصلي.

تـصـوُّر النـص المكـتـوب

الحقيقـة أن المصـريـين كانوا مأخوذين في كل عصر بفكرة العثور في الرقائق

القـديمـة على العناصر الحقيقية الضائعة، وهم مدينون بهذا الميل إلى ميزة ورقية تتعلق بحضـارتهم، يضـاف لها شيء جديـد عميق في حيـاتهم إنـه «الـولـع بالكتابة».

ولفهم موقف المصريين، يجدر التنويه بالتناقض الواضح لرؤ يتهم العالم عن رؤ يتنا. نحن نعيش في كون نعلم أنه يتحرك باستمرار؛ لكل مسألة جديدة يجب وجـود حل جديـد. لكن هذا المفهـوم بالنسبـة للمصـريـين وفي زمن تتبـدل فيـه المعطيـات حول العـالم، وتختلف العـوامـل التي تبتعـد عن التحـولات في الطـرق والوسائل لم يكن مطبق كلياً. في البدء، خَلَقت الألوهية عالماً مستقراً ثابتاً، نهائياً، هذا العـالم يعمـل مثـلى محرك مُشحَّم ومغـذى بالـوقـود؛ وإذا وجدت هناك بعض الأخطـاء، وتعب المحـرك، فذاك دليـل على أن أحـد العنـاصـر التي تؤلفـه قد تعطل أو انكسر، فيستبدل هذا العنصر العاطل وينطلق من جديد.



نصب المجاعة جزيرة سبهيل

لكن المحرك يبقى دائماً نفسه، آليته، هيئته، مردوده. . . فإذا كانت هناك بعض المسائل تحير الضمائر والعقول وجاءت بعض الأحداث الهامة وعكرت صفو النظام المعتاد للأشياء، فهي بحق ليست جديدة: لقد استُدركت؛ مع وجود العالم، حلها ودواؤ ها موجودان منذ الأزل، معروضة على نمط استعمال الكون الذي حددته الآلهة عندما خلقت هذا الكون. فالواجب يقضي، العثور في كتابات الماضي على الوصفة التي أُعدَّت لكل حالة. . . فأمام حدث ما، أو ظاهرة فيزيائية، كارثة تصيب البلد بأكمله، نجد العالم لا يحاول معرفة الأسباب المادية المؤدية لها - إذا دعت الضرورة - ليجد الدواء المناسب: بل سيحاول البحث بين أكداس الكتابات القديمة المليئة بالعلوم، ليعرف ما إذا كان الحدث قد حصل في لحظة من الماضي، وما هو الحل المعتمد آنذاك.

وما من موضوع أكثر تمييزاً من الرواية حول المجاعة الكبيرة التي اجتاحت مصر في زمن حكم الملك بطليموس، والتي نقلتها إلينا النصب المنحوتة على صخرة في جزيرة سيهيلة الصغيرة[1].

لم يأت النيل بالماء خلال سبع سنوات، ولم تكن مواسم القمح غزيرة، البذار جف وأصبح نادراً، ولم يبق من القمح للطعام إلا اليسير، الجميع وقعوا في خوف شديد من المجاعة، لقد وصلت الحالة إلى عدم القدرة على السير: الطفل يبكي، والشاب يمشي خائر القوى، كانت قلوب الشيوخ حزينة، كانوا مطروحين على الأرض وأرجلهم مطوية وأيديهم مضمومة إلى صدورهم، حتى حاشية الملك أصبحت في فاقة وبؤس، لقد أغلقت جميع المعابد، وعلاها الغبار، وباختصار الطبيعة كلها كانت في حزن لا يوصف.

ما العمل في هذه الظروف؟ هل يجب مراجعة عمليات التوزيع الداخلي أم استيراد القمح؟ أم تحسين منظومة الري؟ كلا ليس في ذلك من شيء فإذا لم يفض النيل في الوقت المناسب، فذلك يعني أن عطلاً قد حدث في ايليفانتين، وفي



مشهد مجاعة، نقش بارز من أرضية أوناس في سقارة، متحف اللوفر

الظـــروف الالهيــة التي تتحكم في الفيضــان؛ وبــدأ البحث في الأوراق والـرقــائق القديمة عن الحل.

عنـدهـا يقول الملك، قررت العودة إلى الماضي وأسأل كاهناً (. . . .) من المحـوتب من أي مكـان ينبـع نهر النيل؟ ماسم المدينة الموجودة على النهر، ماسم الاله الذي يستريح فيها ليساعدني؟ ثم نهض وقال: «أنا ذاهب إلى مدينة تحوت، سأدخـل قاعـة حفـظ الوثائق، وأتصفح الكتب المقدسة واستنير بها» عندها ذهب ورجع إليَّ في لحظة واطلعني على مجرى النيل (من مناطق الشلّال) وبكل مايحيط به. وأفصـح لي عن كل ماهـو عجيب وغريب وسري؛ فقد ذهب بعض الأجداد إلى هناك، ولكن مامن ملك ذهب منذ بدء الكون. (ترجمة: ب. باركيت).



تحوت إله الكتبة، ضريح ميتا (السلالة الثامنة عشرة)

ويتابع النص القول: يكتشف الملك بأن الاله خنوم يرأس هذه المناطق، فيرضيه بتقدمات، ويهبه قطعة أرض وكل شيء يعود إلى مجراه. . .

وهكذا إن استشارة كتاب السحر القديم، من المواضيع التي كانت شائعة في الأدب المصري، فهي ملجأ العلماء الموجودين في المأزق. . . . وأحياناً يقتصر الأمر على وثيقة ضائعة، يجدها كاتب محظوظ صدفة؛ ويبدو له أن محتواها هام جداً، فيقوم بنسخها لاستخدامها فيما بعد.

وهكذا نملك في جامع الصيغ الدينية والسحرية المعروفة باسم كتاب الأموات قسماً بعنوان واضح: صيغة مخصصة لمنع قلب الميت أن يؤخذ منه في العالم الآخر. هذه الوثيقة التي نسختها البابيروس بمئات النسخ وُجدت في ظروف تحددها الفقرة التالية:

عُثر على هذه الطريقة في هيموبوليس على لوح من بازلت الجنوب، مكتوبة باللازورد الحقيقي، تحت أقدام فخامة الملك ميكرينوس وضعها ابن الملك وجديفور، ووجدها بينما كان ينتقل وهو يقوم بأعمال الجرد في المعابد، وبما أنه كانت لديه صعوبة في ذلك، فقد طلبها كتعويض وأحضرها كتحفة للملك.
(ترجمة: دريوتون)[٢].

وثيقة أخرى بالغة الأهمية، النصب السحري ميترنيخ[٣]، كتبت أيضاً في ظروف مشابهة، كاهن يدعى «اس - توم» في عهد الملك **نختنابو الثاني (٣٥٩ - ٣٤١)** آخر حكام مصر؛ وجد أن كتابة هامة سرقت من معبد اوزيريس امنيفيس في هليوبوليس قام أحد المهتمين بالنص، وكان راغباً في كسب رضى الإله، بنسخها وكتابتها على نصب رائع من الحجر الأخضر الداكن.

وفيما يتعلق بالمعبد الكبير للإلهة حاتحور في دنديرا، الذي أعيد بناؤه في أواخر حكم البطالمة، فقد عثر على نص في أحد المدافن، يشرح بأن ترتيبه مستوحى من وثيقة قديمة جداً.

«**البناء المحترم والمقدس في دنديرا كان قد وُجد في وثائق القدماء، مكتوباً على ملف من الجلد في عهد خدام حوروس (الملوك السابقين لـ مينيس)، الموجود في ممفيس داخل صندوق في القصر الملكي في عهد ملوك مصر العليا والسفلى سيد البلدين**» «بيبي»[٤].

إذن فالمعبد اليوناني الروماني يستوحي من ترتيبات قديمة أكثر من ٣٠٠٠ سنة كان قد وجدها بعض خبراء وثائق المحفوظات الباحثين في صندوق قديم للورق. قبل ٢٦٠٠ سنة.

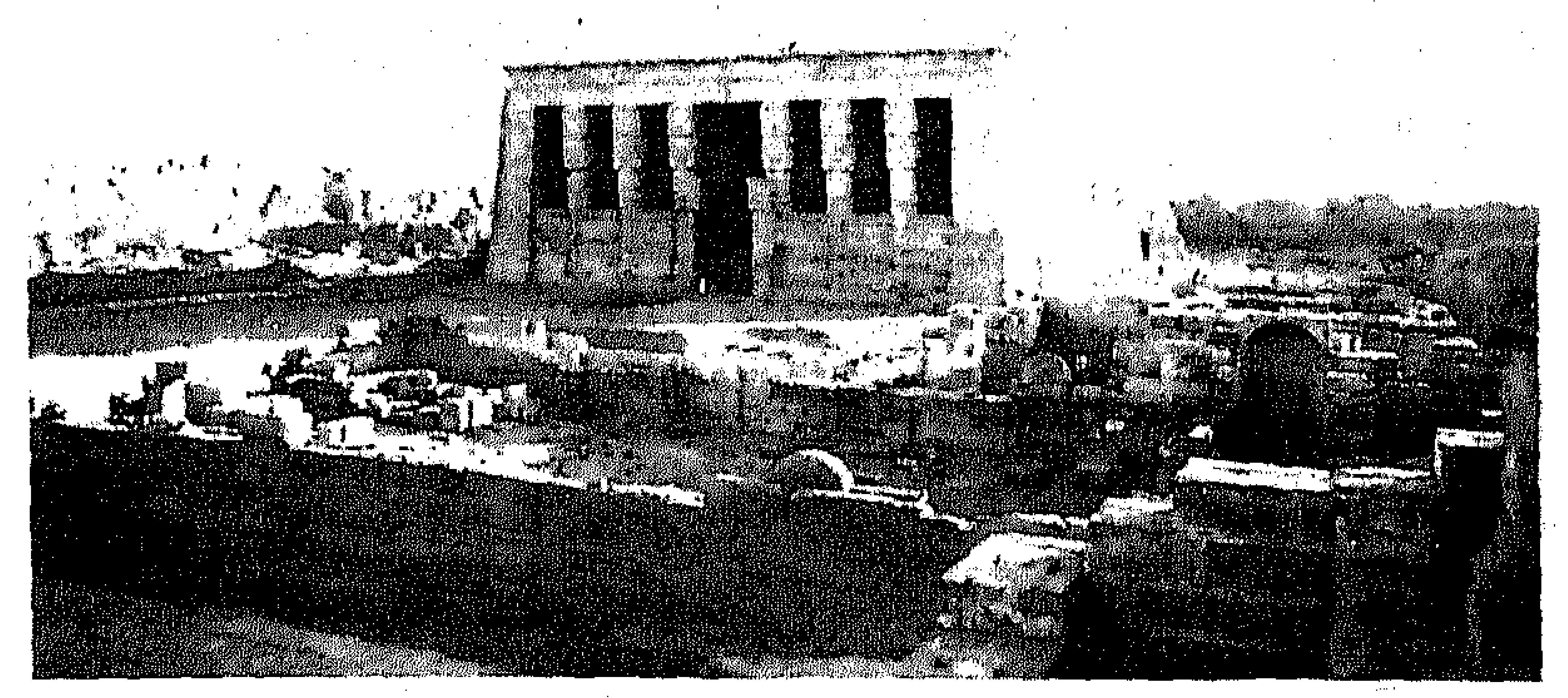
ويمكن للعصور القديمة، أن تضفي أهمية كبيرة على الكتابات؛ لكنه كان من بين النصوص المميزة نصوص لاتقدر بثمن، وتبرر المخاطرة بالحياة قصد العثور عليها. لقد وصلتنا رواية من العصر السفلي عن طريق بابيروس مكتوبة

باليونانية العامية، تخبرنا عن المغامرات اليائسة لابن الملك «نينوفاركبتاح» الذي كان يفتش عن مخطوط مكتوب بيد الإله تحوت(٥):

كان «نينوفاركبتاح» يظن أن لاهمَّ له على الأرض سوى التجول بين مقابر ممفيس (هضبة سقارة)، مردداً الكتابات الموجودة على قبور وأضرحة الفراعنة النصب التي يكتبها الكهنة كتبة بيت الحياة، وكذلك الكتابات التي تغطيها، لأنه كان مولعاً لأبعد حد في تلك الكتابات، ثم جرى تطواف على شرف بتاح ونينوفاركبتاح داخل المعبد للصلاة. ولكنه في الحقيقة كان يتبع الموكب، مفسراً خفية الكتابات التي تغطي المعابد الإلهية الصغيرة. وفجأة بدأ عجوز يضحك عالياً، قال له نينوفاركبتاح: «لماذا تضحك عليَّ»؟ أجاب الكاهن: «أنا لا أضحك عليك: ولكن هل استطيع منع نفسي من الضحك عندما تقرأ على الجدران وفي كل مكان كتابات ليس لها سلطان؟ فإذا كنت تريد فعلاً أن تقرأ كتابة تعال معي، سأذهب بك إلى مكان وجود المخطوط الذي كتبه تحوت بيده شخصياً، عندما نزل على الأرض بعد الآلهة. صيغتان مسجلتان فيه. إذا قرأت الصيغة الأولى فستُعجب بالسماء، الأرض، الليل، الجبال، المياه؛ ستفهم ماتقوله طيور السماء والأفاعي وأياً كان نوعها، سترى الأسماك في أعماق الماء، لأن قوة إلهية تحوم على الماء فوقها. أما إذا قرأت الصيغة الثانية حتى ولو كنت في القبر، سوف تستعيد الشكل الذي كان لك وأنت على الأرض، سوف ترى الشمس تصعد في السماء مع موكب الآلهة، والقمر الذي يبدأ بالظهور.

ولم يكن من السهل العثور على هذا الكتاب السحري: لكن بفضل الطلب المتواضع، اقنع الملك الكاهن العجوز بالكلام، فكشف له عن مكان وجوده.

هذا الكتاب يوجد وسط بحر كوبتوس، داخل صندوق حديدي، وداخله صندوق من البرونز وداخله أيضاً صندوق من خشب شجر القرفة، وداخله



صنـدوق من العـاج والأبنـوس وداخله علبة من الفضة وداخلها علبة من الذهب وبداخلها الكتاب، وإلى جانبه أفعى لاتموت خالدة ملتفة حول الصندوق المذكور.

وقـد توصـل نينـوفـاركبتاح إلى الكتاب النادر، وتبيَّن له أن نصوصه تعطي الفعـل المـرغـوب، لكن تحوت، اعتبر نفسه متضرراً، والغافل يدفع أزاء فضوليته حياته وحياة المقربين منه.

لكن قد يحصـل أن يكـون الإلـه أقـل انفعـالاً . . . روايـة أحدث من التي أوردنـا منهـا بعض المقتطفـات، والتي تضع في المشهد البطل نفسه، تروي مقطعاً من الصراعات السحرية التي كانت تدور بين الملوك المصريين وملوك «مير وي»[٦]. يتحـدى على التـوالي كل ساحـر خصمـه، وتخسـر مصر اللحظة التي يجلب فيها النص اهتـمامنـا مبـاشـرة، الساحر المير وميتي. يعاقب الفرعون في كل ليلة بضربة بالعصي ليظل منهوكاً . . . بضغط من يأسه بقضيته يذهب الساحر المصري إلى هيرمـوبـوليس، ويطلب العـون من الإلـه تحوت. لينـام حوروس ابن يانيشي في المعبد، فيرى في نفس الليلة حلماً، ويوجه إليه الإله الكبير تحوت. . كلامه قائلاً:

«غـداً صبـاحـاً ، ادخل إلى قاعة الكتب في معبد هيروموبوليس ؛ وستجد فيهـا مقصـورة الاله مغلقة ومختومة ، افتحها ، ستجد فيها علبة تحتوي على كتاب كتبته بيديَّ . اسحبه وخذ نسخة عنه ثم أعده إلى مكانه ، لأن الكتاب السحري يحفظني من شرور السيئات ، كما يحفظ الفرعون ، ويخلصه من سحر الميروتيين»..

وبفضـل فاعليـة الكتـاب الالهي ، فقـد ضُـرب ملك الأثيوبيين ، في الليلة التالية وفازت مصر .

واذا كنا قد توقفنا عند هذه التلاوات ، فذلك لأنها تترجم في نوعيتها الرائعة الميـول الفكـرية للمصريين ـ واحدة من الأخطاء قد تكون الأكثر شؤماً في حياتهم الـروحيـة : «الايـمان الـذي لامـبر رله في النصوص القديمة . اللجوء إلى الكتب القـديمـة ، يفـوق اهتـمامهم العـادي بعقـل يحب معرفة الماضي ، أوحتى التعلق التقليـدي في أنـماط قديمـة من التفكير أو العمل . فهي تترجم عقلياً الاقتناع بأن أسـراراً لاتقـدر بثمن ، مخبأة ومنسيـة ضائعـة وسـط الـوثائق المحفوظة التي يعلوها الغبار ـ أسرار ليست مفيدة فقط بسبب النصائح التي تقدمها ، بل كونها قادرة على منـح مكتشفهـا طريقة عمل لاتقوى عليها القوى الكونية . المحفوظات المقدسة ، لاتنقـل فقـط الـذكـرى عن الأحـداث القـديمـة أو احداث غريبة عن الماضي : فيمكنهـا في حالات مميـزة إعطـاء الكـلام نفسـه الذي خدم الآلهة في الماضي أثناء خلق الكون .

السلطـة المطلقـة للأصـوات والاشتقـاق المقـدس

تخيل المصريون خلق العالم بطرق متعددة ؛ فكل مدينة تراه حسب فكرتها ، وتـترك فيـه كما هو منطقي الجـزء الـرئيسي لإلهها المحلي . طريقة عملية ، خلاَّقة ، يبـدو أنهـا قد حازت على اجماع اللاهوتيين ، والمسؤول فيها هو الفعل . ومن أجل

خلق الكائنات والأشياء، فما على الإله الأولي إلا أن يقول للشيء كن فيكون، فتظهر لدى سماع صوته. الكلام في العقل المصري، لم يكن في الحقيقة سوى أداة اجتماعية بسيطة تسهل العلاقات البشرية، وهو التعبير المسموع عن الجوهر الذاتي للأشياء؛ الفعل الالهي الذي أيقظ وأحيا المادة بقي على ماكان عليه منذ خلق العالم لأنه في لفظ المقاطع، يكمن سر وجود الأشياء: فالنطق بإسم لم يكن قد نطق به من قبل، كان في حد ذاته عملاً من أعمال الخلق، إذ أعطى صورة وذاتية لكل مالم يكن قد عرف من قبل. وعندما نقرأ في النصوص الجنائزية، بأن ميتاً يتمنى أن يذكر اسمه عندما يرجو قراءة التقدمة بصوت عالٍ «**ألف خبزة، ألف كأس من الجعة للسيد فلان**»، لم يكن هذا نداء لاقيمة له في ذهن المصريين، ولكن الزائر الورع الذي سيقرأ هذه الصيغة، سوف يثير بلحن صوته الوجود الفعلي لما يذكره، ويستفيد الميت من ذلك. وتدرك عندها السلطة التي يحتوي عليها نص سحري أو مقدس، وسائل العمل غير المحدودة التي يمكن اعطاؤ ها لمالكها، ويفهم من ذلك، أن المصريين قد أعطوا لمحفوظاتهم القديمة المقدسة اسم «باو- رع» (أو فاعلية رع المطلقة)، لأنهم كانوا يسترجعون بواسطتها القوة التي استعملها الإله رع في خلق الكون.

وتُفَسَّرُ الكثير من الوقائع اللاهوتية، منذ اللحظة التي يُدرك فيها هذا المستقبل الخاص. فالاستمرارية مثلاً، خلال ألفي عام للغة طقسية، ثابتة متعلقة بالمصري المتوسط الذي تبتعد عنه اللغة الشعبية كثيراً؛ لاتستطيع تغيير أو تعديل الأصوات والأشكال القاعدية للغة إلهية في الأصل؛ الاسم المصري للهيروغليفية، ليس كلاماً إلهياً، وليس هناك ماهو أفصح في هذا المجال، إلا هذا المقطع من الكتابات السحرية المبهمة الذي يشجب ترجمة المؤلفات المقدسة.

هرمس إذن معلمي، في الأحاديث الكثيرة التي أجراها معي.... تعوَّد أن يقول لي، بأن الذين يقرأون كتبي، سيجدون فيها انشاء بسيطاً وواضحاً، في

حين أنها مبهمة تخبىء معاني الكلام، ثم تصبح شديدة الابهام لاحقاً، عندما جاء اليونانيون متأخرين وقرروا ترجمة لغتنا إلى لغتهم، أدى ذلك إلى تشويه كامل في النص وتعتيم كامل له. وعندما تعبّر الأحاديث باللغة الأصلية، فإن هذا الخطاب يحفظ بوضوح معنى الكلمات.. والحقيقة فإن الخاصية الذاتية للصوت، والنغم الخاص للحروف المصرية، تحفظان في داخلها طاقة الأشياء التي تقال.

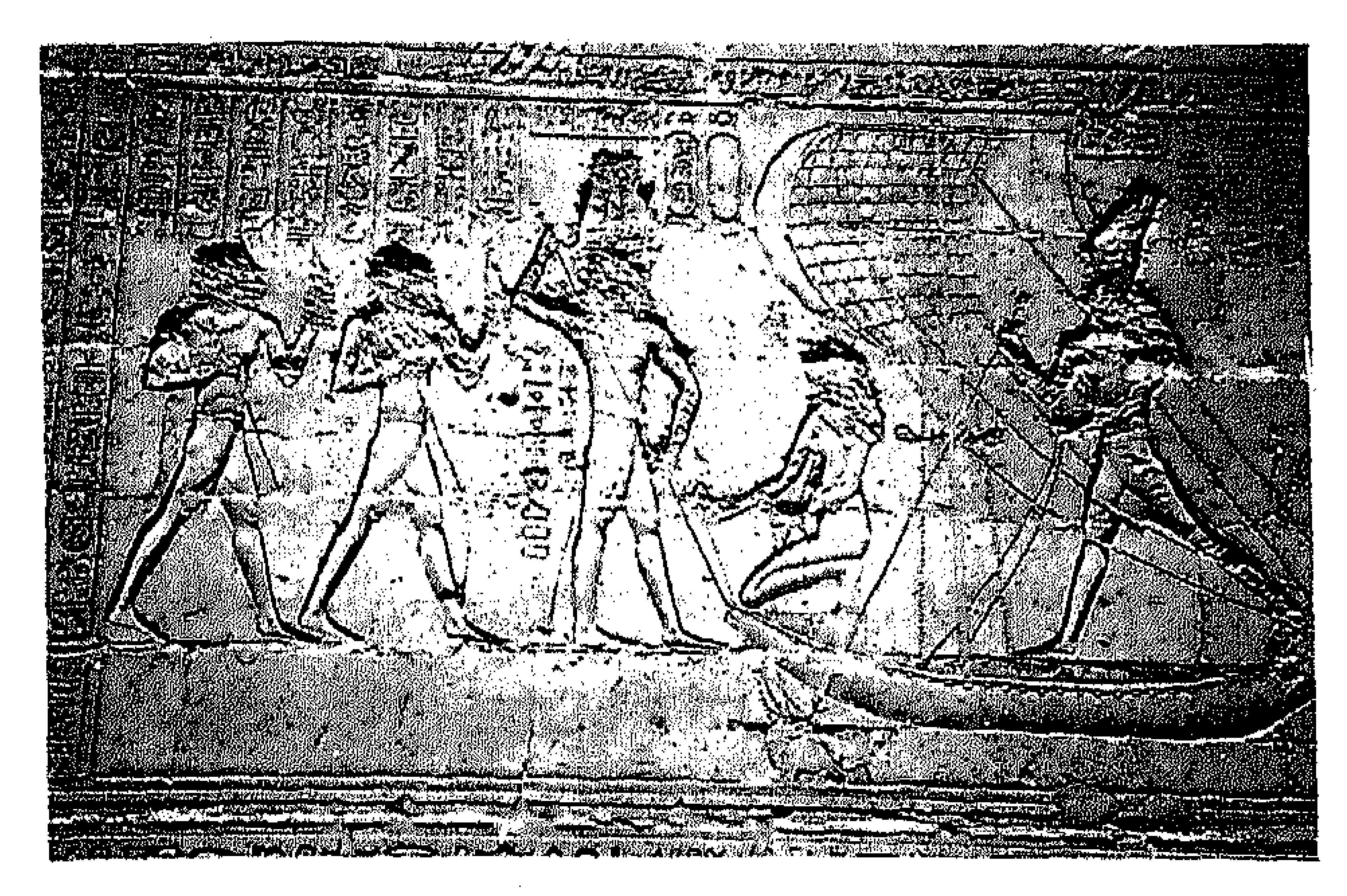
ولم يعتبر المصريون اللغة (المتعلقة بالهيروغليفية) أداة اجتماعية، فقد ظلت بالنسبة لهم الصدى الصوتي للطاقة الرئيسية التي أوجدت الكون (القوة الكونية). وهكذا فإن دراسة اللغة، تسمح لهم بشرح وتفسير العالم.

هذا التفسير عبارة عن لعبة من الكلمات التي كانت تقدمها لهم. فمن اللحظة التي تُعتبر فيها الكلمات متصلة بجوهر الكائنات أوالأشياء التي تحددها، فإن التشابه في التعبير لن يكون محض صدفة؛ فهويعني تشابهاً في الطبيعة، وعلاقة دقيقة يجب على الكهنة تحديدها: أسماء الألوهيات وأسماء الربانيات، عبارات تدل على الأشياء المقدسة، كل شيء يصبح قابلاً للشرح بواسطة الاشتقاق اللفظي، والباب مفتوح للنزوات الخيالية.

وهكذا نرى بعض الأمثلة العادية كبداية لهذه الطريقة السائدة بنظرهم «**خرافة حوروس**». إنه تركيب خرافي واسع الخيال، يظهر أحياناً بشكل مأساة يمكن أن تُعرض على شكل حلقات متتابعة. النص الذي أُلِّف بمناسبة **العيد السنوي** الكبير للإله حوروس في إدفو، «**عيد النصر**» يقص مآثر، رع وحوروس، اللذين نزلا من أعالي النيل في رحلة نهرية ناجحة، طاردين أمامهم كافة الأرواح الشريرة وشركاء آلهة الشر. تتقدم الرواية جغرافيا من الجنوب نحو الشمال، وفكرة المؤلف تكمن في شرح كل اسم من أسماء المدن التي مرَّ بها الإله في رحلته عبر عملياته أو كلماته.

قال حوروس: «تعال يارع، لترى كم تساقط من أعدائك أمامك في هذه

مشهد من خرافة حوروس، الفرعون يضرب بخطاف فرس البحر، حيوان معبد ادفو



البلاد». جاء سيادته بصحبة استارت. شاهد الأعداء متساقطين على الأرض وقد تهشمت جماجمهم. عندها قال رع لـ حوروس: إنه مكان للحياة اللطيفة والطيبة. ولهذا يُطلق على قصر حوروس حتى اليوم اسم نيدجمانخ. وقال رع لتحوت: هكذا عوقب أعدائي، لهذا السبب أخذت المنطقة اسم دجيبو (ادفو) ومازالت تحتفظ به حتى اليوم[٧].

هكذا فإن كل مدينة أو قرية تحمل اسماً تاريخياً، كانت تأخذ دوراً محدداً في إشارة الإله الأكبر - **ويتلقى نوعاً من علم اللاهوت الذي يقشعر له شعر رأس اللغويين.** مثلاً: يوجد بناء من الامبراطورية القديمة في مصر العليا، بجوار مدينة اسنا، التي تحمل اسم بي - ساحورع، يعود للملك ساحورع. ووجوده على مقربة من قرية أخرى تدعى «حوت - سنفرو» **قصر الملك سنفرو،** يدل على أن هذه المنطقة كانت تحت حكم السلالات الرابعة والخامسة بين عام ٢٧٠٠ - ٢٦٠٠ ق. م. في وقت كانت فيه منطقة الأهرامات غنية بمؤسساتها الزراعية.

غير أن اسم بي ـ **ساحورع** قد فُهم بشكل مخالف لما كان عليه في العصر الأدنى ؛ ويمكن ترجمته بأنه : **البيت الذي توقف فيه الاله رع «ساحو»**، ونُسب تأسيس هذه القرية إلى حادث عرضي للتجولات الإلهية . . . . ولكن جميع المنافع التاريخية لهذا المكان قد ضاعت .

يُفهم مما سبق أن ذلك لم يكن إلا عملاً وفهماً صبيانياً تنقصه الجدية . ومن المنطقي أحياناً إذا حاولنا فهم القيمة التي يوليها المصريون في لفظ الكلمات نجد أن : «كل تشابه خارجي لعبارتين أو تعبيرين، يجب أن يترجم علاقة مباشرة بين العنصرين المذكورين . هكذا شاع استعماله في جميع العصور، ودخل كافة المجالات ، وأصبح طريقة هامة ورئيسة في العلم الكهنوتي وفي شرح أسماء العلم ، وعملياً التحديد الفعلي لطبيعة الآلهة . . . **الأمر نفسه بالنسبة للإله آمون** زعيم الطيبين . نحن نجهل ماالذي يعنيه اسمه بالضبط . **إلّا أنه يلفظ بالطريقة** نفسها التي تلفظ فيها كلمة أخرى بمعنى «اختبأ» ، واستخدم الكتبة هذا اللفظ لتعريف الإله آمون ، الإله الأكبر الذي يحجب وجهه الحقيقي عن أولاده . لكن بعضهم لم يتردد في الغوص أبعد من ذلك : فقد جمع «هيكانيه من آبدير» ، تقليداً كهنوتياً حسبه اسم آمون ، وقد يكون الاسم تعبيراً مستعملاً في مصر لمناداة أحدهم . والجدير بالذكر أن كلمة «**آمواني**» تعني تعالى ، أي تعال إليَّ ، هذا واقع ، ومن جهة ثانية فإن بعض الأناشيد تبدل كلمة آمواني بآمون . . . **تعال إلي ياآمون** والقافية هي التشابه في النهاية ، وقد شجع الخلاف الوحيد بين الكلمتين ، الكهان على الشك بوجود علاقة وثيقة بينهما ، لتوحيد شرح اسم الاله : **وأيضاً ، يجب التوجه للإله الأولي . . . كما لو كان على نحو كائن لا يمكن رؤيته ، مخبأ ، يدعونه ويلحون على تسميته آمون لكي يظهر لهم ويكشف عن نفسه** .

وقد أعطيت ميزة هامة لكتب السحر القديمة ، نتيجة إيمانها بفضيلة الخلق والابداع للأصوات في الألوهية الأصلية للكلام ، وقيمة تفسيرية لعلم كلام

الغيب الشعبي وجميعهــا ميـزات أسـاسيـة للتفكـير الكهنـوتي المصـري، ثلاث شاشـات يظهـر لهم عبرهـا أي علم. نضيف لذلـك، معرفة الهير وغليفية وغناها الايـمائي الـذي تحتـوي عليه منظومة الكتابة. وهكذا تتجمع لدينا لمحة كافية عن المناخ الثقافي الذهني الذي نشأ فيه العلم المقدس من قرن لآخر.

أســرار الـهـيـروغـلـيـفـيـة

ظهـرت الكتـابـة في مصر حوالي عام ٣٠٠٠ ق. م، وقد عُثر على آخر نص هير وغليفي يعود تاريخه إلى ٢٤ آب عام ٣٩٤ م[٨]. وبمقارنة هذا النص المكتوب، ونص آخر من زمن تيودوس لم نجد بينهما خلافات قاعدية واضحة وواسعة أكثر مما هو موجـود بين نص تيرنس ومـوضـوع أعـد في السوربون المشهور بإنشائه الجميل وقوة تركيبه وإمكان استخدام المعجم لتراكيبه.

إلا أنه، وفي خلال الحقبة نفسها، فقد تبدلت اللغة بنسبة ضئيلة، لدرجة أن مصـريـاً من الامـبراطورية القديمة يشعر بالارتياح أمام نص قبطي، كما يشعر فرجيـل أمـام روايـة من السلسلة السوداء، وهذا شيء طبيعي، فلا أحد يستطيع منـع تطـور اللغـة العامية، خاصة عندما لاتوجد المدارس ولا المطابع، ولا الكتب للتـوزيـع على مسـاحـات واسعـة تسـاهم في تثبيتهـا - إن لم يكن البطء في تبدلها الطبيعي - ولكن من يدرك أن هم الكـاهن يكمن في الحفـاظ على لغـة أزلية دون تغيير، والتي كانت أصواتها تمثل عوامل خلق العالم، وكتابتها في تأسيس الوحي الإلهي.

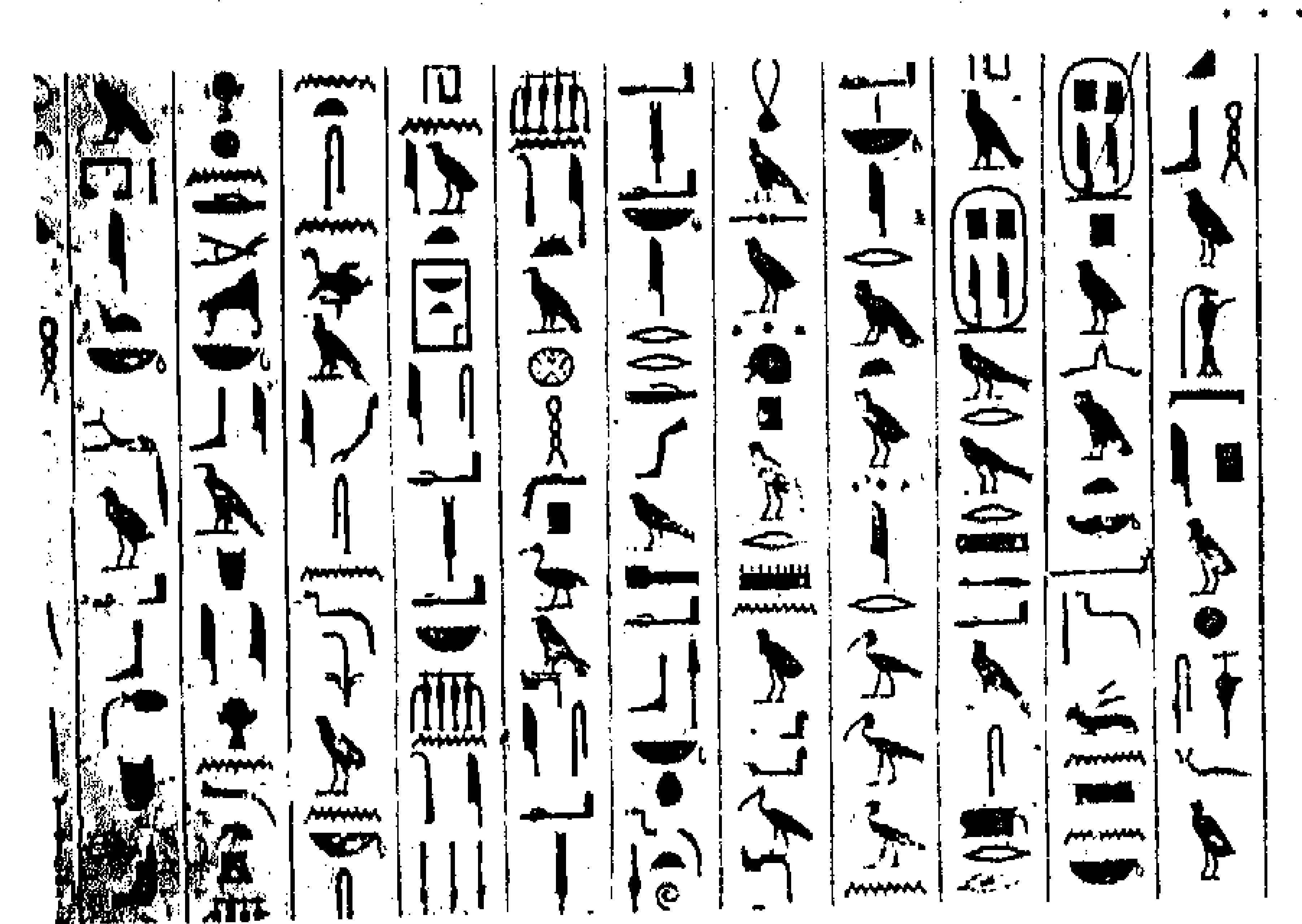
ونظـراً لوجــود كتـابـة خاصـة تحت تصـرفهم من حيث ثبـات المبـادىء والمفردات، فإنَّ الأوساط الكهنوتية تجتهد في الحفاظ عليها وإبقائها جيدة من حيث المعـرفـة والمـمارسـة، ولكنهم لن يستطيعـوا رفع مستواها أو الانطلاق منها لتأسيس

منظـومتهم الاشتقـاقيـة المقـدسة، وتطوير مصادرها، مستفيدين من المبادىء التي تحدد قيمتها. وهكذا نجد في الحقبة الأخيرة من الحضارة المصرية عدداً كبيراً من الاشـارات: وأثناء الحقب الكلاسيكية، الامبراطورية الوسطى والجديدة، كانت ٦٠٠ هير وغليفيـة تكفي لسـد حاجـات الكتّـاب. والآن سيضاعف الكتاب من تنـوعـاتهـا، ويخلقـون شارات جديـدة، ويعيدون بعث أشكال قديمة خارجة عن الاستعـال.... ويملك المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، مجموعة حروف مؤلفة من ٦٠٠٠ حرف هير وغليفي. إلا أنـه من الشـائع جداً لدى نشر نص جديد من العصر المنخفض، يجب رسم بعض الحروف غير المعروفة حتى ذلك الوقت. ومن جهـة أخـرى، استغـل الكتاب المقدسون وإلى أقصى حد، المبادىء التي سادت دائـماً في إعطـاء كل شارة هير وغليفيـة قيمـة لفظيـة صوتيـة محدودة، مضاعفين في عملهم من قيمتهـا. فالاشـارة التي لم تكن تُقـرأ إلا بطريقة واحدة، اكتسبت الآن ٢، ٣، ٤، ٥ قيم إضافية.. وهكذا، يتصرف كتبة المعابد بكتاباتهم ويضاعفون مصادرها ويجعلون منها أدوات دقيقة مرهفة الشعور ومعقدة، تتطور إلى مالا نهاية، غير مبـالـين بصعوبتها المتزايدة، مع احساسهم العميق للامكانيات غير المحدودة التي وضعتهـا الآلهـة بين أيـديهم. لقد وصلنا هنا إلى أزمة حقيقية، كانت الكتابة فيهـا الضحيـة بوصـولها إلى درجة مغلقة. فنحن نقدر عالياً الأدباء الذين حالفهم الحـظ، وعثـروا على بعض الاشـارات الجـديدة، فتخيلوا بعض القيم الجديدة، التي جعلتهـم فخـورين بعـرض اكتشـافـاتهم لزمـلائهم... عائدين إلى قراءة النصـوص القـديمة بحثاً عن الأشكال القديمة، مستخدمين كل مهارة وعبقرية، لعلهم يكتشفون أحرفاً وتعابير لم تنشر سابقاً.

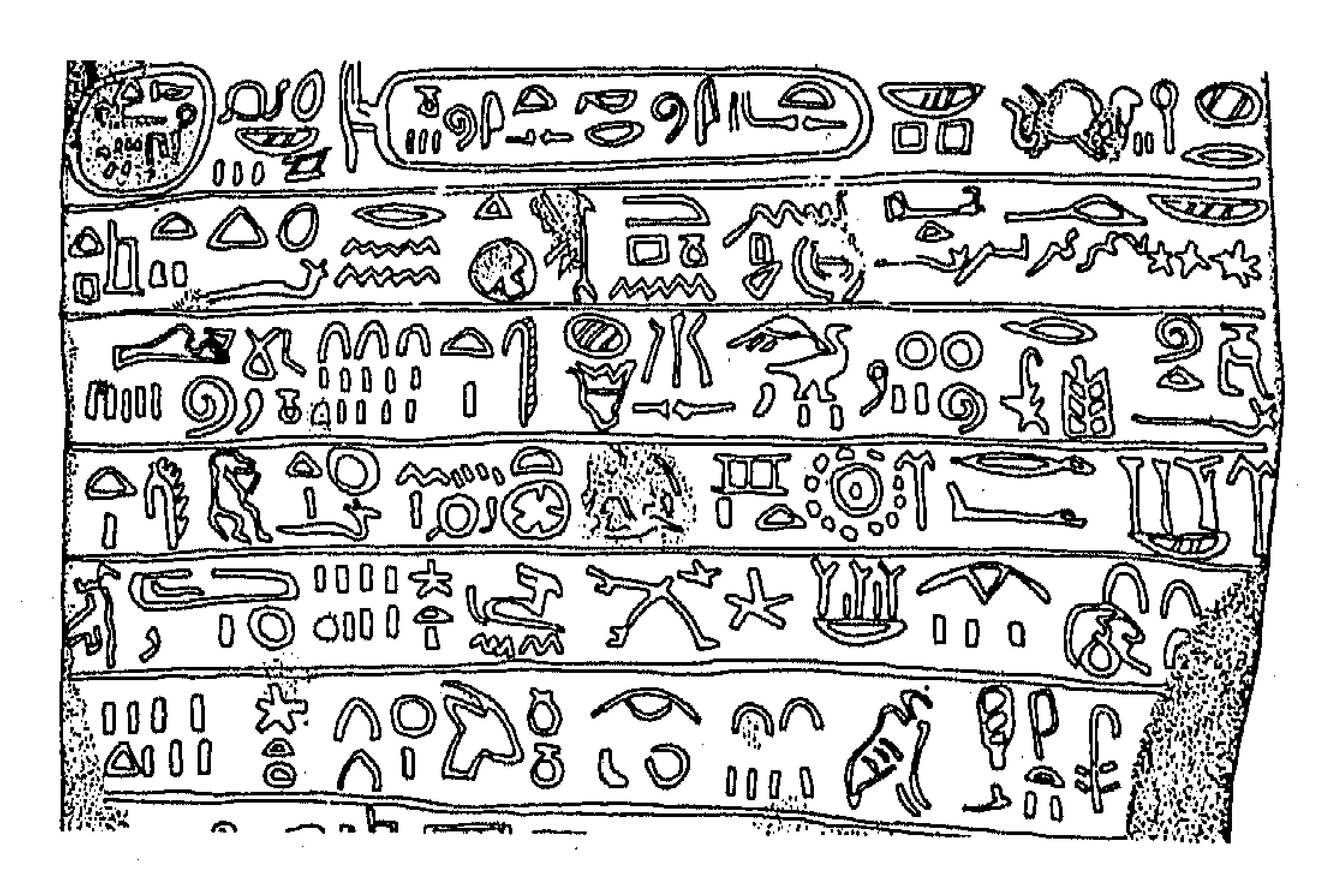
لعبـة الاشـارات وفـلسفـة الكتـابـة

إن مايدهش الكاتب. ويبعث في داخله شعور الرضى والسرور، هو كتابته

جملة تقليــديـة باستخـدام اشـارات غير معتـادة: ينتـج معنى النص، عن القيم الصـوتيـة للشـارات المستعملة لكن هذه الاشـارات بحـد ذاتها من حيث شكلها المـادي، تثـير بعض الأفكار المستقلة عن قيمها اللفظية. لنكتب مثلاً: الإله بتاح الإله السيد لمدينة ممفيس مستخدمين شارات أصلية. (P) تمثل بالسماء (T)) (P ؛ (T) بالأرض، (Ta)، (h) بصـورة الإلـه (Heh) والذراعين مرفوعين للأعلى. إن أحـد المهـام العـزوة للإلـه بتاح في اللاهوت الممفيسي، هي أنه فصل السماء عن الأرض، فإذا وُضـع الإلـه (Heh) بين السـماء (P) التي يحملهـا، والأرض (T) التي يقف عليها، نحصل بذلك على الاملاء اللفظي للاسم بتاح، ولوح صغير بعيد ولكنـه مرئي يحدد مهـام هذا الإلـه.. لنكتب أيضـاً الكلمـة التي تدل على عالم الأموات «دُوَّات» لقد كتبت املائياً في ذلك الوقت د+ت (d+T)، وكذلك الكلمة الـتي تعـني «الجسم، والتي تدل على الأزل «الخلود». وبمـزج شارة الأفعى (d) بإشـارة المـوميـاء الخـاملة (WT) نحصل هكذا على اللفظ دُوَّات ملمحين في الوقت نفسه عن العالم الآخر بصورة الجسم الميت. المحاط بالأفعى الملتفة حارسة جهنم...



نص من الأهرامات: هرم تيتي السلالة السادسة الألف الثالثة قبل الميلاد. سقارة.



نص هيروغليفي متأخر ٣٤٠ م نصب جنائزي للثور بوخيس. متحف القاهرة.

إنها الآن لعبة جديدة لنخبة من الكتبة، حيث باستطاعتهم إعادة الأصوات الضرورية للفظ الكلمة من ترسانة محدودة من الشارات التي لها القيمة نفسها، ويسمح تجميعها بوضع ألواح ايمائية تتعلق بالفكرة المعبِّرة. وهكذا يتحدث النص بطريقتين للروح التي تتبع الكلمات، وللعيون التي ترى وتدرك الصور، تماماً كالشريط السينمائي، حيث تحدد عناوين للعمل الذي يقوم به الممثل (رجلان يتصارعان) تكتب: يتصارعان.

والمرحلة الأخيرة من هذه التجارب الواسعة للكتابة الهيروغليفية، التي توصل الكهان العلماء إلى تصميمها هي اشارات النصوص الدينية وامكانية اجراء العمليات الشكلية التي تشبه إلى حدّ ما الأبحاث الهجائية حول الهجائية العربية. وإذا كانت هذه الكتابة ذات الاختراع الإلهي، والتي كان لفظها مولداً للحياة، يمكنها وفي آن واحد تثبيت نقل فكرة مُعبرً عنها بأصوات وايماءات لها عن طريق الوحي الكتابي، فهل بالإمكان تصور املاء كانت غنية بالأفكار أكثر من غناها بالاسم الذي يستخدم في كتابته؟ وهل يمكن للتصوير الشكلي أن يتجاوزه

من حيث محتوى التعبير اللفظي؟ وعوضاً عن تأكيد ذلك ببساطة وسهولة عن طريق لوح وجدول مرئي بالفكرة التي توحي بها الكلمة الملفوظة، فإن املاء وكتابة اسم إلهي، يخلقان حول هذا الاسم هالة من الأفكار الثانوية، تحتوي في داخلها على سلسلة من الصفات التي يمكن أن تُعزى في باقي النص إلى تلك الألوهية.

لنأخذ مثالاً: كتابة االاسم «نايت» الإلهة الأولية، التي يكتب اسمها باللغة المصرية بحرفين غير صائتين ن، ث. ويعبر عنها بصورة الصقر الذي يقابل الحرف ن والشمس التي تقابل الحرف ت، ولكن يمكن لكل من هاتين الاشارتين حمل قيم أخرى أكثر شيوعاً، فالأولى تستخدم في كتابة الاسم «موث» الأم، الثانية رع الشمس والنص هنا يتطلب القراءة اللفظية «نايث». لكن عند رؤية الاشارات، فإنه تتبادر إلى الذهن ترجمة أخرى أكثر غنى: **ام الشمس رع**. فكرة أراد الكاتب اقتراحها، لأن النص يتابع بوضوح هذه العبارات: (نايث) أم الإله الوحيد (رع) الذي لامثيل له. الوظائف الصفات الممكنة لإله ما، توجد بهذا الشكل في حالة كامنة داخل الكتابة اللفظية (لكن الشارات اختيرت بعناية فائقة) لهذا الاسم. مثل آخر بخصوص الاسم الالهي نفسه: يمكن أن تكتب (نايث) «ن + ث»، لكن العنصر الأول هو الوجه أو السطح المجعد للماء الذي يدخل الكلمة ن، ث، سطح مائي؛ والثاني هو الاشارة التي تدل على الأرض تا: يتابع النص بتوضيح «نايث» **الماء الأزلي الذي أنجب الأرض**. هنا نجد أيضاً طريقتين لكتابة الاسم الإلهي المذكور سابقاً في شكله صفات الآلهة التي يجب على النص أن يعزيها إليه فيما بعد.

ولم تُؤكَّد هذه المحاولات بشكل قاطع إلا في العصر الأدنى: فقد وجدنا لتوِّنا آثارها في النصوص الدينية لمعبد اسنا[٩] التي يعود تاريخها لأيام الأباطرة دوميسيان وتراجان ـ من القرنين الأوليين لعصرنا الميلادي. فهي تثبت إلى أي مدى توصل إليه الغوص في دراسة الهير وغليفية التي أجرتها الأوساط الكهنوتية

حتى السنوات العشر الأخيرة من استخدامها. وأقل من أي وقت مضى، كان الكهان يعتبرون الهيروغليفية كأدوات بسيطة للكتابة: لقد توصلوا إلى أن يصنعوا منها نمطاً ثلاثياً للتعبير، يمكنهم حسب الارادة استخدام حروف (عناصر لفظية مؤلفة للكلمة) ووضع ألواح وجداول موازية للفكرة المعبر عنها، مانحة ازدواجية في الادراك السمعي لوعي بصري، وحتى الايحاء مسبقاً إلى ماهو أبعد من الكلمة التي تستخدم في كتابتها، والصفات، والوظائف التي يمكن عزوها لهذه الكلمة. . . منطلقين بدون شك من ألعاب املائية تصويرية بسيطة توصل إليها الكتبة المقدسون، باعتبار أن الكتابة الغنية التي يملكونها، تسمح لأبعد من استعمالها المباشر كوسيلة للتعبير، بالتوصل إلى تحديد سمعي ورمزي في آن واحد للعالم: الكون، قوانينه، تواريخه التي ولدت في الماضي، بفضل لفظ الكلمات الالهية: جزء من هذه الفاعلية السرية لتلك الطاقة البدائية الفائقة القوة، بقيت محصورة في سر هيروغليفيتهم.

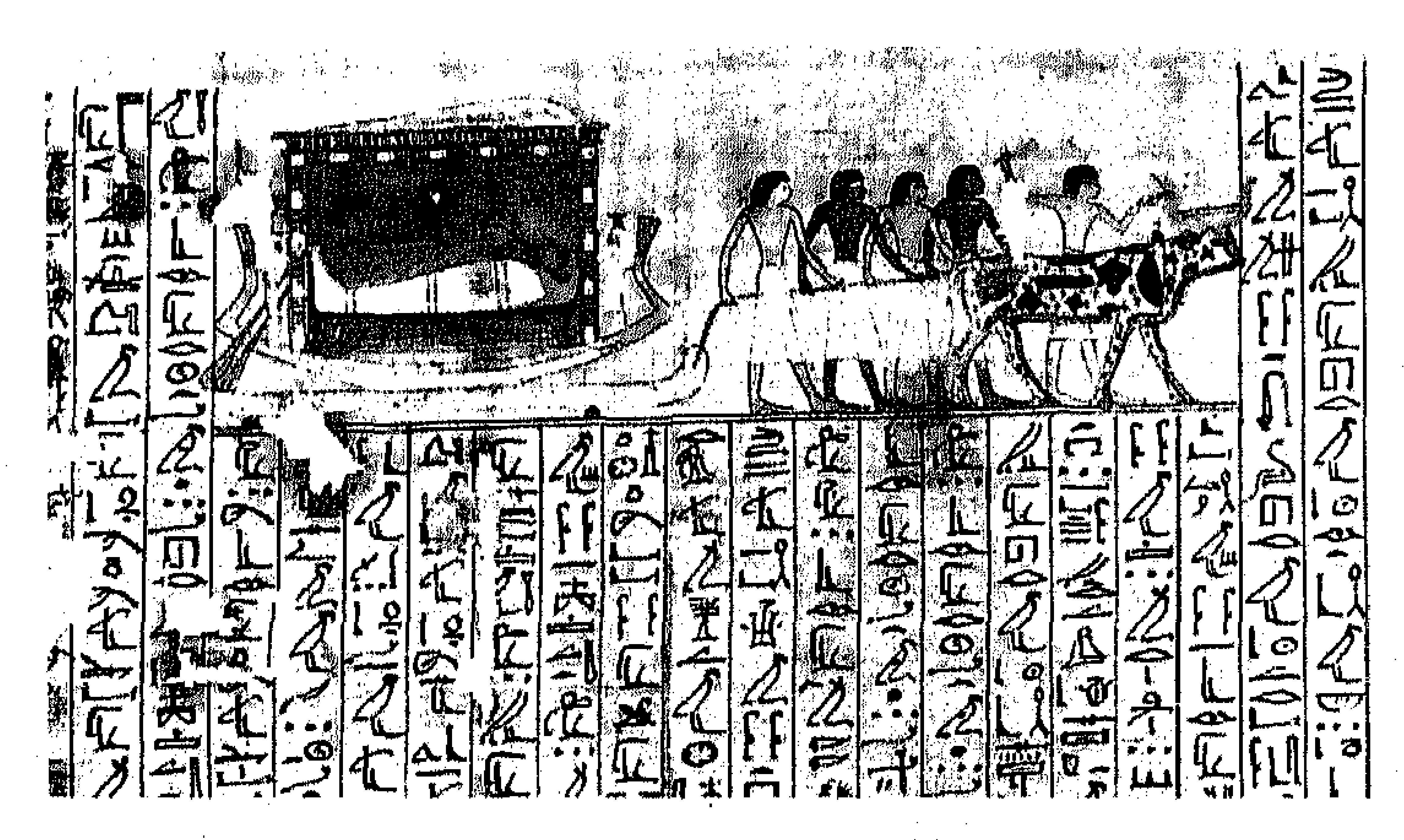
بعد هذه اللمحات عن الظروف الثقافية التي نشأ فيها العلم المقدس، ندرك أن الكهان لم يكونوا مسرفين بمحض ارادتهم: فكيف يمكن ببساطة أن يشرحوا لرجل اجنبي - وليكن سائحاً مثلاً - الفروع المتنوعة لعلم كانت أسسه متصلة اتصالاً وثيقاً بالأفكار الدينية الرئيسة لمصر؟

كيف يمكن تقديم لوحة أوجدول واضح، عن خلاصة الأفكار والقناعات التي لم يتوصلوا إليها إلا بعد تأمل طويل، والجمع جيلاً بعد جيل للعادات والتقاليد الكهنوتية المكتوبة والتقنيات الروحية؟ إن معرفة اللغة المقدسة والكتابة المتصلة لحروفها، ودراسة عميقة للنصوص القديمة، والوعي الدائم للقدرة غير المحدودة للأصوات والكلمات، كانت تشكل جميعها القاعدة لكل علم مقدس، وهي بنظر كهان مصر الدرجات التي تسمح بالوصول إليها.

بتلك الطـريقـة تحدد جوهـر العلم، ولكن ماهي المعطيـات الايجـابية التي نملكها حوله؟ أين يدرس ويُلقَّن؟ ماهي الميادين التي يغطيها؟

بيـوت الحيـاة ومكتبـات المعـابـد

سنجـد الجـواب على التسـاؤلات السابقة، بتدقيق كل مانعرفه عن بيوت الحياة ومكتبات المعابد[11]. بيوت الحياة مؤسسات عجيبة غريبة في نظرنا: يتكلم عنهـا قدمـاء المصـريـين دون إعطاء التفاصيل؛ ومن الواضح أنهم يتفاهمون وهذه ليست حالنـا. . . فنحن متأكـدون أنهـا موجـودة في ممفيس، آبيدوس، العمارنة، آخميم، قبطس، إسنا، إدفو ـ ونفترض بما يشبه التصديق بأن كل معبد هام، كان يملك ملحقـاً يسمى بيت الحيـاة، هذه المنشأة تشبـه المعامل والمخابر، حيث يُعدُّ فيهـا العلم المقـدس وتـدرَّس النصـوص، وتنسـخ وتحفـظ؛ وقـد تكون في بعض الأحيان مكاناً للتعليم. وجلَّ مانعرفه، عن أستاذ من بيت الحياة في آبيدوس، كما



بابيروس جنائزية من ماهيربرا (السلالة الثامنة عشرة). متحف القاهرة.

جاء بفضل رواية ساتني «بأن الطفل الصغير سينوزيريس، تثقف بالعناصر الأساسية للكتابة المصرية، بصورة غير كاملة، والتي علّمه إياها أحد الكتبة، فبدأ يقرأ كتب السحر مع كتبة بيت الحياة في معبد بتاح». ومن المحتمل أن الشاب قد صادق الكتبة الممتهنين ليتدرب على أيديهم، وهذا مطابق للطابع العام للقصة ليبهرهم بعلمه الذي يفوق قدرة البشر..

المهم في نشاطات بيت الحياة، هو تحضير المؤلفات الدينية الضرورية للعبادة: نسخ الكتب القديمة وتصحيح أخطائها، وسدّ الهفوات والفقرات الناقصة من القصائد الشعرية، وتحضير نصوص الطقوس الخاصة بكل معبد والكتب السحرية المعدة لحمايته، واللوحات الفلكية، ونسخ آلاف النسخ عن كتب الأموات، مناقشة نسختين من عصرين مختلفين فيما يتعلق بالمسائل الفلسفية والدينية كي لا يحدث تشويه في كتب الطب والنشاطات الأدبية. . . . لأن كل شيء لم يكن منسوخاً آلياً في تلك المخابر؛ نصوص أصلية، محاضرات لاهوتية، حررت لأول مرة، نتيجة للتأملات أو تبادل وجهات النظر المثمرة. . . كما أن بعض النصوص الروحية الجميلة أو الأخلاقية التي نملكها، ولدت من تفكير وقناعات نفر من الكتبة المغمورين، الذين سنبقى جاهلين أسماءهم.

إلى جانب الكتبة، كانت بيوت الحياة، تضم بعض الاختصاصيين؛ منفذ الطقوس مثلاً كان مكلفاً في الاحتفالات بتمثيل السحر وذلك بضرب الحيوانات الشريرة حسب تقليد وطقس محددين؛ إضافة إلى مجموعات من الفنانين والمزينين المكلفين بتغطية جدران المعابد بكتابات ونقوش بارزة قليلاً، ودهان الهيروغليفيات والمشاهد، واصلاح الجدران والنصوص المعرضة للعطب.

وبصورة عامة، فإن كل مايُكتب على جدران المعابد، من المخطوطات الضرورية للعبادة، وجميع عناصر الثقافة الكهنوتية، كانت تخرج من بيت الحياة،

فإذا كانت هذه العناصر إنها جداول «لمكتبات المعابد» التي ستتوضح لنا لاحقاً.

وإذا كان كتبة بيوت الحياة، يحضِّرون، مُسوَّدات النصوص التي سينقشها النحاتون على جدران المعابد، ويحفظون في أرشيفهم نسخ النصوص الإلهية الأصلية الهامة، فإنهم مدعوون لكتابة الملفات اللازمة للاستعمال الشائع والضروري للكهان لتنفيذ الطقوس اليومية. إن هذه المخطوطات محفوظة في المعبد، وجاهزة للاستعمال، وقد عُثر على الكثير منها بشكل قطع صغيرة مبهمة نوعاً ما، تحمل اسم بيت الكتب؛ أعشاش صغيرة ضيقة محفورة داخل الجدران السميكة، كانت تحوي الملفات، نوع من جرد المؤلفات المخزونة، في هذه القاعات، كان محفوراً على الجدار.

والمثال التالي يبين قائمة الكتب المقدسة في معبد ادفو[11].

«الكتب والرقائق من الجلد الصرف تسمح بطرد الشيطان؛ بدفع التمساح؛ بالحماية من الساعة؛ بصيانة القارب؛ بالتنزه في القارب الكبير؛

الكتاب الذي يصطحبه الملك في موكب؛

كتاب سيرة طقس العبادة. . . حماية المدينة، البيت، تاج العرش الأبيض، السنة

كتاب لتهدئة سيخميت

الكتاب لدفع وطرد الأسود، والتماسيح. . . والأفاعي، والزواحف. . .

كتاب لمعرفة أسرار المصنع.

كتاب لمعرفة التقدمات الإلهية بجميع تفاصيلها؛ . . . . وجميع تفاصيل الأشكال السرية للإله، وكافة وجوه الآلهة المشتركين، المنسوخة يومياً للمعبد، كل يوم، ويوماً بعد يوم، لكي تبقى أرواح الآلهة في هذا المكان، وأن لاتبتعد عن هذا المعبد.

كتاب جرد المعبد

كتاب غنائم الأعداء
كتاب المخطوطات عن المعركة؛
كتاب سيرة المعبد؛
تعليمات حول تزيين الجدار؛
حماية الجسم؛
طريقة لدفع العين الشرية؛
معرفة دور العودة للكوكبين (الشمس، القمر)؛
مراقبة العودة الدورية للكواكب الأخرى؛
احصاء جميع الأماكن المقدسة ومعرفة مافي داخلها؛
كل طقس متعلق بخروج الإله من معبده أيام الأعياد (ادفو ٣، ٣٤٧، ٣٥٢)

وفي معبد آخر من مصر العليا، ومعبد «تود»، توجد بعض الكتل الحجرية، التي ماتزال تحوي إلى يومنا هذا على بقايا جرد من هذا النوع. فقد عثر على كتب تعالج **«دخول الإله مونتو إلى طيبة، طقس اتمام عين حوروس، كتاب التقدمات على المذبح في معبد آمون، كتاب عيد توت في معبد خونسو، طقس من عيد النصر، طقس من أجل ولادة الإله، إلخ. . . . .**

كما عُثر في المعبد الروماني في اسنا، في جزيرة فيلة على مكتبات مشابهة، حيث حفظت كتب الأدب المقدسة للتداول الشعبي. وسمحت التنقيبات في النهاية بالعثور على مؤلفات هذه المكتبات في المدينة الصغيرة «تبتونيس» في الفيُّوم؛ وضمن هذه الوثائق والمخطوطات، أمكن التعرف إلى جانب كتب الطقوس، والفلك، والطب، على عدد من النصوص الأدبية والروايات الشعبية لـ ساتني و«بيتوباستيس»، وثلاث مجموعات للكلمات، مرتبة ومصنفة حسب

المعنى، والتي يُشار إليها بعبارة «دراسة أسماء العلم»، وبعض النسخ من كتاب الحكمة المعروف سابقاً.

مجالات العلم المقدس

إذا قمنا بمحاولة احصاء وتعداد مجالات العلم الكهنوتي، والمجالات التي يمارسها، فإننا سنصل بفضل مجموعة القوائم المحفوظة صدفة على جدول كبير جداً ومدهش.

من الواضح، أن كل كاهن لم يكن متمرساً في جميع الفروع والمجالات التي نستطيع توضيح بعضها، إما كاتباً في بيت الحياة، أو في مجرودات المكتبات. هنا يتدخل التخصص، فالقائم على الخدمة لايهتم إلا بالطقوس، والآخر بالفلك وحساب الزمن، والأخير صنع لنفسه مجالاً مستقلاً في ترجمة وتفسير الأحلام، أو في طقوس وعبادة الحيوانات المقدسة... ولاشيء يعطي فكرة أكثر وضوحاً، عن التشعب الدقيق للعلوم والتقنيات بين مختلف الفئات الدينية، غير الفقرة التي يصف فيها الكاتب كليمنت الاسكندري، موكب تطواف الإله اوزيريس، تماماً كما كان يُنظَّم في المدينة الكبيرة الهللينية.

يسير المرتِّل في المقدمة، يحمل آلة موسيقية، يقال أنه يجب عليه حفظ كتابين من كتب هرمس، أحدهما يتضمن أناشيد الآلهة، والآخر قصة الحياة الملكية. وخلفه يسير العرَّاف، ممسكاً بيده رموزه، الساعة، وغصن النخل الفلكي. ويجب عليه أيضاً معرفة كتب هرمس الفلكية الأربعة عن ظهر القلب، والتي يعالج احدها ترتيب النجوم الثابتة، والثاني حركات الشمس والقمر والكواكب الخمسة، والثالث حول تزويد الشمس القمر بالضوء، الأخير حول نصوص الكواكب. ثم يتقدم حافظ القواعد الهيروغليفية المتوَّج بالريش، حاملاً

بيده كتاباً ولوحاً لحفظ الحبر الأسود والقصبة المستخدمة في الكتابة. ويجب على هذه الشخصية معرفة المخطوطات التي يطلق عليها اسم الهيروغليفية المتعلقة بجغرافيا الكون والأرض، وترتيب الشمس والكواكب الخمسة، وجغرافية أرض مصر، ووصف نهر النيل، والشروحات المتعلقة بالأشياء المقدسة والأماكن المكرَّسة لها، والمقاييس والأدوات المستخدمة في الطقوس. وفي المؤخرة يمشي حامل ميزان العدالة ووعاء الشراب؛ العالِم بكل ماله علاقة بالتعليم «الديني في المعبد»، وعلم دلائل وسمات الحيوانات، والقواعد العشرة التي تتصل بتقديس وعبادة الآلهة في البلاد وتشمل التقوى المصرية، والتبخير، والتقدمات، الأناشيد، الصلوات، التطواف، المواكب والأعياد، إلخ....

أخيراً، يخرج النبي، وقد ضم إلى صدره وعاء بثلاث قبضات، يتبعه حملة التقدمات، وبصفته رئيساً للمعبد، فهو يعرف الكتب العشرة. الطقسية المقدسة، المتعلقة بالقوانين والآلهة، وسائر العلم الكهنوتي (ترجمة: ف. دورشان).

. تلك بالتأكيد لمحة عن العلوم الكهنوتية، فبعض عناصرها تتقاطع مع مانعرفه عن طريق الجداول التي عثر عليها في المعابد، وبعضها الآخر حديث، وضعه الكهان لاكمال العلوم المقدسة. وهذه المعلومات ظلت جزئية، ولكن عدداً لايستهان به من التنويهات المبعثرة في الوثائق والمحفوظات المصرية، وبعض ايحاءات النصوص، التي عُثر عليها مكتوبة، تعود جميعها ظاهرياً للمكتبات الكهنوتية، وقد سمحت بتكوين صورة أوسع عن المجالات التي يغطيها علم الكهان المصريين. هذه المعطيات المبعثرة، سنقوم بتجميعها وتصنيفها بغرض تقديم جدول ولوحة للكفاءات الكهنوتية مفصلين قدر الإمكان. لنبدأ بالتأريخ.

التــأريـــخ

ماتـزال العبـارة التي خاطب بها العجـوز سايس الفيلسـوف اليوناني سولون ماثلة في أذهاننا: **لم يسبق أن حدث شيء كبير أو جميل، يستحق الملاحظة في أي ميـدان عنـدكم أو عنـدنا وفي أي بلد تعرفه، إلا وسجلناه منذ زمن طويل في كتبنا وحفظنـاه في معـابـدنـا**، والحقيقـة بأن الـوثـائق قد أعـدت في المعـابـد من أجـل استعمالات دينية، والتي يمكن اعتبارها محاولة في التأريخ. ولم يكن لدى المصريين تأريخ بالمعنى الصحيـح، والسبب، وجـود وضـع قاسٍ يجب قبـولـه كما هو. إن غياب واستمرار عصر ما، جعل من الصعب وضع تقييم صحيح للزمن: كل ملك جديـد يعتـلي العـرش في العـام واحـد (الأول)، وعندما يموت هذا الملك ويعتلي خليفتـه للعـرش، فإن عام توليـه هو العـام واحـد (الأول) أيضـاً، إذا مااعتبرت الممالـك المشـتركـة، والمعـاصـرة، والـوهمية، فإنه يُفهم من ذلك أن تقديراً عادلاً للقـرون التي مضت كان شبـه مستحيـل: يقـال: في زمن الملك **خيوبس**، يجري الكـلام عن **الملك الصـالـح داغـو بيرت** الـذي نعي حدثـه منذ زمن بعيد، ولكن موقعه الزمني غير معروف، ومن جهة ثانية، فإن الفكرة التي كانت لدى المصريين عن عالم أزلي لايتبـدل، كانت تمنعهم من ادراك تطـور محتمـل للظروف السياسية والاجتـماعيـة. لقد حدثت في مصر انقلابات وفوضى اجتماعية لامثيل لها، كتلك التي حدثت في نهاية الامبراطورية القديمة. لكن النصوص الأدبية هي التي أتت على ذكر تلك الفوضى؛ بينما اكتفت النصوص التاريخية بتعداد أفواج الملوك الذين عاشـوا في ظل تلك الأجـواء المضطربة، دون أن يتركوا إشارة تذكر لحدوث أمور هامـة: هذان العـامـلان: عدم الـدقـة في التـواريـخ، والاهتمام المطلق لواضعي جداول السنـين الملكيـة، أثّـرا بشكـل واضـح لأكثر من ثلاثين قرناً، على تدوين الـوقـائـع التـاريخيـة في مصر. وتوجّب انتظار «مانيتون»[١٢] ـ كاهن مصري أصبح

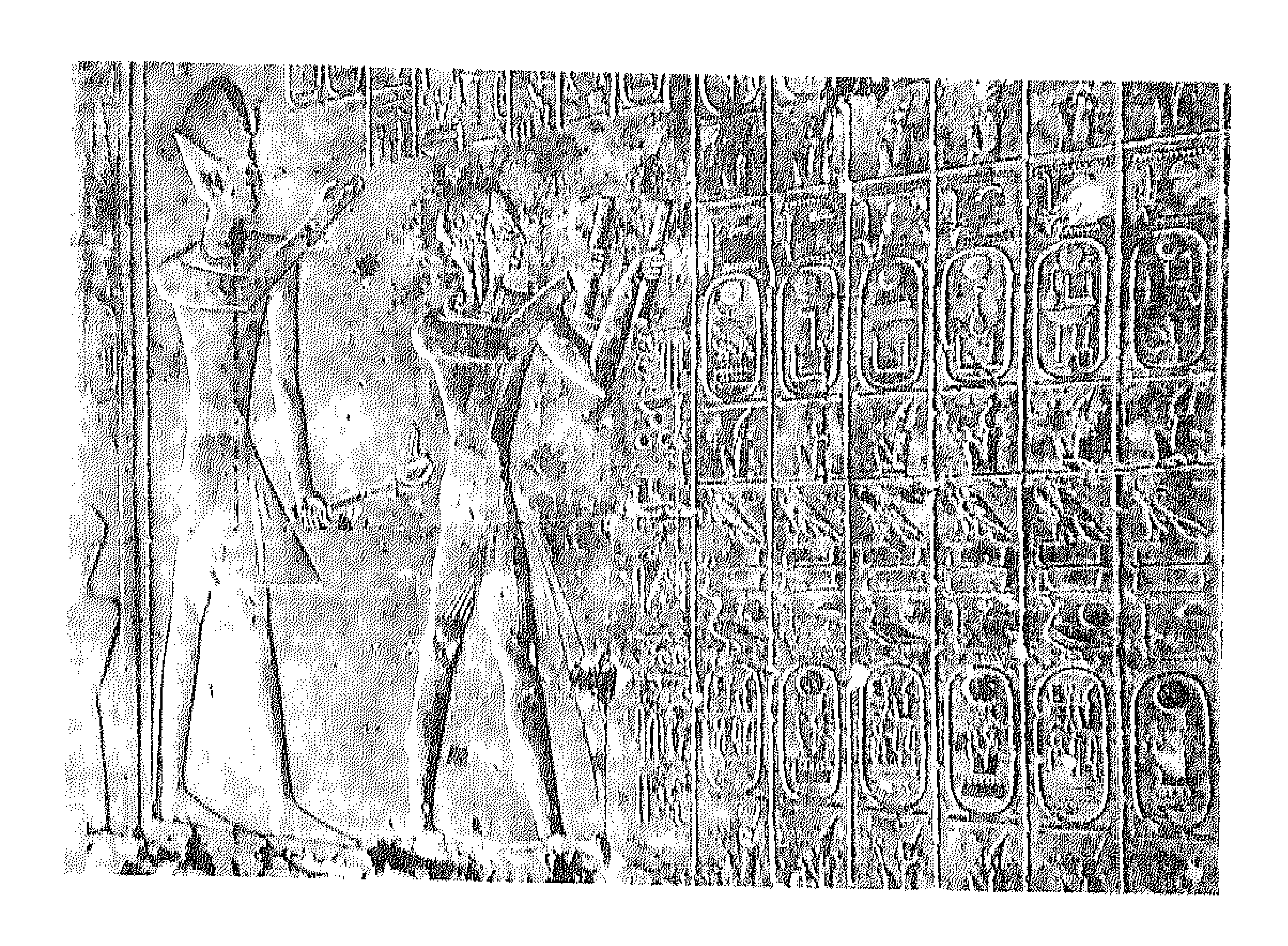
يونانياً ـ ليدوِّن أول كتاب في التاريخ رغم الصعوبات القوية وبعض الأخطاء الواضحة! . . .

ولم نر أثراً لمؤلف تاريخي في قائمة الكتب الكهنوتية المذكورة أعلاه، إلا أنه وُجدت بعض الكتب التي وصلنا قسماً منها. ومع هذا يخبرنا هير ودوت: **بأن الكهان بعد مينيس أول ملك مصري، كانوا قد قرأوا في أحد الكتب أسماء ٣٣٠ ملكاً آخرين خلال أجيال بشرية عديدة، منهم ١٨ أثيوبيا، وامرأة أثيوبية واحدة، وكان الباقون رجالاً مصريين**[١٣].

ومن بعض القوائم التي وصلتنا من هذا النوع: يزين أحدها دهليز معبد آبيدوس، يُرى فيه الملك **ستحي** والد رمسيس الكبير، يقدم التضحية إلى أجداده البالغ عددهم ٦٧ ملكاً بدءاً من مينيس مؤسس الوحدة المصرية. يجب اعتبار هذا القول أكثر من وثيقة تاريخية، لا بل وثيقة سياسة: إن **ستحي** ينتمي إلى سلالة جديدة فهو إذن دخيل بانتمائه إلى عرق الفراعنة الأموات، وكان يأمل الاعتراف به شرعياً. . . قوائم أخرى تشبه مانسميه نصاً تاريخياً حيث تسرد أوراق البابير وس في تورين، بعض سلالات الملوك، ومدة بقائهم في الحكم وتعطي تقريراً عن فترات بعض الحقب الزمنية[١٤].

وأخيراً وثيقة عن السلالات الأولى «**صخرة باليرم**» المشوهة جداً، فقد عرضت السلالات الواحدة تلو الأخرى والأحداث الهامة التي عرفتها مصر: ارتفاع مياه الفيضان، تاريخ وفاة كل ملك، وتتويج خلفه، والأسفار عن طريق البحر، والرحلات التجارية والعسكرية، إلى جانب تلك الكتابات الرسمية كانت الحوليات الكهنوتية، تضيف الملاحظات والمشاهدات الفلكية، والعجائب . . . . .

وهكذا يقول هير ودوت؛ **يؤكد لي الكهان، أنه خلال ١٣٤٠ سنة لم يظهر أي إله بشكل بشري. . . إلا أنهم خلال تلك الحقبة أعلموني أن الشمس**



جدول ملكي في ابيدوس معبد ستحي الأول في آبيدوس.

ارتفعت إلى نقطة ما في السماء خارج مسارها أربع مرات، وأنها أشرقت مرتين من حيث تغرب، وغربت مرتين من حيث تشرق، إلا أن الوضع في مصر لم يتأثر بشيء، ومنذ ذلك الوقت، لم يظهر أي تبدل في خصوبة الأرض أو فوائد النيل، أو في الخط البياني للأمراض ولغزوات الموت[١٥].

وإذا كانت الأحداث الهامة ينقصها التحديد والتسلسل الزمني، أو النظرة التاريخية الحقيقية، فإن المعارف الكهنوتية المتعلقة بهذا الماضي الطويل لم تكن قليلة الأهمية، فالكهان كانوا يملكون مجموعة هائلة من التقاليد الخاصة المتعلقة بالكثير من الأبنية الدينية في بلدهم. وتزخر مؤلفات الرحالين اليونان بروايات عديدة تعود إلى الأسماء الكبرى في التاريخ، سيزوتريس، مويريس، رامبسينيت، نيتوكريس... ومن جهة أخرى، فإن فضولهم ظل يقظاً تجاه الأحداث الخارجية عن مصر: فحرب طروادة مثلاً، لم تكن مجهولة لديهم، وإذا

ماصـــدقنـا هيرودوت، فقـد وجـدنـا أنهم كانـوا يدونـون في محفـوظـاتهم العلماء والفلاسفة اليونان الذين زاروا معابدهم.

وأخـيراً، وبسبب معـرفتهم بالكتـابة الهيروغليفية، فقد كان باستطاعتهم عمل ما نفعله اليوم، وهو: تعليم تاريخهم من الكتابات الموجودة على النصب التي تغطي بلادهم، ولو أنهم لم يحددوا بالضبط حقبها الزمنية... لنفكر بهذا الكاهن الطيبي العجـوز جرمـانيكـوس وجـرسـه، الـذي كان مرشـداً عبر آثـار العاصمة القديمة (تاسيت، حوليات ج ٢):

وعلى الأبنيـة الضخمـة، مازالت ترتسم حتى اليـوم، حروف مصـريـة، تحمـل روعـة المـاضي القـديم، طُلب منـه ترجمـة لغة آبائه، فيشرح أحد الكهان الشيـوخ لجرمـانيكـوس، أن المـدينـة كانت تحتضن سبعمائة ألف نسمة من أعمار الجـاهـزين للحـرب، وأنه بوساطة هذا الجيش تمكن الملك رمسيس من السيطرة على ليبيـا، وأثيـوبيـا، وميديا (ايران) وبلاد فارس، وباكتريان، وسيثي (روسيا الـوسطى)، وكـامـل الأراضي التي كان يحتلها الآشوريون، والأرمن، وجيرانهم الحثيون وأخضع لقوانينه البلاد الممتدة من شمال غرب آسيا الصغرى إلى جنوبها الغـربي (منطقـة بحـر قزوين). وكـان يقـرأ أسماء الضـرائب المفـروضـة على البلدان، ووزنـات الفضة، والذهب، وعدد قطع الأسلحة، والخيول وتقدمات المعـابـد، والعـاج، والعطـور، وكميات القمح، والمؤونة التي يجب على كل بلد تقديمها، ضرائب لاتقل أهمية عن التي تفرضها اليوم قوة البارثيين والرومان.

أمـا روايـة **الأتلنتيـد** التي رواها كاهن من سايس إلى سولون، فمن السهل العثور داخلها على العناصر المصرية الصرفة، التي تدعونا للتساؤل حول أصولها المحتملة. ومن المحتمـل أو الاستنتـاج (حسب قول سبـانوت) بأن رواية الأتلنتيد تعتـبر ترجمـة جديـدة أو تفسـيراً مصرياً جديداً للوقائع التاريخية القديمة، بذكرها الغـزو الكبـير للشعـوب الآسيوية من جزر واقعة وسط البحر[١٦] في القرنين الثالث

والثاني عشر ق. م وبأعداد كبيرة من ليبيا ومصر، والصعوبات التي واجهها كل من مرنفتاح ورمسيس الثالث في طردهما من وادي النيل.

كان مرنبتاح متقدماً في السن، وأسرع الشعراء في وضع الأناشيد احتفالاً بتوليه العرش بعد رمسيس الثاني الذي تصفه الروايات بأن عهده انتهى بالغش والسوء: فالأيام أصبحت قصيرة وأصبح القمر غير منتظم. وقد جاء في نشيد تولية مرنبتاح:

لينشرح قلبك، أيتها البلاد، لقد حلت الأيام السعيدة، وتولى سيد في جميع البلاد... إنه أكثر نفعاً من أي ملك آخر، مرنبتاح! أيها الصالحون، تعالوا لتروا! إن ماعت قد طردت الخداع، وانكفأ الأشرار على وجوههم، وتجاهل الناس جميع الجشعين، وقف جريان الماء لكنه لم يجف، ثم ارتفع الفيضان عالياً، طالت الأيام، وأصبح الليل ساعات، وجاء القمر في موعده كالمعتاد، الآلهة راضون مطمئنو القلب، ويعيش الناس في ضحك ودهشة».

ففي السنة الخامسة من حكم مرنبتاح حوالي عام ١٢٣٠ ق.م. تحالفت بعض الشعوب وحاولت غزو مصر من الغرب بزعامة أمير ليبي، ربما كان من منطقة برقة المشرفة على البحر، لأن حلفاءه كانوا من شعوب البحر (ممالك البحر) مثل: الأكيين، والترسينيين، والليكيين، والسردينيين، والصقليين وها هي واحدة من القصائد الشعرية تشيد بالانتصار وتؤكد سيادة مصر:

الأمراء منطرحون على الأرض يصيحون «الرحمة»
ولا يرفع واحد رأسه من أهالي الأقواس التسعة
نهبت كنعان وأصابها الشر
وأصبحت فلسطين أرملة لمصر
وجميع الأراضي أصبحت هادئة
وكل من كان غير مستقر أصبح مرتبطاً بمرنبتاح.

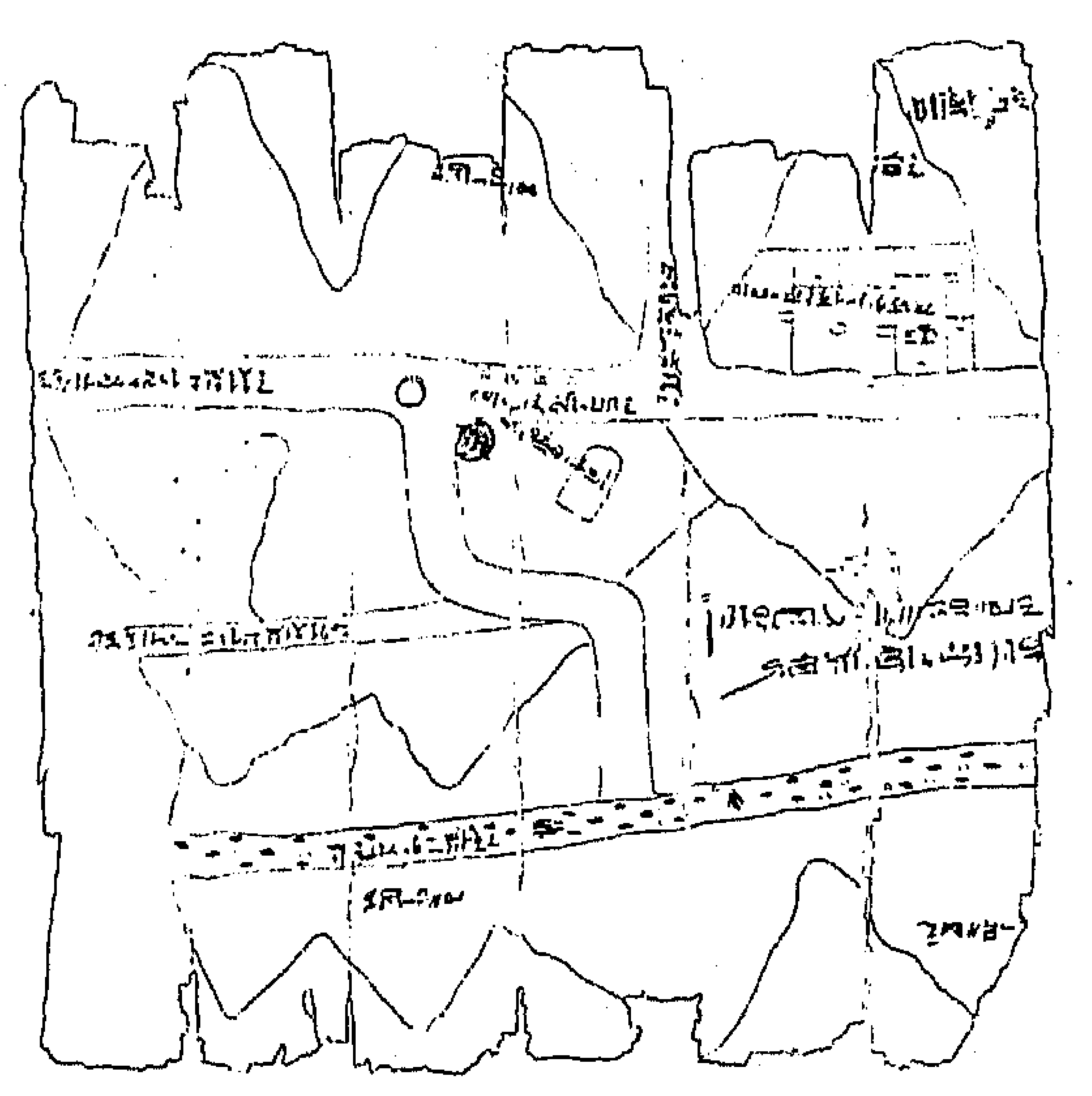
وتروي الكتابات المنقوشة على جميع أسوار معبد مدينة حابو أحداث تلك المعركة الظافرة: قصائد شعرية رسمية تمجد انتصار رمسيس، الذي ظل ماثلاً في الذاكرة لأكثر من ألف سنة تلت، فقد عُثر في معبد ادفو على ذكر لهذه الشعوب القديمة والبعيدة. ومن المدهش حقاً كيف أن كاهناً من معبد «سايس» يعرف جيداً جميع الروايات المتعلقة بهذه الواقعة الشهيرة؟ كذلك العبارة التي تذكر كيف أن جزيرة ابتلعتها الأمواج، لم تكن معروفة منذ الامبراطورية الوسطى وبواسطة القصة المصرية القديمة «الغريق»[١٧]. وبما أن كاهناً من سايس قد أخبر جيرمانيكوس، فقد تصرف على هذا النحو كمؤرخ، باحثاً عن واحدة من الأحداث المجيدة في ماضي بلده، كان قد قرأها على جدران المعبد، أو الموجودة في محفوظات البابيروس القديمة...

والخلاصة: يجب الاقرار بأن التأريخ لم يكن علماً اهتم الكهان بتعليمه، لأن هذا العلم لم يضف معرفة معينة إلى واجبات عباداتهم. إنهم لم يقوموا بأبحاث مكثفة في هذا المجال، ولكنهم وعبر معرفتهم القديمة، بواسطة مشاهد اللوحات الملكية المنقوشة على معابدهم من أجل العبادة، وبسبب ولعهم بالكتابة وتدوين كل مايحصل سنوياً وكل مايمكن أن يسمح لهم بالفهم الجيد للفأل، أو في تحديد الظواهر الطبيعية، كانوا الأنسب والأفضل من أي إنسان، يملك القدرة أمام أجنبي فضولي، على المعرفة، وإضفاء بعض الحياة على ماضيهم السعيد.

الجغرافيا

لقيت الجغرافيا بعض الحظوة لدى المصريين؛ ألم يكن من واجب كتبة المعبد معرفة جغرافية الكون والأرض، ومعالم أرض مصر ووصف النيل؟ ألم يكن ذلك مجالاً مخصصاً للأوساط الكهنوتية؟ نحن نملك الكثير من الوثائق التي توضح

لنـا الأهميـة التي يوليها كتبة الادارة للمعرفة العملية لبلادهم : مصورات أوخرائط (قطـاع منحني لوادي الفـواخير)[١٨] بين نهر النيل والبحر الأحمر، والخرائط الموجودة في حالة يرثى لها من التلف لقطاع «جبلين» ، قوائم بالمدن ، معدَّدة من الجنوب إلى الشمال، أسماء الأعلام[١٩]، جرد الأملاك الكهنوتية[٢٠] والعقارية (بابيروس ويلبـور)[٢١] التي تشهـد جميعهـا على اعـلامية جيدة. ونعلم أيضاً ، أن مستويات الفيضـان كانت مدوّنـة في عدة نقاط ثابتة : عندما كانت مياه النيل ترتفع إلى أكثر من ١٤ باعـاً، فمعنى ذلـك ، أن الفيضـان بلغ حده الأقصى ، والغـلال ستكون وفـيرة : أمـا عندما ترتفع المياه إلى ٨ باعات ، فستحدث عندئذ الضائقة والقحط (سـترابـون) ، كما وُضعت مقـاييس عدة لميـاه النيـل وفي أماكن مختلفة من النهر، لتسجـل ارتفـاع المياه في تواريخ وأوقات معينة من السنة ، وقد امتلأ رصيف معبد الكـرنـك ، بالكتابات التي توضح بالمستوى الأقصى لمياه الفيضان ، في تلك السنة



خريطة لمناجم الذهب في الصحراء الشرقية متحف تورين

وفي عهد ذلك الملك. وأخيراً فإن المسافات والسطوح مقدرة في كل منطقة ومن ثمَّ تجمع النتائج: كان المعبد الصغير الأبيض سيزوستريس يحتوي على قائمة قياسات من هذا النوع. إلى جانب هذه الجغرافيا التطبيقية التي لم تكن من اهتمام الكهان ومع ذلك فإن المعابد والأبنية الدينية قامت من جهتها بقياس مستويات فيضان النيل، واحتفظ كل بلد واقع على النهر بمستوٍ خاص بها ـ هناك إذن جغرافية دينية لمصر، كانت الأوساط الكهنوتية تعيرها اهتماماً كبيراً: معرفة المدن، المسافات، المساحات التي توجد فيه الأرض الجيدة السوداء التي تقدم المحصول الوفير، كذلك فإن معرفة توزع الآلهة في البلاد، وتوضُّع الأماكن المقدسة، وأماكن الحج، وأماكن مؤونة اوزيريس كانت هامة بالنسبة لهم.

وهكذا فقد تمَّ العثور على قوائم للأماكن المقدسة ـ مكان عبادات اوزيريس (رقيم البابيروس رقم **٣٠٧٩**)[٢٢] وقائمة بالآلهة الشبيهة بتلك التي استلمنا بها القوائم الطويلة (جمع لكافة الطقوس) وقوائم بمؤونة اوزيريس الذي يرقد جسده الموزع في عدة أماكن من البلد..

وغالباً مايوجد أفضل من ذلك: رغم كثرة الآلهة المصريين، فإن معظمهم لم يدعّ الكونية (أي إنه إله الكون). وهكذا فإنه من العدل أن نضع في أساسات جدران المعابد مواكب لحاملي التقدمات المرسلة من جميع الأقاليم إكراماً للإله وتقديم الضريبة له عن منتجاتهم.

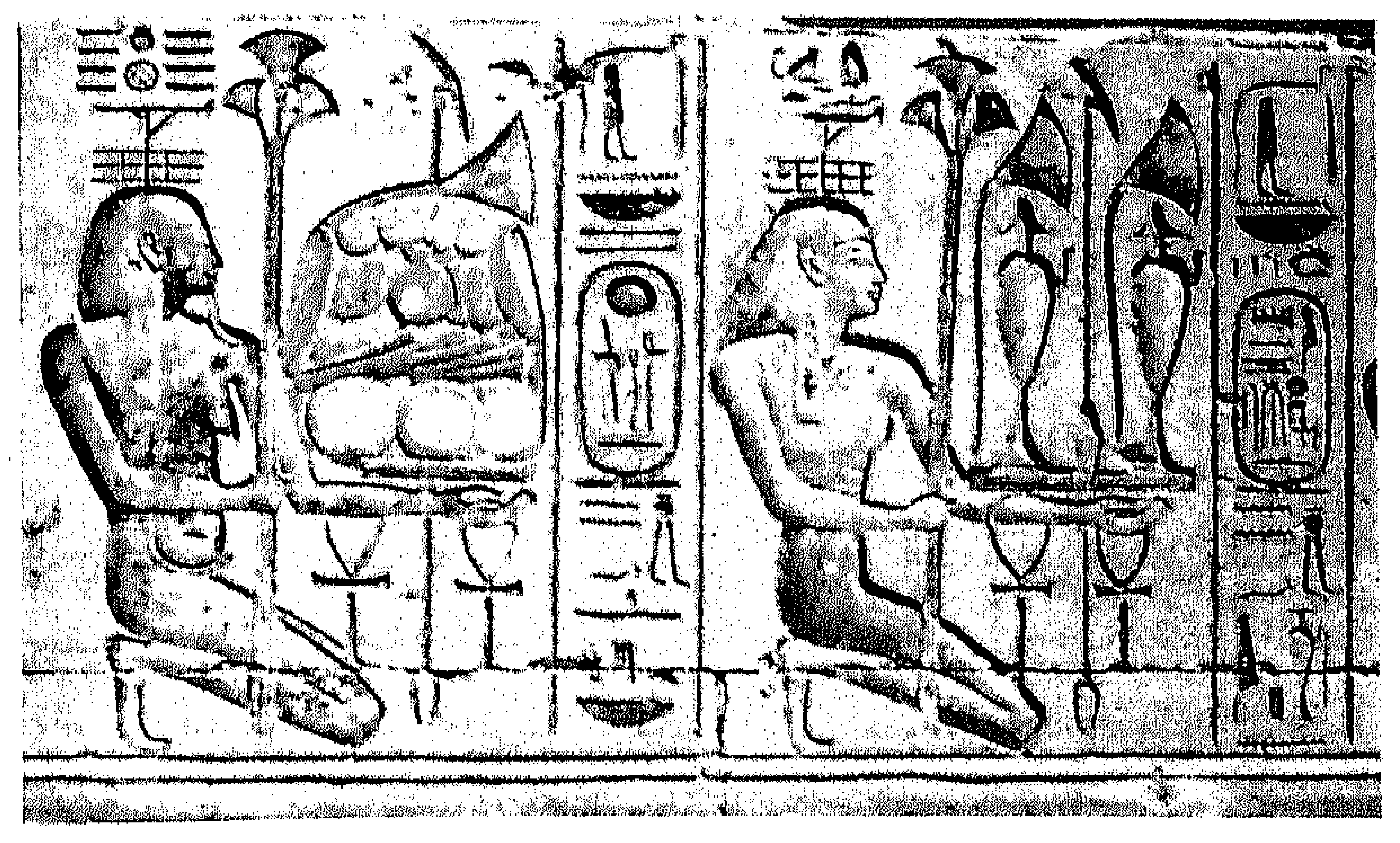
وفي عصر الأمبراطورية القديمة، كانت مصاطب النبلاء مغطاة بمثل هذه المواكب: كانت تملك القرى المبنية للمحافظة على الطقوس الجنائزية الملكية، وتقديم الإنتاج. أما في المعابد الحقب التالية، فقد دخلت المواكب العناصر المخنثة والنساء اللواتي يحملن محاصيل الحقول. لكن وبصورة مبكرة عندما بدأت فكرة التمثيل الرمزي تسيطر على كامل مواكب مصر، كانت الضرائب تأتي من جميع الأقاليم الادارية والدينية، وكل منطقة تُمثَّل بشخصية خنثى «نيل» تحمل على

رأسها شعاراً يدل على اسمها. إلا أن المنتوجات تتنوع حسب موقعها، كانت كل منطقـة متخصصـة بصناعة معينة، بعض هذه المناطق لاتعيش إلا على الزراعة، وبعضها على التجارة الخارجية عندما تكون قريبة من الحدود، أو واقعة على طرق القـوافـل التجارية، وبعضها الآخر يجني الأرباح من استغلال المناجم. والضريبة التي يأتي بها الأخنث «نيـل» يمكن أن تتنـوع حسب الاسم المـذكـور، جميع تلك الملخصات كانت دينية بحتة، لاتذكر سوى الأسماء الجغرافية والالهية المتصلة مع العاصمة اللاهوتية لكل اقليم. وهكذا، تصبح الجداول كتابات رتيبة للجغرافية الـدينيـة. وأهم تلك القـوائم، ماعثر منها على جدار هيكل معبد أدفو[٢٣]، حيث تقدم لنا المواصفات التالية لكل منطقة، والتي تشكل بمجموعها فهرساً مرجعياً:

اسم الاقليم، اسم عاصمته، قائمة ببقاياه

الاله والآلهة المعبودة فيها، ومكان عبادتها

اسم الكاهن الرسمي والكاهنة الموسيقية (المرتلة)



مناطق من مصر تحمل التقدمات معبد رمسيس الثاني في آبيدوس

اسم القارب المقدس والقناة التي يمر فيها.
اسم الشجرة المقدسة التي تنبت على التل المقدس
تواريخ الأعياد الرسمية
ـ المحظور الديني (افعل هذا أو ذاك)
ـ اسم الجزء من النيل الذي يعبر الاقليم ـ ممثل على شكل أفعى ملتوية.
ـ اسم الأرض الزراعية ـ ريف قابل للزراعة
ـ اسم البلد الخلفي المستنقعي.

يسمح هذا الجرد المكرر لكل اثنين وأربعين أقليماً مصرياً، والمؤكد بتقارير موازية من الأقاليم والمناطق الزراعية والمستنقعات بمعرفة كاملة، بالجغرافية الدينية لمصر كما يفهمها الكهان تماماً.

لكن هذه القوائم المفصلة والمنظمة كما تبدو لنا، لم تكن سوى ملخصات لتجميعات فائضة ومُبالغ فيها والتي لا نملك عنها معلومات كافية في موضوعها. ولكننا لنملك مؤشرات تؤكد لنا بأنه يوجد على الأقل في كل أقليم بابيروس يقدم جرداً مفصلاً لجميع أماكن العبادة، المعابد، الأماكن المتميزة والمقدسة في الأبنية الدينية، القصص الأسطورية المتصلة في كل مكان من الأقليم، الأعياد وموارد الأرض المختلفة.

وقد وصلت إلينا وثيقة من هذه المرتبة، إنها بابيروس جوميلهاك[٢٤] من متحف اللوفر في باريس تشرح كل التفاصيل الجغرافية الدينية، وأساطير وقصص السلالة الثامنة عشرة في مصر العليا. ولاشك في أن قوائم الأسماء المقدسة المكتوبة في أحد دهاليز معبد دنديرا مستخلصة من كتاب مماثل مخصص لأقليم «تنتير يت».

وقد حملت قطعة النقوش الحجرية المنحوتة التي وُجدت في مصر السفلى، بعض عناصر جرد موارد الأقليم الثالث في الدلتا. إحدى بابيروس

«تانيس»[٢٥]، تعرض قوائم جغرافية مدونة بشكل متشابه، كما يحفظ هيكل معبد هيبيس[٢٦] يحفظ جمعاً حقيقياً لألوهيات البلاد على شكل سجلات متوضعة وقطاعات جغرافية. وأخيراً كل شيء يحملنا على الاعتقاد، أن نصب المجاعة الذي ذكرنا منه بعض المقاطع[٢٦] جاءنا من مختارات الكتاب المخصص للجغرافيا الدينية لاقليم إيليفانتين. ولنذكر منه بعض المعطيات:

من أجل ايجاد علاج للمجاعة التي استمرت سبع سنوات، أرسل الملك كاهناً لاستشارة محفوظات هرموبوليس، ولدى عودته، قدَّم له الكاهن شرحاً مفصلاً لكل مايمكن اكتشافه في منطقة الشلال، جاء فيه: وصفاً لايليفانتين وتعداد أسمائها الجغرافية ـ النيل والفيضان ـ الإله خنوم، صفاته، أخباره. المنطقة المجاورة: الجبال المفتوحة على شكل مقلع ـ قائمة بأسماء الآلهة الموجودة في معبد خنوم ـ أسماء الحجارة التي يمكن العثور عليها في المنطقة.

لقد جرى كل شيء، كما لو أن الكاهن الرسول، قد وجد في مكتبة هيرموبوليس، بحثاً مفصلاً مخصصاً للمنطقة الأولى لأعالي مصر، وتمكن من أخذ بعض المقاطع منه. كذلك يمكن الافتراض.. بأن كل اقليم لم يكن يملك جرداً مفصلاً لجغرافيته الأسطورية ولموارده المتنوعة، بل إن جمعاً لكافة هذه البحوث كان موجوداً في مكتبة هيرموبوليس الشهيرة، واعتباراً من وثائق هذه المحفوظات، وُضعت القوائم الجغرافية التي تزين جدران الهياكل الكبيرة.

أما المعرفة التي كان يملكها الكهان عن البلاد الأجنبية الواقعة خارج الحدود المصرية فقد كانت بالتأكيد أقل تفصيلاً ودقة.

وغالباً ما استعملت النصوص الكهنوتية أسماء شعوب تقليدية مشيرة مثلاً تحت اسم «**الأقواس التسعة**»، للمناطق المعروفة من العالم المصري، دون الاهتمام فيما اذا كانت الشعوب المعنية موجودة تحت الاسم المستعمل بدلاً من الاشارة إليه كما كان يحدث في العصور الغابرة عندما وضعت هذه القوائم...

وهكـذا جاء في سجـلات في معبد ادفوفي القرن الأول ق . م أن شعوباً صغيرة كانت تعيش قبل حكم رمسيس الثالث بألف عام! . . . . [٢٧].

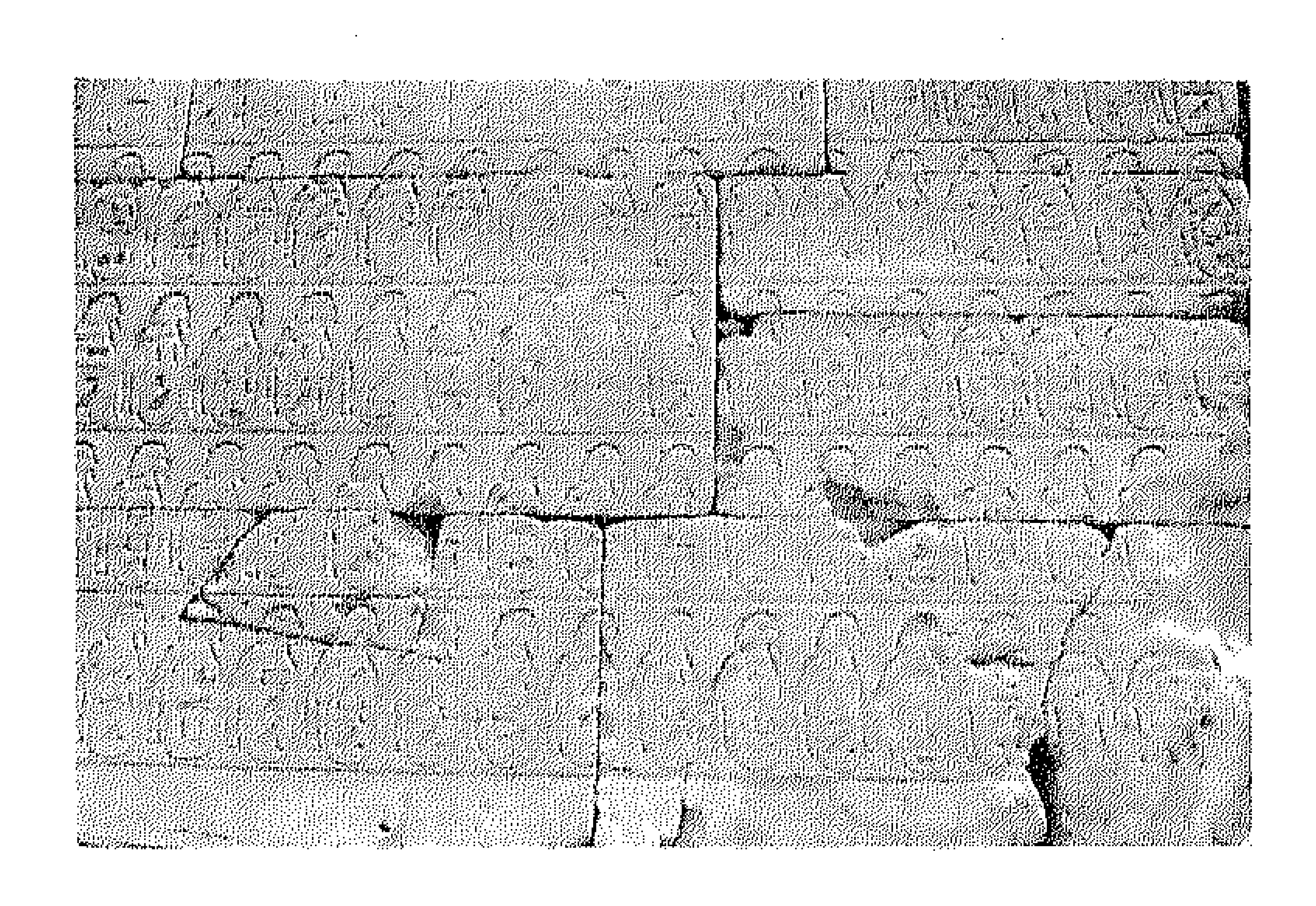
تخيلوا كاهنـاً من القـرن العشـرين، يحذر رعيتـه من شعـوب الهـانس، والفـانـدال، والفيـزيقـوط فإلى جانب عدم مطابقة هذا التخيل للمنطق، بسبب التقليدية المفرطة، فإن الوثائق التي تظهر لنا، بأن الأوساط الكهنوتية، كانت تملك معارف هامة وقيمة حول جيرانهم الجغرافيين، كما كانت تملك قوائم كثيرة تغطي جدرانـاً بأكملهـا في المعـابـد الكبـيرة وقـواعـد الأعمـدة التي تزين مداخل معابد الكـرنـك والأقصـر، للبلدان والمدن التي قهـرهـا آمينوبوليس الثالث، ورمسيس الثـاني، وشيشـونيك الأول، في آسيا وبلاد النوبة. ومن المحتمل أن تكون القائمة التي ترجمها الدلّال العجوز الطيبي إلى جرمانيكوس مشابهة لهذه القوائم.

وبصـورة موازيـة لمواكب الأقـاليم المتجهـة من أطـراف المعبـد إلى مداخل الهيكل، تقف مواكب أخرى للمناطق الصغرى التي ترد من أفريقيا وبلاد آسيا، والمنـاطق التي كانت تصـل منهـا الأحجـار والمعـادن الثمينـة المخصصـة للخـزانة الالهية: فقد حفظت معابد إدفو ودنديرا قوائم هامة من هذا النوع.



أربعة من الأقواس التسعة «أعداء وراثيون لمصر» معبد كرنك.

وأخيراً تأتي النصوص اللعينة المقيتة[٢٨] التي نملك عدداً منها، والتي يمكننا من خلالها تكملة معلوماتنا. فنحن نعلم مثلاً بأن المصريين، كانوا يدونون على الآنية والتماثيل، أسماء الشيوخ الأسيويين والأمراء النوبيين الخطرين جداً على بلدهم. وقد تتعرض تلك الآنية والتماثيل للكسر، أو أنها تخضع لبعض طقوس الاخضاع التي تؤثر على الأعداء المذكورين، فتدمرهم، أو تُبعدهم عن أرض مصر. إلا أن القوائم التي تعود إلى عصور الامبراطورية الوسطى، تشهد على معرفة مفصلة ودقيقة للجغرافية، وأسماء العَلَم الآسيوية والنوبية، ولكن الأشياء المصنوعة من الطين المشوي، والمتعلقة بالاخضاع لم يُعثر عليها في المعابد، إلا أننا نعلم من النصوص والنقوش البارزة، بأن الكهان كانوا يحفظون تماثيل صغيرة من هذا النوع في أبنيتهم المقدسة، ويطبقون عليها طقوس الاخضاع (التمثيل بدمية). ألم يظهر لنا نقش بارز من مكتبة إدفو، كاهناً يحمل عصا منغرسة عبر سلسلة من الطين المشوي؟ وإذا لم يكن مؤكداً بأن التماثيل الصغيرة لم تكن مصنوعة في المعابد، فإننا نعرف على الأقل بأن الكهان كانوا يستخدمون قطعاً مماثلة؛ ومن غير المستبعد بأن تلك المعارف الجغرافية التي تشهد عليها نصوص الاخضاع، قد وزعتها الأوساط الكهنوتية بألقاب مختلفة.



شعوب ومدن أخضعها
توث موزيس
- معبد كرنك

الـفـلـك[29]

إذا كنا قد تمكنا من وضع لوحة دقيقة للمعارف التاريخية والجغرافية للأوساط الكهنوتية المصرية ، فسيكون من الصعب جداً تحديد درجة معلوماتهم في مجال الفلك والهندسة ، إن هذين الفرعين يشذّان عن الإطار العادي للعلوم الانسانية ، ولايمكن معالجتهما إلا من قبل مختصين وخبراء بالحضارة المصرية . والمشكلة الأساسية تكمن في أن هؤلاء الاختصاصيين ليسوا دائماً على رأي واحد ، ومن المخاطرة محاولة إنصافهم . إن هذه السخافات المتعلقة بعلم الفلك والمعارف الهندسية للكهان ، جاءت من قبل مصممين وجمهور متواطىء ، فالعلماء لايوافقون على التطرق لهذين العلمين إلا بقدر كبير من الحذر.

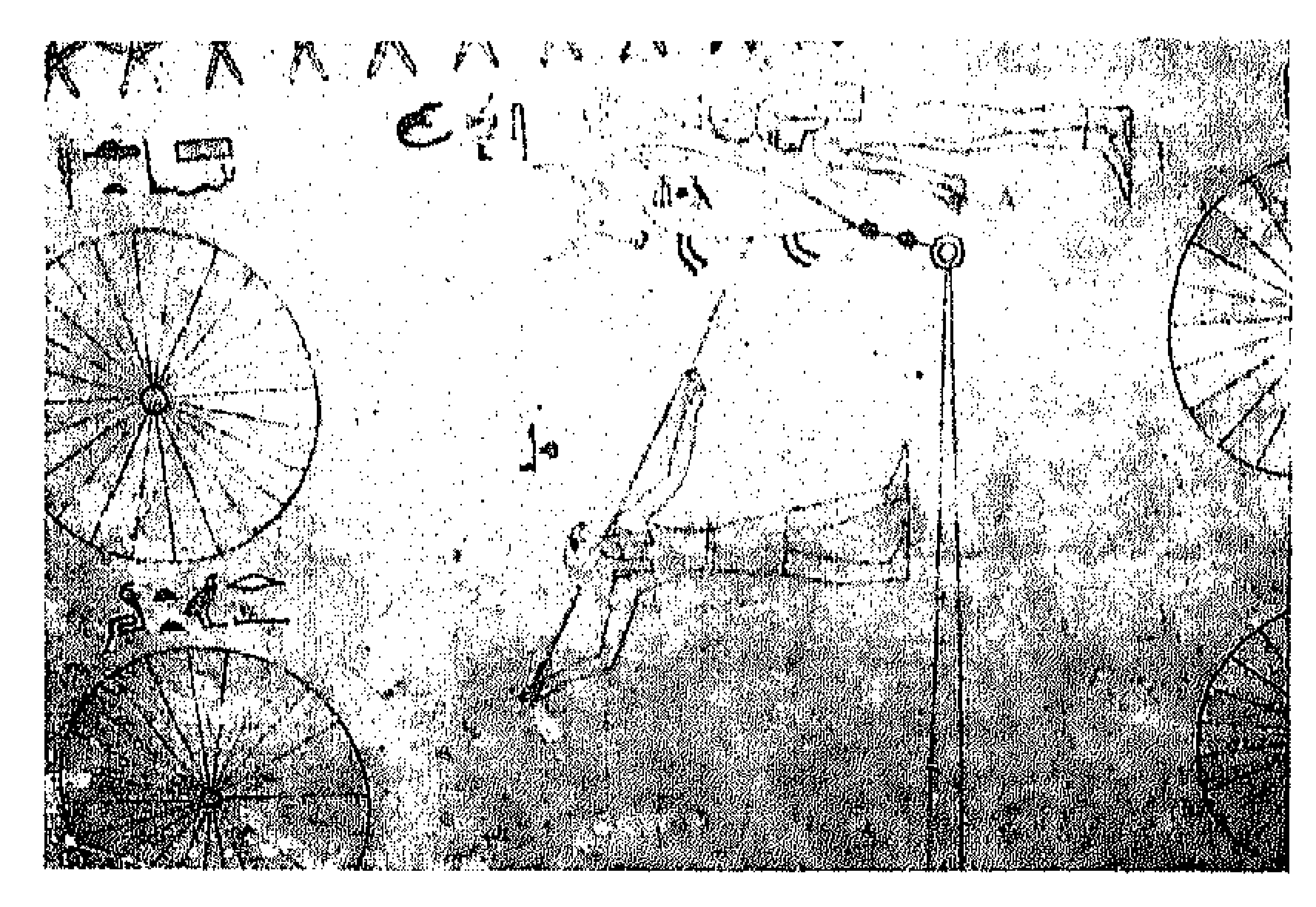
وبالفعل فكل شيء يثبت بأن المصريين قد توصلوا لنتائج جيدة في بعض ميادين علم الفلك ، ويجب ألا ننسى حتى اليوم وبقليل من التفاصيل ، التقويم الذي أشادوه ، ألم نعتمد على تفسيرهم بأن السنة ١٢ شهراً ، واليوم ٢٤ ساعة؟ ومن جهة ثانية فإن الاعجاب الجماعي للمسافرين اليونانيين ، ، والكثير من الوثائق الفلكية الموجودة في مصر ، تؤكد على الأقل اهتمام القدماء بالمسائل السماوية ، واتساع الأبحاث التي خضعت لها . فماذا نستطيع القول بدقة حول معارفهم الفلكية؟ وأي قيمة يجب اعطاؤ ها للنتائج التي توصلوا إليها؟

إذا صدقنا كلمينت الاسكندري ، فإن الكاهن المهتم بالوقت ، يجب عليه الاطلاع على أربع مؤلفات خاصة متعلقة بترتيب النجوم الثابتة ، وحركات القمر ، والكواكب الخمسة ، وإنارة الشمس والقمر ، وصعود الكواكب ؛ يجب على حامل لقب الفلكي حفظ وفهم ثاني هذه الكتب الأربعة . هذه المؤشرات مؤكدة جزئياً ، باللوائح المصرية للمؤلفات الكهنوتية التي تتضمن **معرفة المصريين لدوران الشمس والقمر وحركة الكواكب** .

وكـان المصـريـون يميزون في السماء، إلى جانب الشمس والقمر، كواكب أخـرى تابعـة مثـل عطـارد، والـزهـرة (نجمة الصباح والمساء)، والمريخ (حورس الأحمـر)، المشـتري (النجم السـاطـع) وزُحـل (حوروس الثور). وكانت النجوم مجمعـة من قبلهم على شكـل أبـراج (تختلف عن الأبـراج التي وضعها البابليون) والتي من الصعب التعرف عليها. فقد تمكنوا من تمييز الدب الأكبر (فخذ الثور)، والبجـع (الـرجـل ذو الـذراعين الممدودين) وأوريون (رجل راكض ينظر من تحت كتفه)، وكف الثريا (شخصية ذات ذراعين ممدودين)، والتنين (دجاجة السماء)، والعقـرب، والكبش. وأطلقـوا على النجم سيريـوس اسم سوتيس الـذي كان يلعب دوراً هامـاً في الحسـابـات الـزمنيـة، وصعـوده المتزامن مع صعود الشمس، وأمكن بواسطتـه تحديـد المـدة الزمنية للسنة الحقيقية، (يتأخر يوماً واحداً كل أربع سنـوات عن التقـويم الـذي كان ٣٦٥ يومـاً). إن هذه الأبراج ممثلة تحت الشكل الخاص بها على سقوف الأضرحة «حيث كانت تقوم مقام القبة السماوية المرصعة بالنجـوم على نحـو منتظم»: وعلى فلك الـبروج الذي أخذوه عن اليونانيين في العصور الأخيرة من حضارتهم وتوجد في معبد دنديرا، مثل هذه الصور التركيبية للسـماء، حيث تختلط أبـراج السـماء المصـريـة بشكلهـا التقليدي. مع الكواكب والاشارات ـ مكيفة على النمط النيلي ـ الاثني عشر لفلك الأبراج، وأخيراً الـ٣٦ درجة عشرية.

هذه التقسيـمات العشـريـة للأبراج، على نقيض اشارات الأبراج اليونانية كانت معـروفـة في مصـر منذ الأزل؛ فقد قسموا السماء القريبة من اهليلج الأرض إلى ٣٦ قطـاعـاً، يسهر على كل منها عملاق أوجني، وكل واحد من هؤلاء الجن يسيطـر على عشـرة أيـام من السنة المصرية. في كل عشرة أيام يتم صعود ونهوض الشمس عشـر درجـات، بحيث يسمح ترتيبها لحظة ظهورها أثناء الليل، بوضع جداول زمنيـة لظهـور النجـوم، وبفضـل هذه الجداول، التي يصلح كل منها لمدة

خمسة عشر يوماً، يمكن لمشاهد جالس على مصطبة المعبد أن يحدد ساعات الليل حسب المرور المتتالي للنجوم في محور رؤيتها. وتترك بعض الرسوم الموجودة على القبور الملكية، مجالاً للافتراض بأن المشاهدة تتم بواسطة رجلين موضوعين على امتداد محور شمال ـ جنوب، أحدهما يجلس القرفصاء، ثابت في مكانه كالتمثال، ويُستخدم كنقطة علام للفلكي الذي يدون مرور النجوم حول زميله.



سقف فلكي، ضريح سينموت السلالة الثامنة عشرة.

وهكذا ففي السادس عشر من شهر أتحور تحدد الساعات كما يلي:

عندما توجد النجمة «سار» فوق العين اليمنى للرجل العلام، تكون الساعة الخامسة.

عندما يكون ذراع أوريون في الوسط تكون الساعة السادسة.

عندما يكون النجم أوريون التابع لـ سوتيس فوق العين اليسرى تكون الساعة الثامنة(٣٠).

نفهم بسهولة مما تقدم أن هذه الطريقة قليلة الدقة، حيث من الصعب اللجوء إلى تحديد ميكانيكي للوقت: والحقيقة أن الساعة لم تكن لدى المصريين جزءاً من ٢٤ من اليوم الفلكي، بل جزءاً من ١٢ من الزمن الحقيقي للنهار والليل.



ساعة مائية ـ متحف القاهرة.

ويوماً بعد يوم، تتغير مدة الساعة حسب خط الطول، وهكذا فإن المينا الشمسي مثل الساعات المائية، تتضمن منظومات متنوعة للقراءة حسب أوقات السنة. ولقد عثر أيضاً على جداول دُوِّنت فيها مدة الليل والنهار لمختلف فترات السنة؛ واحد من هذه الجداول كان يستخدم في معبد تانيس، وعلى قدر ما أمكن التحقق من هذه المعطيات فقد تضمنت أخطاء فادحة.

وبالنسبة للكهان، فإن معرفة السماء وآليتها، كان يُستخدم بصورة عملية في تحديد ساعة وتوقيت الاحتفالات، التي تقسم بدقة صارمة مختلف مراحل العبادة. وبصورة أقل كانت تلعب دوراً هاماً في تحديد الجهات الأربع التي بموجبها تقام الأبنية الدينية، فكل أساس لمعبد، ينطلق من مشاهدات سماوية.

ومن جهة أخرى فإن تلاقي الشمس والقمر (الخسوف والكسوف) كان معروفاً لديهم. ألم يُروى عن الكسوف الذي أرعب جنود الاسكندر الذين كانوا يحاربون داريوس الملك الفارسي والذي حاول تهدئة خوف جنوده باللجوء إلى تفسيرات كاهن مصري؟ (كورتيوس روفوس تاريخ الاسكندر جـ ٤ صفحة ١٠).

وأخيراً نعلم عن طريق بعض الوثائق، أن التنجيم، أي الاعتقاد بتأثير وضعية النجوم على قدر الأفراد، قد لاقت خلال العصور السفلى بعض الحظوة في الأوساط المصرية. غير أن كل شيء يثبت، أن هذا الاعتقاد الغريب على العقل المصري، كان مستورداً من خارج مصر. والخاصة المميزة لوثائق من هذا النوع باللغة المصرية جعلتها موثوقة.

أما النجوم المذنبة، التي كان ظهورها يُعتبر نذير شؤم، فهي لم تكن معروفة جيداً لدى المصريين القدماء (سينيك، مسائل طبيعية)، وعلى الأكثر فإن نص تحوتمس الثالث يتكلم عن مرور أحد هذه المذنبات والذي يمكن أن يكون المذنب هالي.

الهندسة وفن العمارة[٣١]

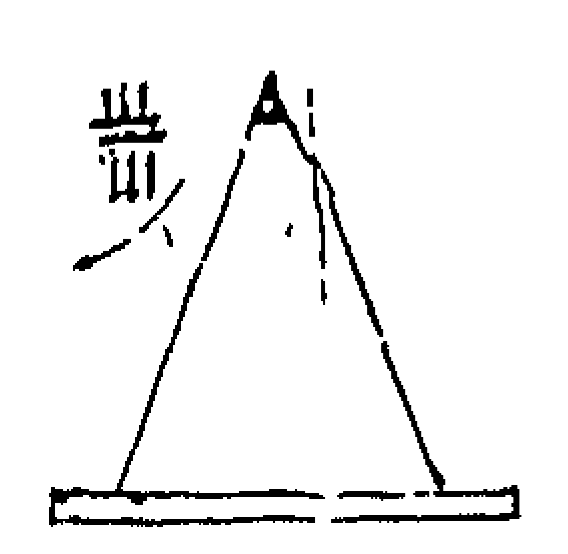
من الصعب التحديد الدقيق لحالة المعارف الكهنوتية المتعلقة بالهندسة. فالتقليد الكلاسيكي، لم يبخل بالاطراء على مهارة الكهان المهندسين ونوعية تعليمهم ومهارتهم. إلا أنه لم يُعثر حتى الآن، على أية وثيقة مصرية كانت. تشرح العناصر المكونة للهندسة حسب تصورهم لها. مقابل ذلك، فإن البابيروس التي وصلتنا «الرياضية»، تمثل تجميعاً للمحصلات الخاصة بهذه المسألة الحسابية، أو الهندسية البسيطة، أكثر من كونها كتباً تشهد على معرفة قواعد الحل: ووسط جميع حالات هذه المسائل التي يعالجونها، تسيطر الطريقة التجريبية والتقريبية بشكل أساسي على أعمالهم. كل شيء يترك المجال للاعتقاد، بأن معارف الحساب والهندسة، كما جاء في الوثائق، اقتصرت على تقنيات وطرق غير تامة التقدير، مهتمة فقط بالحالات العملية التي قد يصادفها كاتب أو مهندس معماري. وتبقى الهندسة النظرية غائبة عن اهتماماتهم.

وهكـذا، ووسـط نقـاش أدبي، يطـرح أحد الكتبة أسئلة معقدة وشجاعة على زملائه حول المسائل الثلاثة التالية:

- كم قطعة من الآجر تلزم لبناء دَرَجٍ أبعاده محددة؟
- ماعدد الرجال اللازمين لنقل مسلّة أبعادها محددة؟
- ماعدد الرجال اللازمين لتفريغ مخزن ما في وقت محدد؟

جميـع هذه المسـائـل تتطلب عمليات حسابية بسيطة، وتنتج عن معلومات قيـاسيـة تجريبيـة أخـذت من نتـائج أعمال سابقة: إن نقل المسلات كان شائعاً في الامـبراطـوريـة الجديدة، وكان لدى الفرق الوقت الكافي لتنظيم النقل عقلانياً: وقـديـماً جداً، كانت التـماثيـل والكتـل الحجرية الضخمة تُنقل بسواعد الرجال، لذلـك يجب على الكتبـة امتـلاك المـراجـع التي تحدد مقـدار اليـد العاملة اللازمة حسب أهمية ووزن الجسم الواجب تحريكه أو نقله.

هذا هو الجـواب المـخيب للآمـال، الآتي من المصـادر الأدبيـة، حول تساؤلاتنا. إذا وجهنا أنظارنا إلى الأبنية فماذا يكون شعورنا؟ انشاءات وأبنية من نوع اهـرامـات، أو معـابـد مصر العليا، إنه شعور ضمني بالتناسق الكامل، وإن هذه الأشكال المعمارية تستجيب لبعض العلاقات في الأبعاد المحددة بعناية. لكن هذه العـلاقـات عنـد العثور عليهـا تظـل بدائية وبسيطة، ولاشيء لأول وهلة، يحصـل من الضـروري تعلق فكـرتها بعالم سري للتعبير عن الروح الانسانية. كما يجب أن يتضمن علم الكهـان في بعض الأحيـان، حسب مكتبـة إدفـو كتاباً حول تزيين الجدران، إذا قدرنا ذلك حسب مخطط المعابد وخاصة تزيينها، حيث أن هذا الكتـاب لايفـرض نظـاماً قاسياً وثابتاً. من النادر جداً وجود معبدين متشابهين، أو سلسلتين من المشـاهد بين جدارين، دون أن نلاحظ فيهما تغييراً طفيفاً. ومقابل ذلـك، فإن المبـدأ العـام لتوضع القاعات والتزيينات، يعرض صفات ثابتة. ومن المحتمـل أن تكـون القواعد من النوع العام هي مواد هذه الوثيقة. ويمكن اعتبار



حساب ارتفاع الهرم - بابيروس ريند .

الأمـر متعلقـاً بترتيبـات خاصـة بهذا المعبـد ، مع رسم قاعاته ، وأبعاده ، وموقعه ، وتفاصيل نقوشه ، وهذا يسمح بافتراض نص بيتوزيريس تحققاً[٣٢] .

نحن متأكدون بأن معبد «هيكت» كان أثنا الطواف مهدماً ، تعرض للحت كل عام من جراء ميـاه الفيضـان ، وهيكله يشبـه مستنقعاً وسط الحقل ، طلبوا من كاتب هذا البنـاء ، الكتـاب المقـدس للمعبد وتبيَّن بعد فحصه ، بأن الدمار وصل إلى نقطة لاينطبق أساسها مع الكتاب المسمى «كتاب معبد هيكيت» .

في كل معبد يوجد مخطط مفصل للبناء والتزيين مشروحاً في بابير وس واحد أو اثنين ، ولكننا لم نعثر على شيء ، يمت إلى هذه الوثائق بصلة حتى الآن .

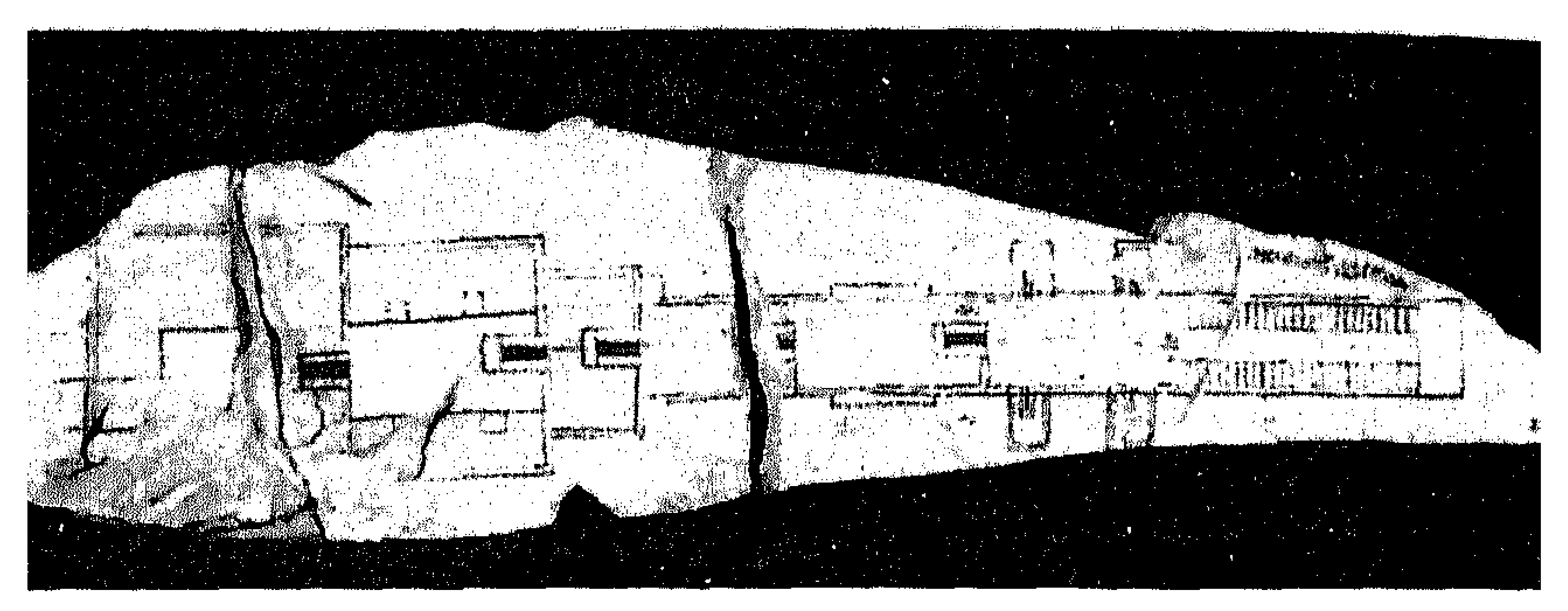
أمـا فيـما يتعلق بالعـلاقـات النسبية للعناصر، فهي بعيدة عن كونها ثابتة . ويمكن العثـور على بعض الـرسـوم المنتظمـة بين تلك المـرفـوعـة عن الواجهات ومخططات الأبنية المقدسة ، كما وجد اختلاف بسيط بين ارتفاع الأعمدة وقطرها ، يتبـدَّل حسب النمـط الـذي تنتمي إليه . هذه الوقائع تظهر تقليداً تقنياً في البناء ، أكثر منه رغبة الاعتماد على مخطط المعبد ، والعلاقات الدقيقة للمقاييس .

هل يمكن القــول ، أن كل تعبــير هنــدسي بعيـد عن هذه الأبنيـة ، وأن دراستهـا من الـوجهـة الدينية يجب أن لا يُفصح عن أكثر من تجميع تقريبي للكتل الصخـريـة؟ بأي طريقـة ورغم أن بدائيـة المعـدات التي استخـدمهـا المهندسون المعـماريـون (خيط الشاقول والزاوية) ، فقد ظلت خاصية البناء رائعة . هكذا كان المعماريون يحصلون على الخط الأفقي الدقيق في قاعدة أبنيتهم ، بحفر أساساتهم

حتى مستوى المياه المتسربة، أو بخلق طبقة مائية اصطناعية في حفرة مبطنة بالطين، ويُرسم مستوى سطحها الأفقي على جوانب الحفرة بخط مستمر يوضح الخط الأفقي انطلاقاً من هذا الرسم الأولي، يمكنهم فيما بعد الحصول على سلسلة قواعد أفقية تماماً، أما الارتفاعات التي ستصل إليها الجدران، فإن المهارة الفنية قد حلت محل المعدات الدقيقة التي لايبدو أنهم على معرفة بها.

نحن نعلم من جهة أخرى، أن التوجيه كان يلعب دوراً كبيراً في رسم أبنيتهم الدينية، وكل أساس يبدأ برؤية كوكب، ورسم المحاور غالباً ماكان متعدداً، وفي مناسبات متنوعة مأخوذاً عن دعامات أساسات الغرف المختلفة. بماذا تتوافق هذه الدعامات؟ وماهي القواعد والأسس التي تحدد توجهاتها؟ من السابق لأوانه التقرير في ذلك. كتاب واحد حديث يعالج التوجه الفلكي، ويأسف لعدم الدقة في القياسات التي يجب العمل بموجبها في كتل الأبنية، ويشير لمخاطر الاستنتاجات التي يمكن أخذها من المخططات غير الكافية. إن عدداً محدوداً من الأبنية أخذت قياساتها بعناية لدرجة أن قراءة مخططها يمكن أن يكون واضحاً كما لو تمَّ تدقيقه على المخطط الأصلي. باستثناء بعض المجمعات الكبيرة، المجموعة الطيبية مثلاً (مدينة طابو، الأقصر، الكرنك إسنا)، وبعضها الآخر الذي سلط عليه المعماريون مجهودات خاصة يجب وياللأسف، الاعتراف بأن الأغلبية الواسعة للأبنية المصرية، كانت قد أخذت بطريقة سريعة أو شكلية لاتكفي بالتعميم لدى فحص موازين ميزاتها المعمارية، فيما إذا كانت هناك قواعد تحدد توجهها وتنقل محاورها. وإذا وُجدت حالة خارج هذا الاطار، فتكون ناتجة عن الظروف المحلية الخاصة.

والخلاصة هي ماقدمته المصادر المصرية: يبدو أن المعارف الهندسية المصرية كانت عامة، إذا ما حكمنا عليها بالنصوص الرياضية التي تركوها لنا، إضافة إلى الأبنية الدينية المدروسة بعناية خاصة، تكتشف عن تقنيات فنية مدهشة، مرفقة



اوستراكون على مخطط ضريح ملكي ـ متحف القاهرة.

برغبـة في التعبـير بواسطـة علاقـات هندسية عن الكتل المعمارية وعناصر البناء مع بعض التوافق والانسجام في العلاقات البسيطة. وأخيراً فإن امكانية علاقات أكثر تعقيداً تبدو حاصلة من بعض القياسات الحديثة ولكنها أقل عدداً من النتائج التي تم الحصـول عليهـا حتى الآن، قبـل التأكـد من دراسات الأبنية الباقية، وإعطاء صيغ للقواعد ذات التأثير العام.

الـطـــــب[٣٣]

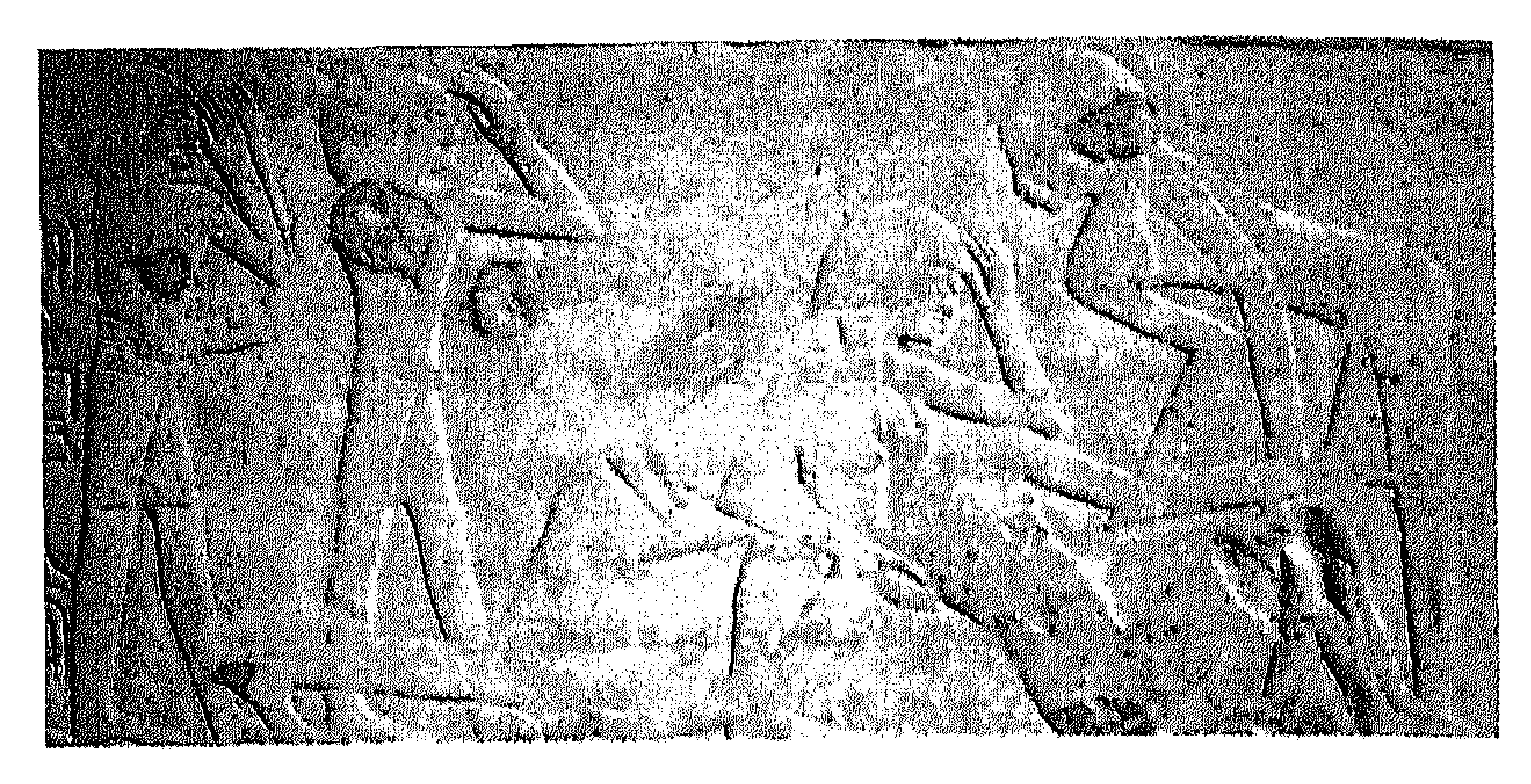
لم نعثـر في قوائم الكتب الكهنـوتية، وفهارس العلم المقدس التي نقلها إلينا كليمنت الاسكنـدري على أسـماء الكتب الطبيـة. ويبدولنا لأول وهلة، أن هذا العلم كان غريباً عن الاهتمامات الثقافية، ولم تمارسه الخدمات الدينية مطلقاً. غير أنه لدينا معلومات مفادها بأن الطب كان يمارس في بيوت الحياة، وهذا مادلَّ عليه نقش بارز في معبد كوم ـ أمبو الذي يمثل مجموعة مختارة من المعدات الجراحية[٣٤]، كما عُثر على بعض النصـوص الطبيـة في اعـداد كبـيرة من البـابـير وس في معبد تبتـونس، إضـافة لذلك، فإن بعض الألقاب الكهنوتية تظهر لنا كفاءة الكهان في

جزء هام من ميادين الطب ونصوص متخصصة كالبابيروس الجراحي لـ آدوين سميث[٣٥] التي تشهد على وجود المعارف والممارسات العملية. لكن الاعتقاد الشائع لدى الفلاحين في أعالي مصر حتى أيامنا هذه ـ يقول: إن الأمراض ترسلها آلهة الرعب سيخميت، عندما لاتأتي من سوء نية بعض الأرواح الفاسدة، والعين الشريرة التي يرميها عدو، . . . وحسب الاعتقاد الشعبي فإن الأمر يتعلق بصورة أقل منه في مكافحة السبب الفيزيائي للشر في حض الشيطان الشرير واجباره التخلي عن فريسته: وليس أفضل الحصول على تلك النتيجة من استخدام صيغة سحرية. . ولايعادل كفاءة في كتابتها سوى بعض العلماء من الكهان القراء، المنكبين على قراءة كتب السحر، والماهرين في خلط كل مصادر السحر القديم: هكذا كان الأطباء التقليديون يمارسون وظيفتهم خارج المعبد سَحَرة في القرى.

وكان بعض الكهان أكثر تخصصاً: فإذا استطاعت سيخميت اللبوة الشريرة الرهيبة أن ترسل الأمراض للبشر، فهي تستطيع أن تستعيدها منهم: هكذا كان كاهنها الكبير سيخميث كان مشهوراً بمعارفه الطبية المتخصصة في أمراض الحيوانات. ويمكن اعتباره بمثابة الطب البيطري في أيامنا.

وفي الوقت نفسه، فإن كاهن سلقيت الإله العقرب، كان قادراً على شفاء الآلام الناتجة عن اللسعات السامة.

أخيراً، من المحتمل أن مستخدمي بعض الآلهة المعالجين، مثل أمنحوتب، الذي أصبح في العصر السفلي وفي التقليد اليوناني «ايمونحيس» ابن بتاح، كانت لديهم بعض المعارف الطبية المتطورة، أوكانوا قد اعتُبروا على الأقل بمثابة القادرين على شفاء الأمراض. . وهكذا نجد أن الكفاءات الطبية المعطاة بفضل التقوى الشعبية للعصور السفلى إلى آمينوفيس ابن حابو المهندس المعماري للملك آمنيوفيس الثالث، قد استغلها الاكليروس التابع له بطريقة



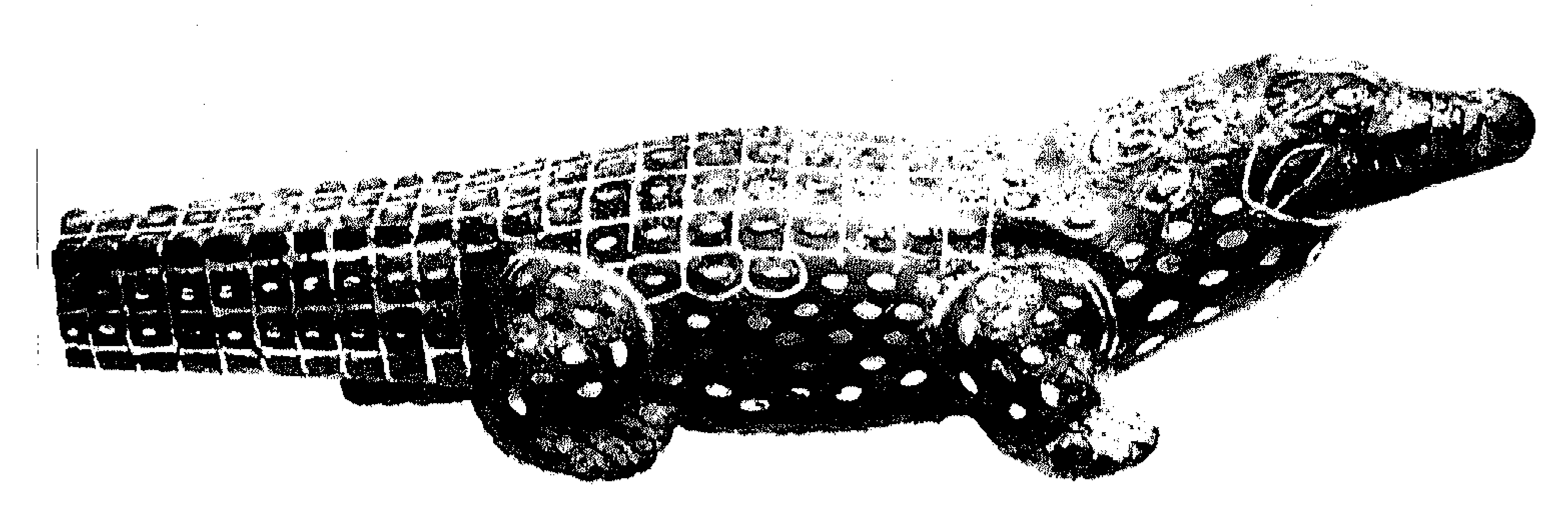
عملية طبية، ضريح انخماهور السلالة السادسة في شعارا.

صناعية: فانتقلت عبادته من معبده الجنائزي المهدم في ذلك العصر - إلى هيكل صغير في معبد دير البحري المؤهل بشكل أفضل لاستقبال المؤمنين. وبفضل شهرة علاجه والعجائب التي قام بها، دفعت بالجرحى والمعوقين بالتوافد إلى معبده الصغير من جميع أنحاء العالم، وكانوا ينقشون على جدرانه رواية شفائهم، أو ذكرى مرورهم. . . . ولقد وجدت بعض المصحات من هذا النوع في مصر في معبد آبيدوس. لكن لاشيء يسمح لنا بالاقرار، فيما إذا كان الايمان فقط - المشجع من دعاية ذكية - يدفع بالعجائب، أو أن الاكليروس التابع، لهؤلاء الآلهة، كانوا يملكون معلومات طبية قابلة لأن تدعم بفعاليتها شهرة معلمهم. ويمكن الملاحظة، بأن التقليد اليوناني يروي أن هيبوقراط ومن بعده غالين قد استوحيا أبحاثهما الطبية من الكتب المحفوظة في مكتبة معبد امحوتب في ممفيس.

علم الحيوان

من وجهة نظر كليمنت الاسكندري، وجب على المتخصصين Stoliste معرفة علم ميزات الحيوان. ويعلمنا هيرودوت عما ينص عليه هذا العلم: فمن أجل أن يستطيع الكاهن تقديم الحيوانات كأضحية، يجب الاعتراف به أنه كاهن كفء، ونقي طاهر: وفيما يلي طريقة الفحص:

إذا تحقق من وجود نقطة سوداء واحدة على جلد الحيوان، اعتُبر الحيوان عندها غير نقي. والمتحقق كاهن مخصص لهذه الغاية، يفحص الحيوان واقفاً ومستلقياً على جنبه، ثم يسحب لسانه من فمه ليتأكد أنه سليم خالٍ من العاهات. ثم ينظر إلى شعر الذيل فيما إذا كان متوزعاً بشكل طبيعي، وإذا تبيّنَ للكاهن بأن الحيوان سليم وغير مصاب بأي عاهة أو مرض فإنه يضع عليه شارة مميزة، وهي قطعة صغيرة من قشر ورق البابيروس على قرنيه، ثم يضع كمية من الصلصال والطين في المكان الذي سيضع عليه خاتمه، يساق بعدها الحيوان للتضحية، وإذا صادف تقديم حيوان غير مختوم، فالعقوبة تستوجب الموت لمرتكب هذا العمل[٣٦].



برونز نذري للإله تمساح (السلالة الثانية عشرة) ـ متحف ميونيخ.

ومن المحتمل أن تكون الحيوانات المقدمة للتضحية عديدة ومتنوعة كالطيور والأسماك والغزلان والثيران، ولكل من هذه الحيوانات شروط يجب توفرها للحصول على النقاء والطهارة. ومما لاشك فيه أن على Stoliste المتخصصين معرفة قائمة الحيوانات الممنوعة وتوزعها في الجغرافيا الدينية للبلد.

والحيوانات الممنوعة كانت كثيرة العدد وهي ماتحكم عليه القائمة المذكورة (٤٥ - ٤٦).

أخيراً، فإن كفاءة الكاهن يجب أن تسطع في ظرف هام في الحياة الدينية للمعابد: مثل تعيين الحيوان المقدس. وأحياناً كما في إدفو وفيلة - يجب اختيار حيوان - هنا الصقر - كل عام ليجسد شخص الإله لمدة اثني عشر شهراً، وفي أماكن أخرى كممفيس مثلاً، كان الحيوان يُختار ويُتوج حتى موته: عندما يموت الثور آبيس مثلاً، يكون قد التحق في الطابق السفلي الكبير في سيرابيوم في سقارة، حيث يُحنط بالمومياء مع أسلافه ويبدأ تفتيش واسع في البلاد لغاية العثور على بديل، وكانت شروط البديل متعددة هي:



صقر للإله حوروس - معبد ادفو.

ولادته من بقرة لم تكن قادرة فيما بعد على حمل جنين جديد في أحشائها. يدعي المصريون بأن برقاً يهبط من السماء على هذه البقرة، ومن هذا البرق تحمل بالثور آبيس. وهذا الثور المسمى آبيس يُعرف بالشارات التالية: أسود، يحمل على جبهته مثلثاً أبيض، وعلى ظهره صورة نسر، شعر ذيله مزدوج، وتحت لسانه يرتسم جُعل (خنفس) (هيرودوت جـ ٣ ص ٢٨).

ومن المحتمل أن علم مميزات الحيوان هو الذي يكشف عن الميزة المقدسة لحيوان ينطبق على القائمة الكاملة للحيوانات الإلهية: واعتباراً من آبيس، الكبش مندس، والثور بوخيس، وتمساح الفيوم، وصولاً إلى الأنواع اللامحدودة من الحيوانات والتي يمكن أن تكون بصفة ما معتبرة ومتميزة بالاختيار الإلهي (بابيروس يوناي لوند).

تفسير الأحلام

تذكر اللوائح اليونانية التي تعدد مختلف أنواع المدارس الكهنوتية «مفسِّر الأحلام». ونعلم جيداً بأنه كان من عادة الكهان المؤمنين، في العصر السفلي النوم في المعبد، بأمل الحصول على حلم مسبق يمكن أن يرشدهم على مايجب فعله، أو يكشف لهم جزءاً من المستقبل. هكذا عمل الساحر حوروس ابن بانيشي في القصة الشعبية التي أخذنا منها عدة استعارات، عندما لم يستطع ايجاد طريقة، يحفظ بها الفرعون من تأثير السحر والشعوذة الأثيوبية.

وعندما لم يكن الحلم اعلاماً مباشراً عن المستقبل، وعندما يجب التفسير في اتجاه ما للرؤية الليلية لحظة الاتصال العجيب، كان من المحتم اللجوء إلى اختصاصي. نتذكر قصة يوسف التي شرحت للفرعون الاعلان عن السنوات السبع العجاف، وسنوات السبع القطاف.. فقد عُثر في بابيروس مقبرة

الأموات في طيبة على كتب تفسير الأحلام، كانت المعطيات مصنفة كما يلي:

إذا رأى انسـان نفسـه في الحلم... وعمودين متوازيين إلى اليسار: يعمل هذا الشيء أو ذاك؛ إلى اليمين: هذا شيء جيد (أو سيء)؛ هذا يعني أن....

وفيما يلي بعض الأمثلة المستخرجة من هذا الكتاب:[٣٨]

إذا رأى رجل نفسه في الحلم

وهو يفتح الخمر = جيد = هذا يعني أنه سيفتح فمه ليتكلم

وهو يجلس على شجرة = جيد = معناه تدمير كافة مآسيه

وهو يقتل أوزة = جيد = يعني قتل جميع أعدائه

يزور بوزيريس = جيد = يعني أن عمره سيكون طويلاً

ينظر في بئر عميقة = سيء = يعني أنه سيوضع في السجن

يأخذ النار = سيء = يعني أنه سوف يُقتل أو يذبح

ينظر إلى قزم = سيء = يعني أنه سوف تؤخذ منه نصف حياته... الخ.

هذه المجموعة تنتمي إلى الامبراطورية الجديدة من العصور الدنيا، ونحن نملك سلسلة مشـابهـة من تفسيرات الأحلام التي تبرهن بأن الطريقة كانت أبعد من أن تنسى: الطرق، مثل طبيعة الأحلام بقيت متطابقة بشكل ملموس.

هذا العلم كان مخصصـاً لأعضـاء الاكليروس... ألم نرى في الـترجمـة القبطيـة للتكـوين، أن الاسم الـدال على المشعـوذين هم الذين استدعوا لتفسير حلم فرعون، وكانوا بالتأكيد، كتبة من بيت الحياة؟

الســحــر[٣٩]

لانـسـتطيـع دون بعض المبـالغـة، أن نصنف السحـر في عداد العلوم الكهنـوتيـة. ومن وجهـة نظـر الكهـان، فإن معـرفـة الصيـغ المناسبة تعطي قدرة

وسلطانـاً غير محدودين على الكـائنـات الحيـة، الآلهـة، والقـوى الكونية. كان الســاحـر كائنـاً خطراً، لم تجعله نجاحاته يتردد لحظة واحدة: **سأغرق الأرض، في لجة الماء، يصبح الجنوب شمالاً**، وتتزلزل **الأرض زلزالاً** . . . . إلا أنه من الناحية العمليـة، نتمنى أن تكـون طمـوحـاتهم أكثـر تواضعـاً. والفعـل الـذي ينتظرونه من المـمارسـات محترمـاً بالطبـع: النظـام الـرائـع الذي وضعته الآلهة للعالم، كان مهـدداً بفعـل القـوى الشـريـرة، الجن الأشـرار، الأرواح المتعطشـة للانتقام من الأموات، القوى الخفية والمتربصة لفعل الشر.

إلا أنه، وفي داخل سر أسرار المعبد، هناك حضور للجوهر الالهي كامن في تماثيله وفي كل شكـل من أشكـال الألـوهيـة المنحـوتـة على امتداد الجدران. هذا الحضور الالهي يتضاءل بالتدريج ويزول، ويفقد شدته، لدرجة أنه في كل عام، يجب أن تشحن صورة هذه التـماثيـل بالقـدرة الالهيـة. . . لأن اقـتراب القـوى الشريرة والمظلمة، تهدد الإله، الساكن في معبده.

كـذلـك فإن المـمارسـات السحـريـة للاخضـاع، كانت تهدف إلى ابعاد الشياطين من المعبد: وتعدِّد لنا اللوائح كتب **القبض على الأعداء وحماية الملك في قصـره**: لنـذكـر الشعوذة الأثيوبية التي تشبعه ضرباً في نومه. ! . . . فكان بحاجة للسحـر لرفـع العـين الشـريـرة. وقـد عثـر خلال التنقيبات على أعداد كبيرة من المؤلفات الكهنوتية من هذا النوع، **كتاب لإضعاف آبوبي عدو رع واوزيريس، وطقس خاص لدفع وإبعاد السفهاء**؛ والطقوس المعروفة جيداً **للصيد بالشباك**، والمتعلقة **بكسر الآنية الحمراء**، التي تضع بالطريقة نفسها القوة السحرية في خدمة الملك والدولة.

هكـذا كان الـوجـه الـرسمي للمـمارسـات السحرية. لكن الآلهة لم تكن الوحيدة المستفيدة منه: فالكاهن القارىء، كان معلماً كبيراً في الشعوذة، يمارس في حياته العادية وظيفة طارد والأرواح الشريرة، ويكتب البطاقات المضادة للحمى،

ولسعــات العقــارب، والأمـراض المختلفـة. وفي بعض المنـاسبـات، كان يعـد الاغراءات التي توقع في شباك الحب.

اعمـل من أجـل أن تتبعني فلانـة كما يتبـع الثور علفه، كالخادمة التي تتبع أولادهـا، كما الـراعي الـذي يتبع قطيعه. أما الفاتنة الجميلة فهي تملك الحجاب (التميمــة)، الـذي كان دوره مجرداً من الابهـام: **ارفـع رأسـك والـزم، من أراه يصبح عشيقي! . . .**

إن مجال السحر وتعدد طرقه كان غير محدود، ولنذكر مجالين هامين وغريبين



تمثال لامرأة شافية جرهور المخلص ـ متحف القاهرة.

نوعـاً ما ، حيث اعتُبر كهـان مصـر معلمـين بارعين فيهما : الأول سيدهش الذين يعـرفـون منـاخ مصـر ، واللون الـلازوردي الذي لايتغير لسمائها : إنه فن اسقاط المطر؛ تذكر بعض الوثائق وتؤكد أن السحرة يمكنهم بواسطة تعاويذهم السحرية أن يثيروا العاصفة ، ومشهد حرب من مارك اوريل . وإنقاذ الجيش الروماني من الهـزيمـة بفضـل المطـر العجيب الـذي أسقطـه هارنـوفيس «المختص بقـواعـد الهـير وغليفيـة في مصر» الذي يأتي بصورة غير منتظرة ليؤكد هذا التقليد . والثاني طريقة التأليه (التحويل إلى إله) بواسطة وعاء مملوء بالماء ، ومغطى بطبقة رقيقة من الـزيت ، حيث يركـع أمـامـه طفـل يستخدمه كوسيط . ويأمر الساحر الطفل فتح عينيـه : فإذا رأى ضوءاً في المـرآة الـزيتيـة فإن الاتصـال قد تمَّ مع الآلهة : ويمكن عندها ، الكشف عن أسرار المستقبل ، واحداً تلو الآخر .

العقـاقيـر والـصيـدلـة[٤٠]

رغم أن العقـاقـير والصيـدلـة تتطلبان تقنية خاصة ، فيمكننا إضافة بعض الـوصفـات من العقـاقـير إلى المعـارف الكهنـوتيـة . تذكر مكتبة إدفو اسم كتاب يتضمن جميع أسرار المخبر ، أي الوصفات التي تسمح بصنع المراهم والعطور التي تُدهن بها رؤوس الآلهة لتجلب لهم السعادة والنعيم . إلا أن المعابد ، كانت تحوي أحيـانـاً مايشبـه الصيـدلية ، المستخدمة كمخزن للمواد المعطرة والروائح الذكية . (كـرنـك السـلالة الثامنة عشر ، اسنا ، العصر الروماني) . ففي معبد إدفو غرفة من الحجر كان يطلق عليها اسم المخبر ، جدرانها مغطاة بالوصفات الهير وغليفية التي تشـرح طريقـة تحضـير مختلف أنـواع العطور الطقسية ، والمواد الأساسية ، ومقادير الخـلائـط ومـدة الطبـخ والتبريد . . أحد هذه الوصفات المفصلة بصورة خاصة ، تسمح بصنع نصف ليتر من مستخلص نقي ناعم لبني صمغي .

يجب اقتناء المواد التالية :

- بخور ناشف من الصنف الأول ١٠١٠ غ
- قشرة شجر من الصمغ اللبني من النوع الأول ٦٠٠ غ
- نعنع عطري ٢٥ غ
- اسفلت (مستخرج من خشب اللبلاب العطري) ١٠ غ
- عجينة (من حبوب شجر البطم) ١٠ غ
- حبوب البنفسج (؟) ١٥ غ
- نبيذ عالي درجة الكحول ١٥ غ
- ماء ٥, ٠ ليتر
- عصير الخرنوب ٥٧٥, ٠ ليتر

انطلاقاً من هذه المواد، وبعد إجراء ثماني عمليات متتالية على مدى نصف عام، وبعد عمليات من المزج لاحصر لها بطريقة الطهي والترسيب، يمكن الحصول على كمية قليلة من الطيِّب. ويجب توفر العناية والصبر الطويلين لتحضير هذه العطور الرفيعة المستوى، والشديدة النفاذ والتي تُرش على التماثيل خلال مراسيم الطقوس والعبادة. ولكننا لانعلم ماإذا كانت النتيجة تبر ر هذا الوقت من العناء.

الآداب(٤١)

يتضح لنا، انتقالاً من التاريخ إلى صناعة الأدوية، مروراً بالجغرافيا، والفلك والهندسة والطب والسحر، بأن مجالات العلم الكهنوتي كانت واسعة ومتنوعة. فبعض هذه العلوم والتقنيات من مهام الاختصاصيين؛ كل كاهن ـ وقد أظهرنا العدد الكبير من الوظائف والكفاءات التي تغطيها هذه التسمية العامة

جداً ـ كان يملك بعض عناصر هذا العلم، المتعلق بالدور الذي كان مطلوباً أن يلعبه في العبادة الالهية. والقليل من الرجال كانوا يتفاخرون بامتلاكهم جميع العلوم. إن مفهوم التخصص في المعارف هذه أصبح مكتسباً ومسلماً به ولا يمكن مناقشته، ولكن مع ذلك يظل مختلف رجال الاكليروس متصلين مع بعضهم بشيء ما أعمق من التلاقي الخارجي للمهام والوظائف. وفوق الاختصاصات العملية التي كانت تميزهم، فقد نشأ نوع من الثقافة العامة الدينية والذهنية التي يجب أن يتزود بها جميع القائمين على أعمال العبادة ـ على الأقل بين الاكليروس الأعلى ـ هذه الثقافة ناشئة بالطبع عن الاهتمامات المشتركة والتأملات حول المسائل الفلسفية والدينية نفسها وقراءات النصوص القديمة، المؤلفة من تركيب بعض الفروع والمجالات التي فحصناها، مدعومة بوعي الكهان الذين يدعون انتماءهم إلى مجموعة متميزة حارسة ومترجمة للتقليد. هذه الثقافة الكهنوتية كانت دون شك رائعة وشاملة، وتحظى لدى المتمتعين بها بطموح وفضولية ذهنية دائمين. ومن وجهة النظر هذه، نستطيع التحقق من أن الاهتمامات الأدبية لم تكن غريبة على الخدم المقدس للمعابد. ودون شك فإن مكتبات الهياكل لم تكن لتملك النصوص المدنَّسة؛ فالعامل لا يصطحب معه الرواية إلى المعمل! ولكن، خارج أوقات الخدمة الالهية كان الكهان يؤلفون رواياتهم المفضلة لديهم في الوقت المناسب. وهكذا فإن محفوظات تيبتونيس قدمت لنا نسخاً على البابيروس عن العمل الكبير لـ **بينوباستيس** على غرار رواية ساتني. وعندما تسنح الظروف، فإن كتبة بيت الحياة، المناوبون من رجال الأدب والعلم وبحكم وظيفتهم، كانوا يقومون بعمل أساسي: هكذا نعلم منذ بعض الوقت، بداية نص تعليمي من الامبراطورية الجديدة كان من تأليف رجل من الاكليروس يدعى «**آمينّاخت**». أخيراً فإن المقطوعة الأدبية المتعلقة بالخلود والتي عُثر عليها في تيبتونيس(٤٢)، تظهر أن تحرير مثل هذه الكتابات، الشائع لدى الكتبة العلمانيين، لم يكن مقتصراً على

الأوساط الكهنوتية. ولا يخالجنا الشك بأن نصوص بيتوزيريس وعناوين اكليروس إدفو التي أوردنا مقتطفات منها، كافية لتقدم لنا الثقافة التي نطمح لمعرفتها.

لقد مرّت عصور وفترات، لم يكن فيها العلم الكهنوتي - باستثناء بعض الميادين النادرة - إلا انعكاساً للعلم الشائع، كعلوم التقنيين والكتبة والحكماء من المجتمع المصري. وقد يحدث أن بعض الوثائق العلمية الهامة جداً - وحتى نصوص من اللاهوت العلماني - صدرت عن أوساط غريبة عن المعابد.

إلا أنه وبعد مرور الزمن، نصل إلى جمع الأوساط الكهنوتية للميراث العلمي المصري: التغيير العميق مع السيطرة اليونانية، لظروف حياة الخدمة الادارية، ومنها المدارس التي كانت في السابق مراكز ثقافية؛ والانسحاب التدريجي نحو المعابد، لكل مابقي مما هو تقليدي ووطني في مصر، ساهمت معظمها في جعل الكاهن المصري ليكون المثل النموذجي للعالم، ورجل الأدب. هذا مايؤكده لنا الرحالة اليونانيون وبعض المؤرخين العرب الذين يرددون هذا التقليد الجدير بالمديح. وهكذا بالاضافة للفكرة العالمية التي أدركوها عن المعارف الكهنوتية، يمكن القول بأن هذا العلم لم يكن عملية وصف للتقنيات، بل تعني بشموليته كما من ناحية الأفكار الفلسفية والاخلاقية التي قدمها، أنه ينمُّ عن ثقافة حقيقية رائعة وقيِّمة.

هوامش

١ ـ ب. بارغيت: نصب المجاعة في سبهيل، القاهرة ١٩٥٣، وج. فانديه: المجاعة في مصر القاهرة ١٩٣٦

٢ ـ مجلد ب. بارنبي: كتاب الأموات للمصريين القدماء. باريس ١٩٧٦ انظر العنوان ص ٧٥ ـ ٧٦

٣ ـ ساندر هانسن: نصوص مترنيخ، نجدها في الترجمة الفرنسية بعنوان السحر في مصر القديمة باريس ١٩٢٥ صفحة ٦٦ ـ ٨٢

٤ ـ ف. دوماس دنديرا، معبد هاثور، نشرة موجزة القاهرة ١٩٦٩، حول تأسيس المعبد هـ. ي. عامر تاريخ بناء المعبد الأكبر هاثور في دنديرا في العصر اليوناني الروماني. ١٩٨٣ ص ٢٢٥ ـ ٢٥٨

٥ ـ بابيروس ساتني خايمواس ونينوفاركبتاح «بابيروس محفوظة في متحف القاهرة م. ليشتهايم، الأدب المصري القديم بركلي ١٩٧٦ ص ١٢٧

٦ ـ بابيروس سينوزيريس ابن ساتني من العهد الروماني محفوظ في المتحف البريطاني.

م. ليشتهايم: الأدب المصري القديم: بركلي ١٩٧٦ الترجمة الفرنسية: السحر في مصر القديمة باريس ١٩٢٥ صفحة ١٩٨ ـ ٢٠٦

٧ ـ م. آليوت: جـ ٢ صفحة ٧١٢

٨ ـ الكتابة التي تعود إلى ٢٤ آب ٣٩٤ م ملقاة على رصيف هادريان في فيلاي.

٩ ـ انظر. س. سونيرون: الكتابة التصويرية في نصوص اسنا، القاهرة ١٩٨٢

١٠ ـ حول بيوت الحياة، انظر الملاحظة رقم ٥ صفحة ٦٦

١١ ـ حول معبد ادفو: م. آليوت جـ ١: صفحة ١٤٦ ـ ١٤٩

١٢ ـ لنذكر بأن هذا التقسيم لسلالات التاريخ المصري المعتمدة من مانيتون، والتي أبقى عليها العلماء المهتمون بالحضارة المصرية.

١٣ ـ هيردوت

١٤ ـ على القوائم الملكية انظر مقال «ي. دريوفون» و«ج. فانديه» في كتاب: مصر منذ البدء إلى غزو الاسكندر باريس ١٩٧٥ صفحة ١٥٩

١٥ ـ هيرودوت ج ٢ صفحة ١٤٢

١٦ ـ ن. ك. ساندارز. ممالك البحر المتحاربة في المتوسط القديم. لندن ١٩٧٨

١٧ ـ ج. لوفيفر: روايات وحكايات ص ٢٩ ـ ٤٠

١٨ ـ بابيروس متحف ثورين: مناجم الذهب، وادي حمامات ١٩٤٩

١٩ ـ آ. هـ. غاردنر اسماء العلم لمصر القديمة لندن ١٩٤٧

٢٠ ـ ي. ايريشن: بابيروس هاريس بروكسل ١٩٣٣ قوائم اعلام بالأراضي والعقارات.

٢١ ـ محفوظة في بروكلن ونشرها ا. هـ. غاردنر.

٢٢ - هيكل : ورقتين جنائزيتين لنسمينا بروكسل ١٩٧٠
٢٣ - انظر الملخص الخاص: النص الجغرافي الكبير في ادفوج ٤ ص ٤٥
٢٤ - جوسيلهاك محفوظة في اللوفر نشرها ج فانديه باريس ١٩٦١
٢٥ - بابير وس جغرافية (تانيس) محفوظة في المتحف الانكليزي نشرها. ن. ل. غريفيت لندن عام ١٨٨٩
٢٦ - ل. غاريس ديفيس. معبد هيبس في الخارجة نيويورك ١٩٥٣
٢٧ - انظر الملاحظة صفحة ١٢٦
٢٨ - ج. بوزسر: أمراء وبلدان من آسيا والنوبة. نصوص محفورة بالهير وغليفية على تماثيل طينة للاخضاع. بروكسيل ١٩٤٠
٢٩ - نيجابور وباركر: نصوص فلكية مصرية، لندن ١٩٦٠ - ١٩٦٤
٣٠ - هذه الجداول الزمنية وردت في القبور الملكية للسلالة العشرين (رمسيس السادس، السابع، التاسع) انظر ي. ايرمن، وهـ. رانك: الحضارة المصرية باريس ١٩٦٣ ص ٤٥٠ - ٤٥٢
٣١ - أ. بدوي: الرسم المعماري لدى المصريين القدماء. القاهرة ١٩٤٨
ي. كيللاند: الهندسة في الفن المصري: لندن ١٩٥٥
٣٢ - ج. لوفيفر: لوح بيتوزيريسن ج١ صفحة ١٠٥ - ١٤٢ - القاهرة ١٩٢٤
ج٢: صفحة ٣٧ و٥٧ - ٥٨ القاهرة ١٩٢٣
٣٣ - آ. ب. ليكا: الطب المصري في عصر الفراعنة باريس ١٩٧١
٣٤ - معدات للجراحة في كوم امبو. آ. ب. ليكا شكل ٨٤ صفحة ٣١٤
٣٥ - ج. بريستد: البابيروس الجراحي إدوين سميث شيكاغو ١٩٣٠
٣٦ - هير ودوث مجلد ٢ ص ٣٧
٣٧ - سونير ون: الأحلام وتفسيرها في مصر القديمة: مصادر شرقية باريس ١٩٥٩ ص ١٧ - ٦١
٣٨ - نص مستخرج من بابير وس شيستر بيتي المحفوظة في متحف انكلترا (١٠٦٨٣)
انظر سونير ون: الاحلام صفحة ٣٣ - ٣٦
٣٩ - ف. ليكسا: السحر في مصر القيمة المجلد الثالث باريس ١٩٢٥.
س. سونير ون: عالم الساحر المصري، مصادر شرقية، باريس ١٩٦٦ ص ٢٧ - ٦٥
ج. ف. بورغوث: النصوص المصرية القديمة المتعلقة بالسحر ليدي ١٩٧٨
٤٠ - هـ. فون دنيس، هـ. غرابو: العقاقير والصيدليات في مصر القديمة برلين ج ٥٠ ١٩٥٩
٤١ - ماسبير و: الحكايات الشعبية في مصر القديمة، النشرة الأخيرة، باريس ١٩١١
-ج. لوفيفر: روايات وحكايات مصرية من العصر الفرعوني باريس ١٩٧٦
ي. ك. سيمبسون، س. و. فولكنر، ي. ن. وانت: أدب مصر القديمة.
٤٢ - البابير وس المشار إليها محفوظة في متحف ليدي. انظر ب. آ. آ بوسر.
م. ليشتين: الأدب المصري القديم: بركلين ١٩٧٦ صفحة ١٨٤ - ٢١٧



باكنخوتسن: الكاهن الأكبر لـ آمون في كرنك ـ السلالة ١٩ ـ متحف ميونيخ.

٦

سعادة ومآسي رجال الدين في مصر

لقد تحدثنا طويلاً عن الكهان المصريين: وبعد هذه الفقرات حول الدراسة الوصفية للمجتمع الكهنوتي، فقد حان الوقت لكتابة شيء من التاريخ، والحديث عن رجال الدين في مصر. إن ماذكرناه عن سلك الاكليروس وشروط الانتساب إليه، وعن الحياة الدينية والأخلاقية للكهان وعلومهم، كل ذلك يشكل تركيباً صحيحاً وواضحاً بشكل عام، لكنه تركيب توضيحي مصنوع من عناصر كثيرة، مستعارة من كافة حقب التاريخ، فهو يقدِّم صورة متوسطة للطبقات الكهنوتية، صالحة ومقبولة من الناحية الاحصائية، لكن لامجال فيها للتفاصيل الفردية أو التبدلات التي جاء بها التاريخ. هذه الرؤية المستقبلية حول العالم الاكليريكي هي ماسنحاول التطرق إليها.

لاشيء أكثر غرابة إلى ذهن المصريين من فكرة امكانية فصل الدين عن الدولة. فلم يكن الدين لديهم ظاهرة خاصة يمكن أن يضفي عليها الاختيار الفردي أهمية متفاوتة: وكما في الأزمنة البعيدة للجماعات ماقبل التاريخ، فقد ظل الدين يشكل أساس البنية الفعلية الاجتماعية والقومية التي تتمثل قيادتها بأيدي الملك. كذلك فإن مصير الاكليروس وغنى الآلهة مرتبطان بشكل وثيق في الظروف السياسية.

وعنـدمـا بدأت الجـماعات في فترة ماقبل التاريخ بقليل، بغزو البلاد كانت كل جماعة تعمل بقيادة زعيمها وحماية إلهها، وانتصار المجموعة يؤكد قوة وسلطان الإله ويزيد من مكانته وعزته.

فالامـبراطـوريـة السيـاسية للملوك كانت تتسع وتقوى مع القوى الروحية للالهـة. ولكن كيف يمكن مكـافأة ألـوهيـة ما بشكـل أفضـل، وتشجيعهـا على استمـرار رعـايتهـا دون إغنـاء معـابدها ومضاعفة عدد خدمها؟ إن البلاط الملكي يحظى بالترف والنعيم بعد كل توسع في الغزوات، ومثله الاله في مجاله الدنيوي. فالأرض كما هو معروف ملك للملك يُمنح الاله جزءاً منها، ويضمن الحياة المادية للاكليروس التـابـع له، وانتظـام تقـدماته، وبالتالي استمرار الاله في دعم وتقوية المصير السياسي للسلالة الملكية.

لنتذكر الحادثة المؤثرة لموقعة قادش.. بينما كان رعمسيس محاصراً ومهجوراً من قبل اتباعه فاستنجد على الفور بأبيه آمون:

آمون أبي، ماالذي يحصل إذن؟

هل يترك أب ابنه؟

ألم أقم لك العديد من المباني

ألم املأ معبدك بالأسرى؟

من أجلك شيـدت معبـدي منـذ ملايـين السنـين، ووهبتـك حقاً، كامل أملاكي

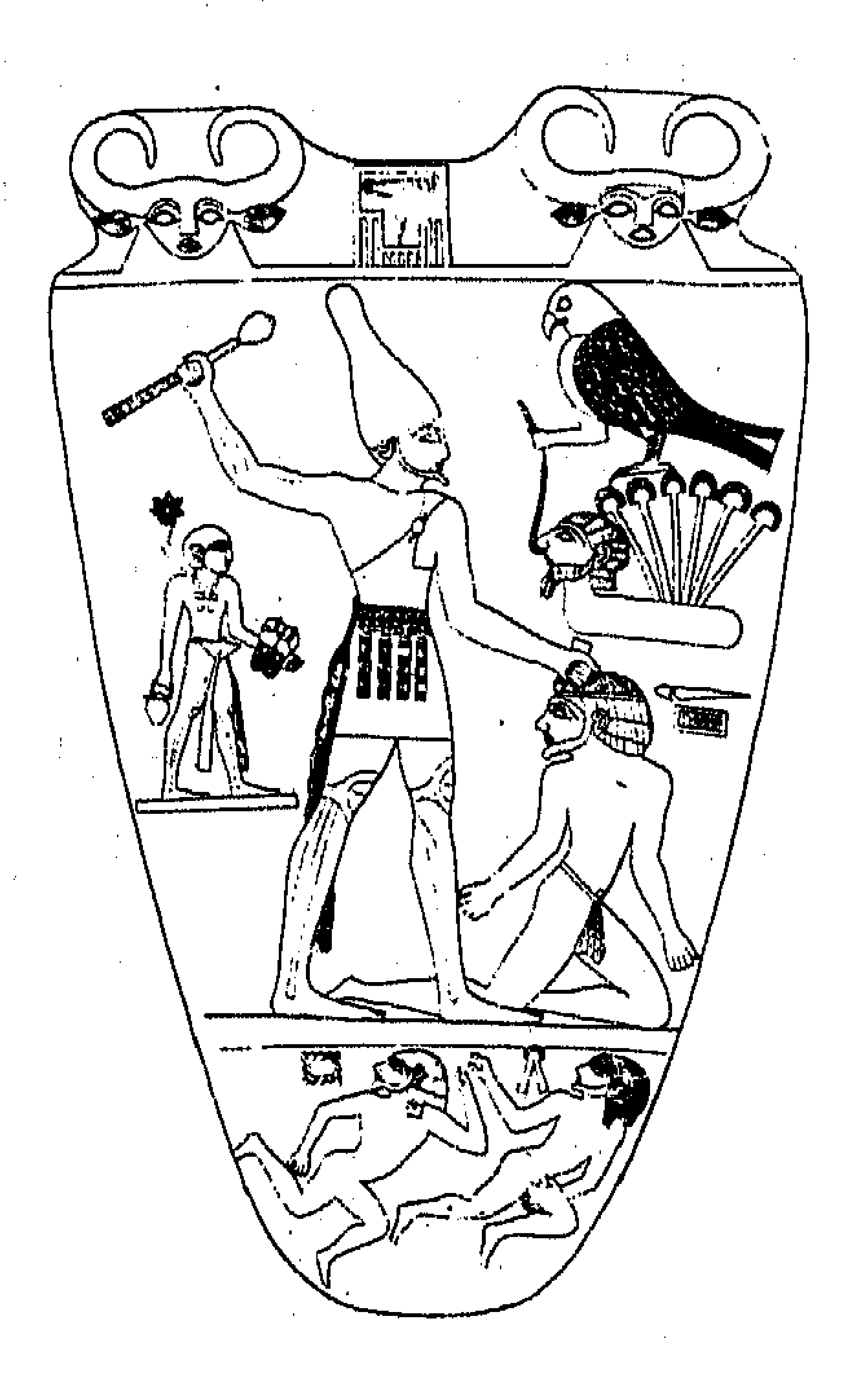
أكـرس جميـع البلدان الأجنبيـة وخيراتها. خدمة لتقدماتك، وأعمل على تقـديم عشـرات الألـوف من الثـيران، وأنـواعـاً لاتحصى من النبـاتات والعطور المنعشة لمقامك.

لم أتـرك شيئـاً جميلاً، إلا وفعلته في هيكلك، لقد رفعت لك دعامات كبيرة جداً ورفعت بنفسي صواريها وراياتها.

أحضرت لك المسلات من ايليفانتين
أنا الذي نقل الرمل والحجارة من هناك
من أجلك دفعت بالسفن على بساط أخضر
من أجل أن أحمل لك الضرائب من بلاد البرابرة
سيُدهش إذا ماحصل مكروه لمن ينحني أمام ارادتك.
افعل الخير لمن يخدمك، وسنخدمك بحب![1]!

يغني الملك للإله في ممتلكاته الدنيوية، مقابل ذلك يساعد الاله الملك في أعماله العسكرية: سيظل رضى الآلهة وغناها المادي، مرتبطين بالنجاح السياسي للملك.

مقابل ذلك، يُعتقد أن الغنى اللامحدود للاله على المدى الطويل، يمكن أنْ يشكل تهديداً للسلطة الملكية، هناك فترات في عهد الامبراطورية الجديدة، كان فيها اكليروس آمون أغنى وأقوى من الملك نفسه: (الاحصائيات المنقولة عن



لوحة نارمر (مينيس)
الملك يعتمر تاج مصر العليا،
يبطش بخصومه
متحف القاهرة.

بابيروس هاريس واضحة في هذا المجال) : فأكثر من ثمانين ألف رجل وألفي كم[٢] من الأرض تخص اكليروس الالــه الطيبي . . . . فالالـه يتحكم بالملك ويضبمن النصــر لسـلالتـه ، ويمـد انتصاراته إلى حدود العالم المعروف ، ولكن الملك مقابلَ ذلك ، يتقاسم مع الاله ـ وخاصة مع الاكليروس التابع وجشعه ـ ثمار هذه النجاحات .

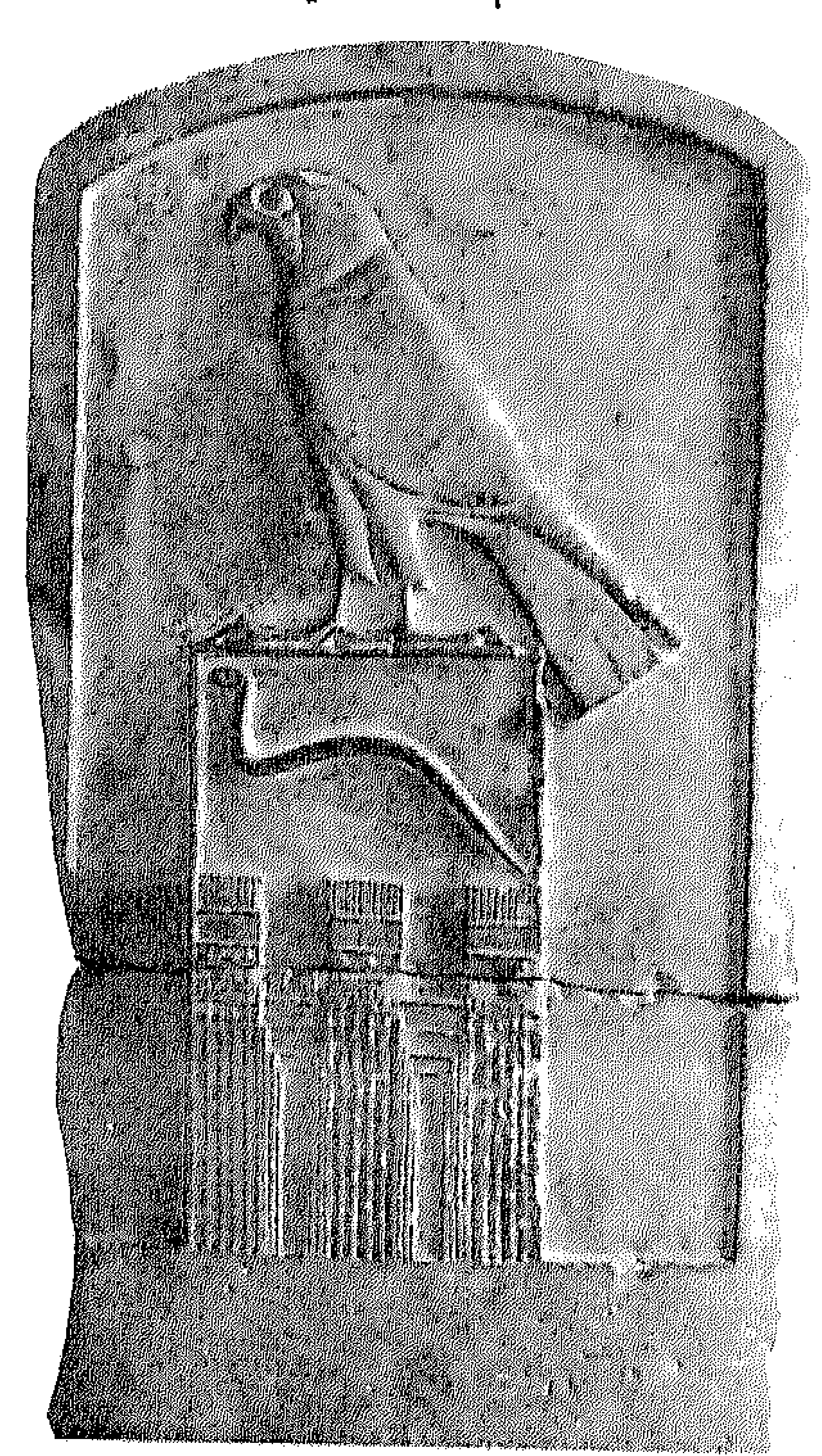
وهكــذا يتصف تاريـخ مصــر الـديني بكـافة حقبه ، بموقف رسمي مزدوج للملوك ، متنـاقض ظاهـريـاً : اعتبـار الالـه المنتمي للسلالة كحليف ذو سلطان ، يضمن مجده بنفســـه ، ولـه الحق بالحيـاة المـترفـة ، لكنـه في الـوقت نفسـه يراقب الاكليروس بعـين الحـذر، الـذين لم تتـوقف شهيتهم وطلبـاتهم عن الاستمرار في المطالبة إلى أبعد من الميزات المعطاة لهم .

إن اغنـاء الإلـه ، وغمـره بالهـدايـا ، والإكثار من المعابد باسمه ونشر مجده ، يأتي بفضـل موقف رسمي للملوك متنـاقض ظاهرياً : اعتبار الاله السلالي حليف قوي ، يضمن به مجده ، والتمتع بملذاته ؛ لكن عينه في الوقت نفسه ، لم تغب عن مراقبة الاكليروس الذين لم تتوقف شهيتهم وطلباتهم عن المزيد من المميزات التي أعطيت لهم . إن إغناء الاله وغمره بالهدايا والاكثار من المعابد باسمه ، ونشر مجده يعني وجـود تأثـير شرعي وذات أهميـة في اكتشاف الهدف منها . فالاكليروس كانوا أكثر عدداً وقوة ، إنهم دولة داخل دولة ، ويمكنهم في بعض الظروف فرض ارادتهم على الملك ، وهذا معناه القيام بمغامرة خطرة معروفة الأبعاد . وكما أوضحنا سابقاً التطور المتعاقب لكبار رجال الدين في مصر ، فلا بدَّ لنا من تدقيق الجهود التي تبذلها السلطة المركزية ، لضمان السيطرة على الكهان الغزاة ومراقبتهم ، وتحديد الأزمات الكبيرة التي وُلدت من هذا النزاع الكامن[٢] .

ماذا كان التـاريـخ الحقيقي لجماعـات ماقبل السلالات؟ وماهي مساحات الأراضي الفعليـة التي كسبـوهـا؟ ومـاهـو النجـاح والانتشـار الجغرافي لتقاليدهم

وعباداتهم؟ من الصعب تحديد الوضع جغرافياً للمناطق المصرية التي تقوم بعبادة الاله نفسه، لأن التوزيع يحدد لنا استمرارية الحياة لبعض امبراطوريات ماقبل التاريخ، المنطوية تحت سلطة إله واحد، ثم تلاشت تدريجياً وهذا يعد تبسيطاً مفرطاً. ومن جهة ثانية فإن أمر إعادة إنشاء أووضع كل فترة ماقبل التاريخ لمعتقدات الدلتا ومصر العليا، مع نقل للحياة التاريخية التي تناقض العلوم المهتمة بالمعتقدات التي تثبتها نصوص الاهرامات في السلالة الخامسة، تبقى عملاً خطراً؛ ستحي، الذي تعلق بها بنى تاريخ كامل لمصر لفترة سبقت مينيس أعطت مؤشرات ضعيفة: وهناك فكرة تفيد بأن نصوص الأهرامات كانت طقوساً دينية قديمة جداً، سبقت بعدة قرون تاريخ نحتها الأول على المباني الجنائزية، والتي يُعزى تنوعها لتخلخل الأوضاع السياسية المعبرة عن التناقض القديم.

وهكذا نرى أول محاولة للتجمع في الدلتا، حين اتحدت مملكتا اوزيريس وحوروس، ثم اندفعتا في غزو الجنوب ضد عبدة الاله ستحي.



نصب الملك الأفعى ـ متحف اللوفر.

وبعد مصر الأولى الموحدة هذه، جاءت دولة جديدة متعلقة بالديانة الجديدة عاصمة الشمس، والتي من المحتمل أن يكون ملكها رع قد حصل في فترة زمنية على الاجماع العام. محاولة ثالثة للتوحيد، قادتها الممالك الحورية الجنوبية ضد الدلتا، ومنذ ذلك الوقت فإن حوريا يكون قد قاد في عشية بداية التاريخ الغزوات القاضية للملك ـ عقرب ومينيس.

إن إعادة بناء التاريخ على هذا الأساس لايخلو من الشكوك المطلقة: فلا شيء يبرهن ـ اللهم إلا بعض الاختلافات التصويرية الأساسية ـ على أن الطقوس المختلفة التي كانت أساس نصوص الأهرامات تنتمي لحقب تاريخية مختلفة، أو أنها كتبت ونقلت بشكل خرافي كصدى للحروب الدولية في الألفين السابقتين. والعلماء مطالبون اليوم دون رفض، محاولة إعادة الوضع التاريخي الذي يتطلّب صراحة تثير الاعجاب، وتتابعاً مقبولاً للأحداث، وإعطاء أقدمية أقل لنصوص الأهرامات؛ وقد يقدِّم علم الآثار معطيات أفضل مما تقدمه دراسة النصوص الدينية وترجمتها، بهدف رسم معالم تاريخ تلك الحقبة البعيدة.

ومهما يكن مصير جماعات ماقبل التاريخ، فإن بعض الألوهيات قد انتفعت في فجر التاريخ من نجاح اتباعها. فالاله الصقر حوروس زعيم هيراكونبوليس في أعالي مصر، يشبه الإله بيحيديت المتطرف الموجود في الدلتا والذي ظلَّ خلال فترة الحضارة المصرية سليل الاله وشفيع الملك: وبالاتحاد مع هذا الاله يأخذ الملك اسم حوروس، المكتوب داخل رسم لقصر يقف فوقه الطائر المقدس.

رع الشمس

لم تلبث ألوهية أخرى أن حظيت برضى الملوك. فعندما تأسست الامبراطورية القديمة في ممفيس على مسافة صغيرة جنوب رأس الدلتا: حدثت

عدة محاولات عابـرة من الآلهـة سيتـح وبتاح للدخول في السلطة السلالية، ولكن هذه المحـاولات لم تنجـح إلا في زمن لاحق. ومن جهـة ثانيـة فإن منطقـة عاصمة الشمس التي كانت تكـرم وتعبـد الشمس رع، لم تلبث أن فرضت تفـوقهـا: فقد جرت أول محاولـة في عهـد حكم دجيـزر (حـوالي ٢٨٠٠ ق.م) ثم، وبعـد فترة قصـيرة، فرضت الفكـرة سيطـرتهـا، وادعى الملوك منذ ذلك الحين أنهم ينتسبون للإله شمس بدون انقطاع. اللقب «ابن رع» الذي أصبح عنصراً دائماً للألقاب.

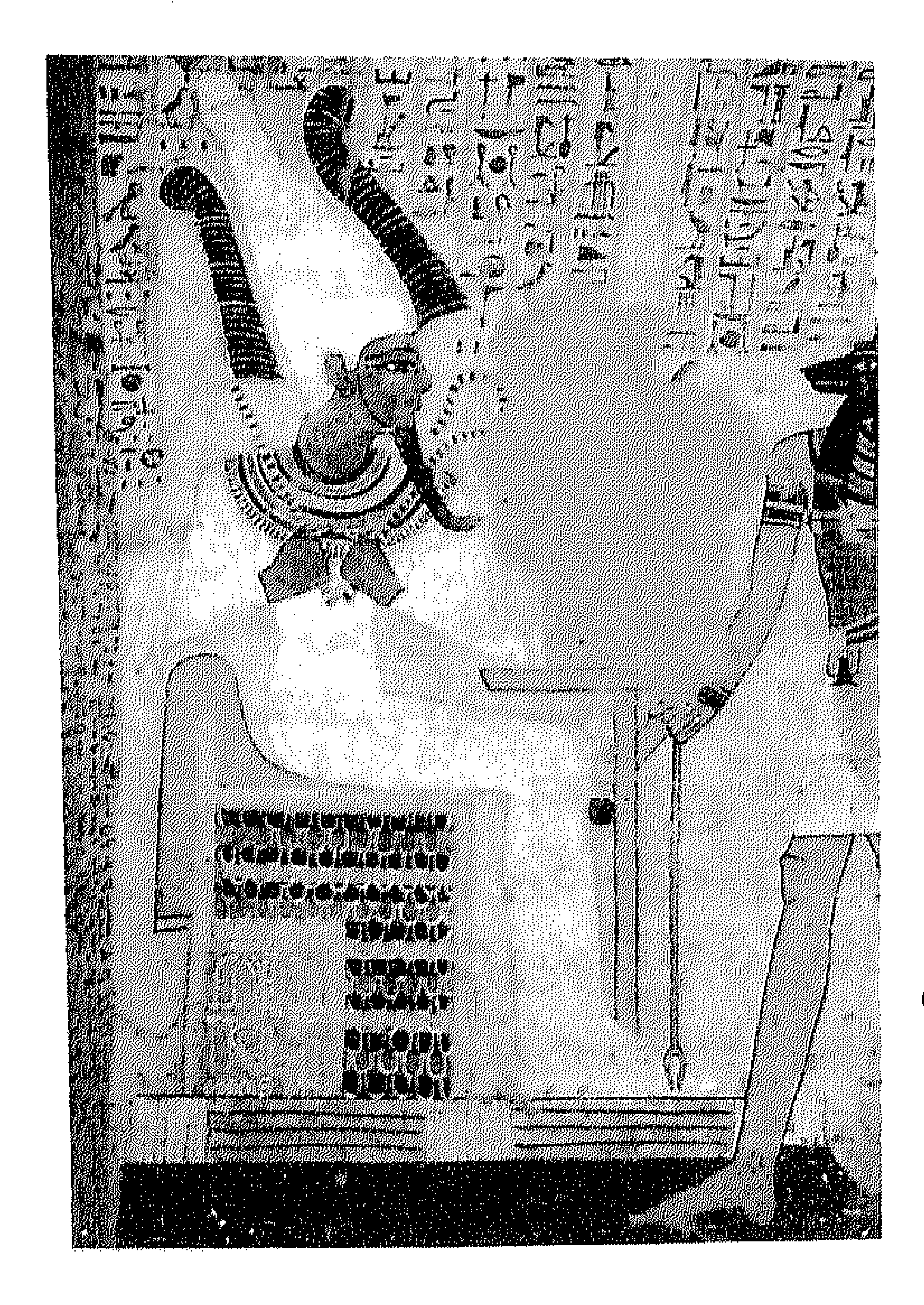
لقـد روت لنـا احـدى الحكـايـات كيف أن السـلالـة الـرابعـة الممفيسيـة (٢٧٢٠ ـ ٢٥٦٠)[٣] تنـازلت عن السلطـة لورثـة وُلـدوا من الاله رع وفي قرية من الضفـة الغـربيـة للدلتا: ومنذ عهد «ساحورع» (٢٥٠٠ ق.م) أدخل جميع الملوك تقريباً الاسم الإلهي إلى داخل لوحة اسمائهم: إن عظمة وأهمية المعابد الشمسية على الضفة اليسرى لنهر النيل، وفضل الأهرامات والاعلام، والنصوص، تشهد جميعها بالمصير العجيب لهذه الديانة الشمسية وتوسعها المستمر تحت الزعامة الملكية.

أوزيـريـــس

إلـه آخـر من الـدلتـا، معـروف منذ القدم، يدعى اوزيريس، لم يلبث أن انتشر في أنحاء مصر. ويعود سر نجاحه إلى الوجهة السياسية لعبدته منه إلى الميزة الجنـائـزيـة لصـلاحيـاتـه: إنـه إله الأموات ولد في بوزيريس، وبلغ مملكة واسعة بفضـل عبـاده خلال عدة قرون، واستقـر في المـدينـة العظيمـة آبيـدوس في عهـد السـلالـة الحـاديـة عشـرة (عام ٢٥٠٠ ق.م)، وأصبح منذ ذلك الوقت، وخلال كامل التاريخ المصري: يمثل صورة سلطان كبير للأموات، وضمانة دائمة للحياة المستقبليـة. ويبـدو أن اكليروس هذا الالـه المتخصصون في وظائفهم المعترف بها

عامة، قد اكتفوا بالدور البارز الذي تعطيه القصيدة الشعبية لـ اوزيريس، وأنهم لم يؤخذوا بالاعجابات السياسية: فهل كان هذا الاعتدال وهو المحتمل قد خلصه من مصير بعض الآلهة الذين لم يعيشوا إلا نادراً أكثر من الملك الذي ترأسوا حفل تتويجه.

وفي العصور الدنيا، وعندما لم تصبح هليوبوليس القديمة إلا مدينة مقفرة، وطيبة الثرية، حقلاً واسعاً من الخراب، ستكون عبادة أوزيريس وايزيس أكثر انتشاراً من أي وقت، حيث وصلت الجزر اليونانية وروما وغابات جرمانيا.. وفي مصر نفسها مامن معبد مخصص لأله، إلا وبداخله عدة معابد صغيرة مخصصة لعبادة الإله الكبير للأموات، مع بعض طقوس الاعياد لبعثه من الموت.



أوزيريس ضريح: آري - نيفر زوجة رعمسيس.

آمــون

من الغـريب أنـه غير معروف في العصور القديمة ولكن معرفتنا به في عهد الامبراطورية الوسطى ، تعود إلى فترة اعتلائه العرش إلى جانب إله طيبي حفظ له أغنى الأقدار. حصل على ألقاب : إله كبار الملوك
أمينميهات ، وإله المقاومة الوطنية المنتصر على الهكسوس ، كما حصل آمون بسرعة بين القـرن العشـرين والخـامس عشـر ق . م على اللقب المبر ر / **ملك الآلهـة/** والمنصب الـذي لايتـزعـزع الحامي للسيادة الطيبة . استقر بصورة ثابتة في عاصمة أعـالي مصـر ، وأضحى غنيـاً بفضل الغزوات الملكية والثراء الذي أتى به استعماره **لآمينـوفيس ، وتـوتمـوزيس ،** وتنظيمه الاكليروس التابع له . استوطن مدينة دينية واسعـة جداً ، حاجبـاً بسلطتـه الفتية جميع الميزات التي كانت تتمتع بها حتى ذلك الـوقت ألـوهيـات العـواصم القـديمة . لقد تكلمنا سابقاً عن قوته المادية ، ونوهنا بثـروتـه : بالـوحي لاهي ، بتـزعمـه السلطـة ، أصبح الأقوى في الدولة ، والحظوة الملكية كانت تكريماً ضرورياً أضيفت لقدرته ، أكثر من كونها تعبيراً عن نقاوة نبوية منحت له بحرية .

آمون . هرم رباعي في قمة مسلة حتشبسوت متحف القاهرة .

هوامش

١ ـ ترجمات عديدة لهذه الرواية : انظر كلود لالويت : نصوص مقدسة ونصوص مدنسة لمصر القديمة . الجزء الأول باريس، ١٩٨٤، ص ١١٢ .

ي . هـ : كتابات قادش بخصوص رمسيس الثاني اوكسفور ١٩٦٠ .

٢ ـ الملكيـة والاكليروس، يشبهـان : وعـاءي الســاعـة الرملية، فالسلطة والثروة تنتقل بينهما دورياً الاكليروس يمتص القوى الملكية، ثم تستعيد الملكية مافقدته (كلود بريو) .

٣ ـ ج . لوفيفر: روايات وحكايات ص ٨٧ ـ ٩٠ باريس ١٩٧٦ .

٧

الصراعات من أجل ادارة العبادات والأزمات في الأمبراطورية الجديدة

يُعتبر الفرعون المعتمد الرسمي المهتم بالعبادات، والزعيم الروحي لديانة المعابد. ولكن التوسع الدنيوي للآلهة وتنظيم ممتلكاتها يتطلبان مراقبة يصعب تنفيذها.

كذلك نرى، أنه منذ الامبراطورية القديمة، تحددت وظيفة الزعيم لكافة الوظائف الدينية، التي يعهد بها الملك لأفراد عائلته وأسرته ثم للوزير. وكانت المراقبة تسمح للسلطة المركزية بممارسة سلطة عليا على الأكليروس كلما دعت الحاجة لموازنة سلطانهم.

وقد لَحَظَ عهد السلالات الأخيرة من الامبراطورية القديمة، سقوط السلطة المركزية والتفتت الاداري والسياسي للبلاد. وتهافَتَ سادة العواصم الاقليمية للاستفادة من هذه الحالة المحزنة، ليبسطوا سيطرتهم على العبادات وأشياء أخرى موجودة في محافظاتهم: وأصبحوا يحملون منذ ذلك الوقت، لقباً جديداً إضافة لألقابهم الأخرى، لقب زعيم الأنبياء مثلاً، وإدارة المعابدة الخاضعة لهم.

ثم ظهر لقب زعيم أنبياء الجنوب والشمال، الذي يعني ضرورة تشكيل

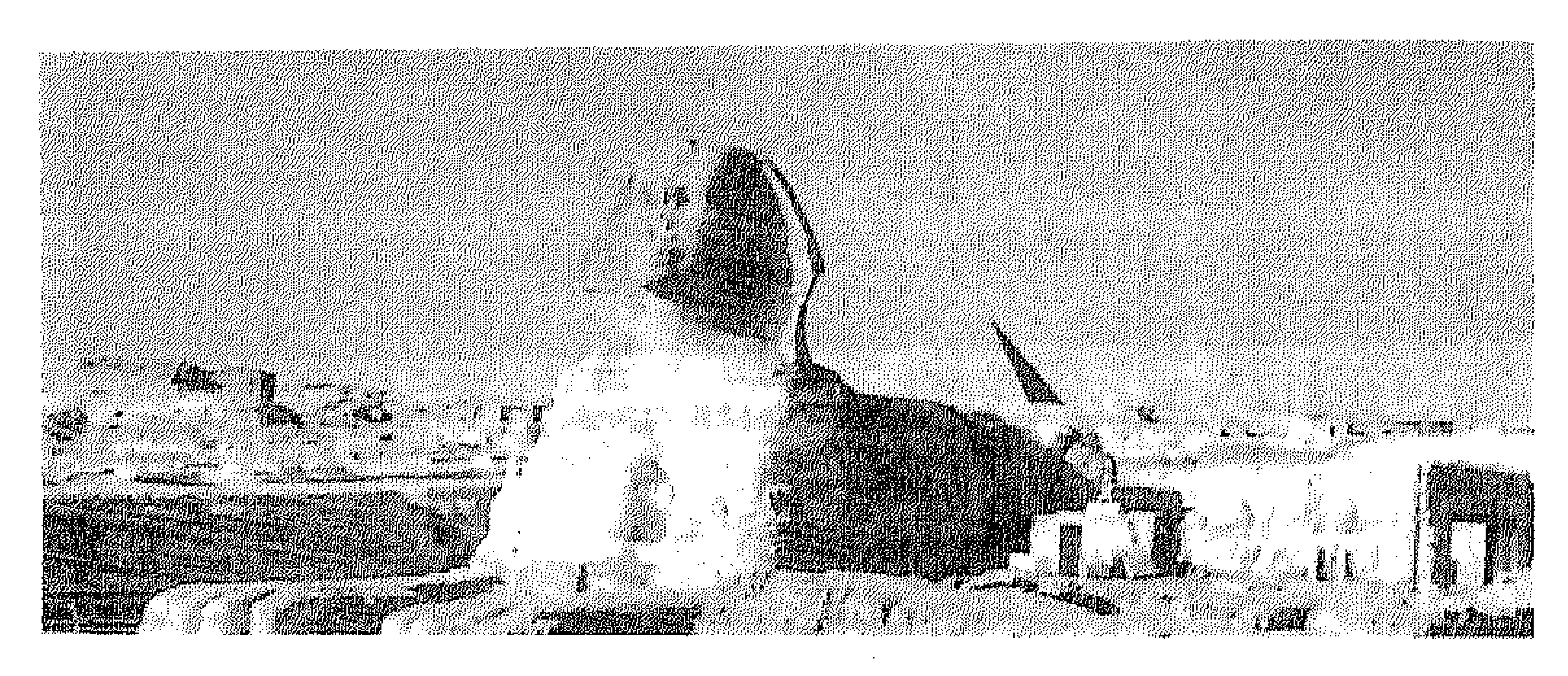
وزارة للعبادات في مصر، وبالنسبة لحاملها، يشبه البابوية. وقد حدثت المؤامرات وحيكت الدسائس حول هذا اللقب. ويعود للوزير مهمة تثبيت سلطان الادارة المركزية، بينما يقوم الملك بتصريف الأمور الدنيوية الخاصة بالآلهة.

وفي النهاية ينجح كهان آمون في كسب هذا اللقب من أجل رئيس أنبيائهم، وبالتالي يكرس الدور المسيطر لإلههم في الدولة وللاكليروس التابع لهم في الحياة السياسية للبلاد. هذا الغزو السلمي يعود تاريخه إلى زمن الملك تحوتموزيس الثالث، ويبدو أن الكهان قد وصلوا هنا إلى ذروة سلطانهم، لكن سنرى أنه بدأت ترتسم بالتدريج ردود فعلٍ ملكية كادت توصل رجال الاكليروس الآموني إلى نهايته.

بداية ردة الفعل الشمسية

بدأت مع تحوتموزيس الثالث (١٤٨٣ ـ ١٤٥٠)، ردة فعل لاهوتية، تهدف إلى إعادة الديانة الشمسية القديمة الهيليوبوليسية إلى سابق مجدها، والتي كانت مهملة، في تلك الفترة، ومنسية بفعل آمون. كانت الانطلاقة بطيئة جداً، فلم تتصف بالانجازات الفجائية والسريعة. وحين نرى أن الملك اتجه إلى بناء أعداد كبيرة من المعابد في مصر، نجد البؤس الذي ساد الأزمنة الأخيرة قد انهكه وأصابه بالافلاس. وكان معنى ذلك، أنه يجب إعطاء الحيوية لبعض العبادات الأجنبية، على اللاهوتية الآمونية تحتل فيها المعابد الشمسية مكاناً مرموقاً: فقد تمَّ اصلاح المعبد القديم لـ رع في ساخيبو، القرية المغمورة في الدلتا التي كانت رمز هذا الميل: كما لم تتوقف القرية عن التوسع والامتداد خلال فترة حكم امينوفيس الثاني وتحوتموزيس الرابع، اللذين بذلا جهودهما لاعادة الاعتبار والاحترام المعبادات في منطقة ممفيس ومن بينها عبادة «حرماخيش»، أبو هول الجيزة،

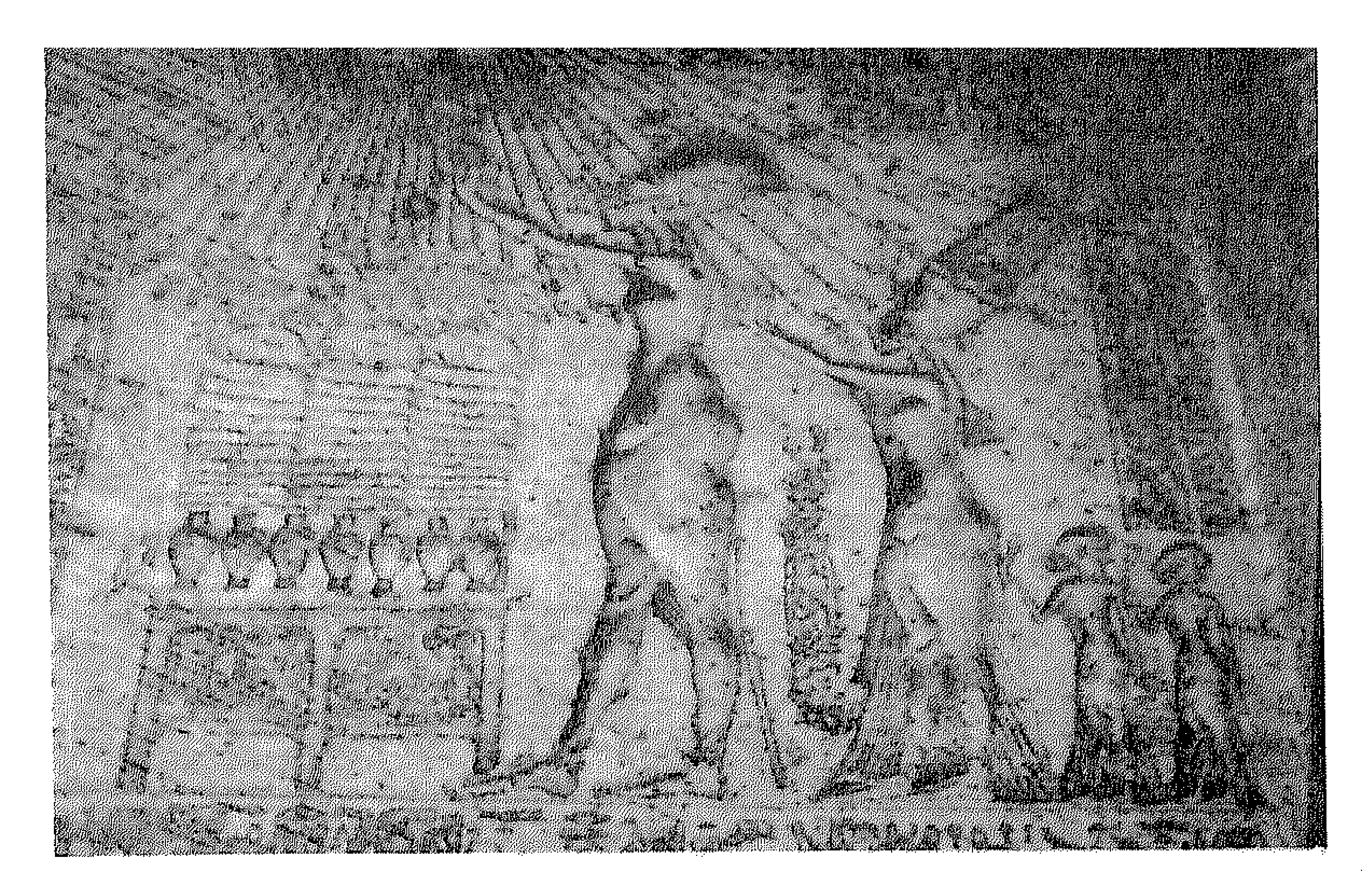
وتشكيل مجمع ديني للألوهية الشمسية. وفي عهد آمينوفيس الثالث ـ رمز الأزمنة، أفلت منصب رئيس أنبياء الشمال والجنوب من أيدي اكليروس آمون، الذي لم يسترجعه إلا في عهد رمسيس الثاني. لكن القطيعة لم تحصل إلا بعد ذلك بسنوات في ظل حكم أمينوفيس الرابع.



ابو هول الجيزة ممثلاً الإله هارماخيس، بين قوائمه نصب الحلم، شهادة على التجديد في العبادة الشمسية في ظل حكم توتموزيس الرابع.

حدث العمارنة

هناك قليل من الحظ لتنال بدعة امينوفيتس الرابع اخناتون طريقها إلى اقناع العلماء وفضولية القراء. فغرابة اللوحات الملكية المترددة بين دماثة مُرضية، وتعبيرية شيطانية، والجمال المصري الرائع للملكة نفرتيتي، والمشاهد العائلية ذات المودة المؤثرة التي يفرح الفنانون في التعبير التصويري عنها، والوحي الرائع الذي يمجد الأناشيد الشمسية: كل ذلك ساهم في جعل الرحلة القصيرة العمرانية السجينة المدهشة، في عالم كنا نعتقد معرفته جيداً، ظاهرة تاريخية ونفسية سيبقى مفتاحها بالنسبة لنا بعيد المنال لمدة طويلة. وردة فعل سياسية؟ نزوة لروح عاطفية



كبـيرة، وشعـور ديني أكثر حرارة من ديانة الاكليروس الرسمي؟ شجار بسيط بين اللاهوتيين؟ وضعت جميع النظريات والكل له حصته من الحق، وليس من واحدة تكفي بمفردها لشرح كافة الوقائع.

والثابت دائماً أن أمينـوفيس الـرابع قد هجر طيبة وملّ الهها، ليذهب إلى مصـر الـوسطى ويؤسس مدينـة جديـدة (تـل العمارنة حالياً) التي خصصت فقط للإله الذي يعبده في قلبه «آتون» القرص المشع ذو الألف ذراع.

وإذا كان الأمـر لايتعلق ببساطة بعض الأوجه الجديدة للايمان الذي يمكنه من مجاورة الديانات الأخرى: فالديانة الأخناتونية كانت خصوصية جداً، فقد أغلقت المعـابـد، وحظّـرت كتابة أسماء الآلهة، وخرّبت الهياكل القديمة، وأقيمت هياكل جديدة للعبادة في جميع المدن المصرية الكبيرة، حتى في كرنك إلى جوار معبد آمون.

لقـد أدى موت أمينـوفيس الـرابـع إلى قرع نواقيس الحزن لديانة القرص. بعـد إقـامـة قصـيرة جداً في عاصمة آتون، فقد خلفه الشاب توت ـ عنخ ـ آمون

وراءه في تل العمارنة أفق القرص، وعاد إلى طيبة، حيث أصدر مرسوماً ألغى به كافة الاجراءات المتخذة سابقاً ضد آلهة مصر. وبعد عشرين سنة من حالة الطوارىء هذه، انبعث اكليروس آمون ليصبح أقوى من أي وقت مضى، لكنهم سيجدون أنفسهم في مواقع الاقتتال بعد ذلك بقليل.

الفترة السيتحية

مهما بدت السلالة الجديدة الآتية للسلطة، حريصة على إعادة الأمور إلى نصابها، فقد كانت لديها الأسباب العديدة لتحذير جانب الاكليروس الآموني. فالملوك الجدد المنحدرون من عائلة عسكرية من الدلتا الشرقية، كانوا مخلصين تقليدياً إلى إله تحترمه الجماهير، نظراً للدور الذي لعبه في موت أوزيريس، غير أنهم كانوا يحتفظون بأماكن متفرقة للعبادة: وهذا الاله هو «سيتحي» ومن جهة



سيتخ: معبد أبو سنبل الكبير.

ثانية أظهرت التجربة العمارنية مايكلفه الانقطاع المفاجىء عن العبادات التي يتقاسمها الوطن، والدخول في حرب مفتوحة ضد الاكليروس، والقوى العليا الموازية للملكية نفسها. إن سياسة سيتحي (١٣١٢ - ١٣٠١) ورمسيس الثاني (١٣٠١ - ١٢٣٥) كانتا مختلفتين جداً عن سياسة أسلافهم. فلم تكن هناك قطيعة مع طيبة، : فقد استمر البناء، وشيدت أبنية مرتفعة تكريماً لآمون في كرنك (صالة مملوءة بالأعمدة) وغورنا، ورامسيوم. لكن رمسيس ذهب إلى منطقة آبيدوس ليبحث عن الحبر الأعظم من الاكليروس الآموني! . . . . ثم أعلن قبوله للعبادات الممفيسية والهيليوبوليسية، ولم يتردد في تنصيب اثنين من أبنائه ميريتوم وخمواصت كاهنين كبيرين للاله رع وبتاح، مسجلاً بسياسته وانشاءاته، ثقة دائمة كبيرة في نظر الألوهيتين الكبيرتين في الشمال.

أخيراً وبعد أن أصابه التعب والملل، رحل عن طيبة وكهّانها الميسورين، وبنى عاصمة جديدة له أسماها: بي - رمسيس في الدلتا الشرقية، حيث يمكنه عبادة الآلهة التي يطمئن لها براحة وحرية ويعطي لآمون المركز الثاني.

وبصورة موازية للآلهة الثلاثة الكبار، التي غمرها بأكبر قدر من الحظية والاحترام، أبدى ستحي ورمسيس ميولاً واضحة نحو سيتح، لكن هناك حذر شديد: فقد ظل سيتح في الفكر المصري الاله المجرم المسؤول عن موت اوزيريس، وأن الحكام الملوك لايمكنهم النظر في ترفيعه وتنصيبه، دون اثارة الاحتجاجات الجماعية، وبصورة وقائية، كرس سيتح جزءاً كبيراً من نشاطه لصيانة وتوسيع المعابد الأوزيريسية في آبيدوس، في حين كان رمسيس غير مسرور من تشييد أعداد من الأبنية الكبيرة، فقام بتتويج نيبونيف على السدة العليا لاكليروس آمون.

ولم يتحمل المتمسكون باوزيريس هذه العزلة، فانتابهم شعور الاهانة الشخصية وخاصة بسبب الرضى الذي يلقاه الاله سيتح: كما اعتبر مدحه بمثابة

الغنى والثـراء للآلهـة الهيليـوبـوليسيـة والممفيسية ، وليس تهديداً فقط لاكلير وس اوزيـريس ، بل لاكلير وس آمـون في العـواصم الاقليمية ، حيث يُعبد الإله سيتح منذ الأزل.وقد تنعمت أومبوس ، وتجيبو، وسيبرمير و بالترف والرفاهية التي منحها الملوك الرمـامسـة الأوائـل لالـهْ الـدلتا الشرقية . وأعادت العاصمة بي - رمسيس ازدهار الديانة التي كان سيتح قد تلقاها في «أفاريس الهكسوس» دون القطيعة مع آمون ، وتوصل سيتح ورمسيس إلى التقليل بعض الشيء من سلطته ، وتمكنوا عن طريق غمر اوزيريس بالعطاء الذي لاحدود له من حصول القبول بأن الاله سيتح يستطيـع الحصـول على بعض المحبـة والـرضى . ولقـد كان هذا نتيجـة لشعـور سياسي رائع ، لم يستطع خلفهم تنفيذه بهذه المهارة .

ولم يخشَ اتباع آمون : من تقدم وارتقاء سيتح ، وتأسيس عاصمة جديدة في الـدلتـا ، فالـرضى الـذي مُنـح لعبادة رع وبتاح ، لم يكن محض مصادفات بسيطة عابرة ، بل كان رضىً ظاهرياً تمنحه الملكية ، إذ كانوا يدركون الحذر المقنع للملوك القلقـين من السلطـة الزائدة التي تمكن آمون من الحصول عليها ، والمحافظة على قوتها رغم أزمة العمارنة الخطرة . . . .

كذلـك ، لم تدم المخـاوف التي كان يدركهـا الاكلير وس الطيبي منـذ مدة طويلة : فالـرضى السـلالي لـ سيتـح لم يستمـر رأكثـر من عشرات السنين ، عندما بدأت حركـة سخـط وكـراهيـة شاملة للالـه ، الذي حاول شيئاً فشيئاً أن يُجسِّد في شخصه جميع القوى الشريرة المناهضة للبلاد ؛ وعلى المستويين الديني والسياسي ، لم يكن سيتـح إلا قاتـلاً لأوزيـريس الـذي تضـاعف الرضى عنه ، وأضحى كآلهة الغـزاة الـذين تتـابعـوا على الأرض المصـريـة خلال القرون الأخيرة التي سبقت الاسكنـدر. . . . ومـرة ثانية ينتصر آمن والعبادات المناهضة التي حاولت الملكية أن تنصبه عداءها .

الملوك الكهان

لم يكن آخر الملوك من سلالة رمسيس أقوياء بما فيه الكفاية. فقد خرج اكليروس آمون منتصراً من الأزمتين الخطيرتين، وحقق نجاحاً في استعادة رضى الملوك أفضل من سابق عهدهم، بفضل بعض التنازلات، كما أنه لم يقدم سوى جهداً بسيطاً لاجتياز العقبة الأخيرة التي تفصل (الأكليروس) عن السلطة العليا فاعتادوا التدخل في تنصيب الملوك ودعمهم. ولم يبق أي سبب يمنعهم من أن يتقلدوا المنصب الملكي بشخص الكاهن الأكبر. وقد فشلت أولى المحاولات في هذا الاتجاه: عندما أقال رمسيس الحادي عشر كبير الكهان امينوفيس الطموح جداً من منصبه وبذلك سجلت الملكية انتصاراً أولياً.

ولكن بعد وقت قليل، انتزع أحد العسكريين ويدعى حيريحور وظيفة النبي الأول لـ آمون وانطلق في طلب السلطة مع الحبر الجديد، وبدأ اسم الملك الرسمي بالزوال تدريجياً، حتى لم يعد يذكر اسم رمسيس أبداً: بل اسم حريحور فقط. وأخيراً ظهر اسم حوريحور على لوحة. وعاشت الملكية الرمسيسية المستبدلة لبعض الوقت باكليروس آمون.



لوحة تذكارية للنبي الأول لآمون «هوريهور معبد خونسو» في كرنك.

كيف ستصبح هذه الرواية الكهنوتية، من السهل تصور أن توازن الدولة لايتطلب فقط الاتحاد بين السلطة الدينية والوظيفة الملكية، بل يلزمه جهود العمل الملكي المنظم. غير أن مصر في عهد السلالة الواحدة والعشرين كانت تعيش منطوية على نفسها، لبنان يكرهها، والنوبة قد نسيت تقريباً جوارها: الثروات القادمة من الأراضي المستعمرة التي كانت تتوالى في السابق، لم تعد سوى ذكريات بعيدة.

ونظراً لانعدام الأهمية والصيت الشخصي، وضعف السلطة الحقيقية، فإن الاكليروس كان يحكم بفضل صوت إلهه آمون: ويصدر المراسيم حول كل شيء، حتى التجأ الضعف السياسي للملوك الكهان خلف فزاعة الوحي الالهي.

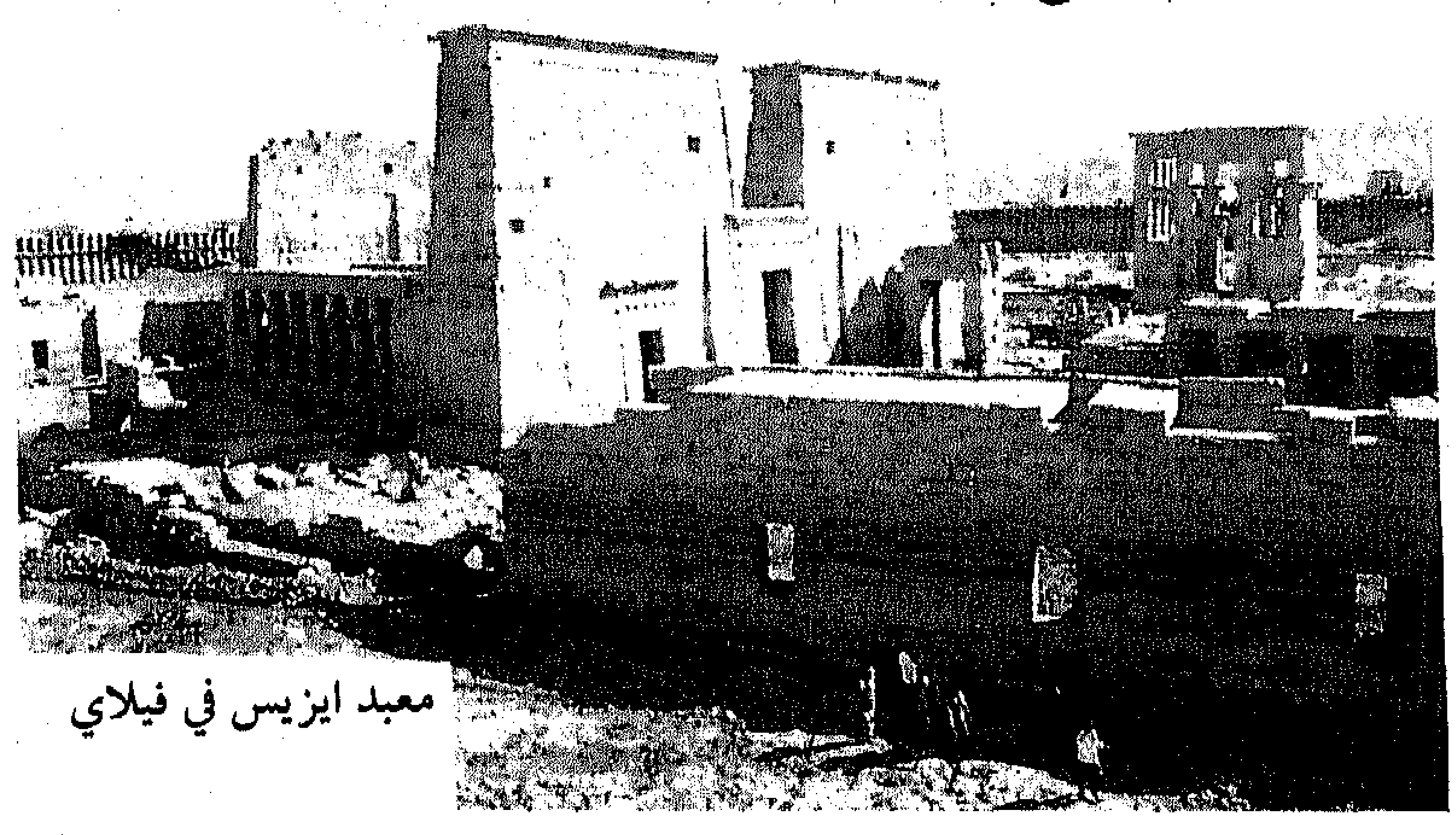
ومع السلالات التالية، استعاد اكليروس الدلتا بعض الامتيازات، مثل امتياز الآلهة باستيث، خاصة آمون الراقد في منآه الطيبي. إن ابدال الكاهن الأكبر بالآلهة المعبودة، على رأس الاكليروس لم يوصل إلى اعطائه السلطة بل على العكس، فالخلافة كانت تنظم منذ هذه الفترة وصاعداً عن طريق القبول، حيث يسقط الاكليروس كلية في أحضان السلطة السياسية، سلطة ملوك الدلتا، والفاتحين الغزاة الأثيوبيين، وبعد ذلك سلطة ملوك السيسيين.

القرون الوطنية الأخيرة

يبدو ظاهرياً، أن ملوك السلالة الجديدة كانوا مؤيدين لمعابد الدلتا، ومعابد سايس، عاصمتهم الأولى، وجميع معابد العواصم الأخرى والقرى، التي تطورت بفضل تطوير نظام مدعوم بأسس وقواعد هبات الأراضي، كذلك لم يكن لديهم سبباً للخوف من هذه المدن الصغيرة الكثيرة العدد ذات المصالح المتنافسة. وبالمقابل، فإن طيبة البعيدة والمنظمة، كانت تشكل تهديداً أكثر جدية، وظنّ

ملوك السايسيين أن اعتمادهم على الأميرات الشماليات كأمهات معبودات، وإلى جانبهن رجل الهيكل الكبير، سيضمن لهم مراقبة الاكليروس الآموني بصورة فعالة: كذلك استعاد الملك اللقب الرسمي قائد الشعوب، مما يكرس معه عودة السلطة الفعلية الدينية إلى الفرعون.

والمعلومات المتعلقة بمصير الاكليروس المصري خلال القرون السادسة والخامسة والرابعة غير معروفة ولاشيء ينير الطريق بخصوص سلطتهم الفعلية وسيطرتهم. طيبة في تفكك واضح: الغزوات الآشورية عام ٦٠٣، والسيطرة السياسية على عبادات البلاد قلّصت كثيراً من طموحاتها. إضافة لذلك فقد تطورت عبادات أخرى، مدعومة بالحماس الشعبي، وخاصة أتباع أوزيريس وإيزيس، اللذين بُنيت لهما المعابد الصغيرة في كل مكان من أرض مصر. وطبق برنامج واسع في عهد حكم آخر ملوك المصريين النكتانيبوس لاعادة البناء: وتلقت معظم الأبنية الدينية أبواب وساحات جديدة، ودشنت معابد كثيرة، معابد فيلاي، وخاصة «بحبيت الحجر» المهداة إلى ايزيس، وبينما كانت مصر تأخذ تدريجياً شكلها المعماري النهائي جاءها الغزو الفارسي الثاني والاسكندر المكدوني عام ٣٣٢ ق.م ووضع حداً لوجودها كأمة حرة.



معبد ايزيس في فيلاي

العصر اليوناني والروماني

كيف أصبح وضع اكليروس مصر في ظل الاحتلال اللاجيدي؟ لقد نوهنا سابقاً بالصفقة الغريبة التي جرت بين الملك والكهان: فالكهان مازالوا أقوياء حتى ذلك الوقت، باستطاعتهم خدمة السلطة المركزية بفاعلية، بمضاعفة إيمان جماهير الشعب بوهم شرعيتهم، لكنهم مقابل ذلك يجب أن يحصلوا على بعض الميزات المادية.

وفي تاريخ العلاقات بين السلطة الدينية والدولة خلال حكم البطالمة، جرى التفريق بين الآلهة والكهان، وأن منح الامتياز للبعض ليس معناه التنازل عنه للآخرين. أما الاكليروس فكانوا ميالين للحصول على النصر وستكون لهم الكلمة الفصل في النهاية. وإذا كانت المعابد في بداية السلالة، أملاكاً تحت نفوذ الأغنياء، فإنها كانت محرومة من حق ادارة املاكها، الأمر الذي خوَّل الكهان، فيما بعد، حق جباية مواردهم من الأرض المقدسة، بموجب منشور صدر عام ١١٨ ق.م[1].

لاأحد يأخذ شيئاً مما هو مخصص للآلهة بالعنف، لاتعذب ذوي الحق بالموارد المقدسة، لاتضاعف ضرائب المشاركة... لاتجب الأتاوة... على الأراضي المخصصة للآلهة ولاتدرها تحت أي حجة كانت، لتتركَ وتدارَ من قبل الكهان.

بهذه الكيفية يتنازل الملك عن ادعاءاته لحق الاشراف على العائدات الكهنوتية والأراضي المقدسة التابعة للمعابد.

ومع الغزو الروماني ٣٠ ق.م اختفى الاستقلال الذاتي النسبي للاكليروس: فقد وُضعت كافة معابد مصر تحت مراقبة وسيطرة الايدولوجي

المفكر بابا الاسكندرية / الزعيم الديني الاسكندري / وعموم مصر . الذي كان يصدر أوامره إلى القاضي الأول ، والمفوضين الآخرين من السلطة المركزية .

وقد استمر هذا النظام حتى اصدار مرسوم تيودوس عام ٣١٤ حيث أمر باغلاق جميع المعابد المصرية منهياً بذلك عهد الوثنية المصرية القديمة[٢] .

---

١ - نهاية الحرب بين الأخوة حصلت بين بطليموس الثامن وكليوباترة الثانية واعلان الهدنة عام ١١٨ ، يوضح وضع مصر وسرد التنازلات التي قام بها الملك لمختلف الفئات الاجتماعية في البلاد . انظر م . ب . لونجر. بروكسيل ١٩٦٤ رقم ٥٣ .

٢ - في نهاية القرن الخامس ، كانت فيلاي آخر معقل للديانة للوثنية الهامة في مصر . وبفضل البليميوس الذين يواصلون عبادة ايزيس . والنهاية الحقيقية للوثنية المصرية كانت في أيام حكم جوستنيان الذي أمر اغلاق معبد فيلاي عام ٥٣٥ . وقد عثر على آثار وثنية عند أشخاص معزولين لغاية الفتح العربي . انظر ج . ماسبيرو : هورابولون ونهاية المجوسية المصرية ١٩١٤ صفحة ١٦٣ - ١٩٥ .

٨

جداول تأريخية زمنية

التاريخ	التاريخ الرسمي	وقائع دينية
٣٠٠٠	مينيس الملك الأول	
٢٨٠٠	السلالة الثالثة : دجيزير	هرم على مدرجات سقارة، بداية البناء المعماري .
٢٧٠٠ ـ ٢٦٠٠	السلالة الرابعة : خيوبس، خفرع، منقرع	اهرامات ومصاطب خاصة في الجيزة .
٢٦٠٠ ـ ٢٤٠٠	السلالة الخامسة	اهرامات صغيرة في حقارة، هليوبوليس وديانة الشمس .
٢٤٠٠ ـ ٢٠٠٠	السلالة السادسة حتى الحادية عشرة : نهاية الأمبراطورية القديمة وأول حقبة وسطية	ثورة اجتماعية ظهور الديانة الأوزيريسية (أوزيريس) وأصبحت آبيدوس مركزاً لها . نصوص عن القبور.
٢٠٠٠ ـ ١٧٥٠	السلالة ١٢ ـ ١٤ : الامبراطورية الوسطى ملوك امينميهات وسيزوستريس	اهرامات الفيوم، بحيرة موريس، ظهور الاله آمون، قبول آلهة الفيوم .
١٧٥٠ ـ ١٥٨٠	فترة وسطية ثانية، الاستعمار الهيكسوسي والغزوات	

١٥٨٠	السلالة ١٨ : ملوك امينوفيس وتوتموزيس	ازدياد السلطة الدنيوية لآمون إله طيبة .
١٣٧٢ ـ ١٣٤٣	آمينوفيس الرابع : أخناتون ، نفرتيتي توت ـ عنخ ـ آمون	بدعة العمارنة : ديانة خاصة بآتون القرص الشمسي
١٣٤٣	القائد حورمحب	عودة للرأي المستقيم الديني .
١٣١٤ ـ ١٠٨٥	السلالة ١٩ ـ ٢٠ الرمسيسية	قبول الاله سيتح ، رع ، من هليوبوليس والاله بناح من ممفيس .
١١٠٠	آخر الرمامة	سرقة ونهب القبور الملكية . نزع السلطة من كبار كهان طيبة .
	ملوك ـ كهنة سلالة الدلتا	الوحي ، مراسيم إلهية ، تطور الكهنوتيات المحلية وخاصة في الدلتا .
٧٣٠	الغزو الاثيوبي	ـ
٦٦٣	السلالة ٢٦ السايسية ، اعادة البلاد	غزو الآشوريين لطيبة ، قبول آلهة الدلتا نيث ، ايزيس ، اوزيريس ، عودة إلى الأشكال القديمة .
٥٢٥	الغزو الفارسي	أهمية مضطردة لديانة عبادة الحيوانات المقدسة والسحر الشعبي .
٤٠٠ ـ ٣٤٠	السلالة ٢٨ ـ ٣٠	اعادة بناء معابد مصر.

٣٤١ ـ ٣٣٢	الاحتلال الفارسي الثاني	بنـاء أكـبر المعـابـد، ادفـو، فيـلاي، بهبيـث، إسنـا، ميدامود، كرم اومبو، دنديرا، عبادة سيرابيس.
٣٠ ق.م	مصر مقاطعة رومانية	
٣٨٤	تيودوس	اغلاق معابد مصر.

٩

المـــراجــــع

النشـرة الأصليـة لاتحتـوي على المـراجع والملاحظات وقد سمح الناشرون لأنفسهم باضـافتهـا بطـريقـة تسمـح بتـوجيـه بعض القـراء الـراغبـين في تعميق دراستهم. والمراجع هذه ليست كثيرة ولاتعيد ذكر الملاحظات السابقة.

الاختصـارات

- حولية شرقية ـ روما ANDR
- حوليات المصطلحات القديمة في مصر ـ القاهرة
- المكتبة المصرية ـ بروكسل
- نشرة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية ـ القاهرة
- جريدة الآثار المصرية ـ لندن
- المهتمين بدراسة مصر ـ ليبزيغ
- مجلة العلوم المصرية ـ باريس

الكهنـة والأكليروس

- خدم الاله مين ـ القاهرة **١٩٣١**
- ج. لوفيفر: تاريخ كبار كهنة آمون في كرنك باريس **١٩٢٩**

العبـادة والأعيـاد

ـ عبادة حوروس وإدفو في عهد البطالمة ـ القاهرة ١٩٤٥

ـ أعياد الاله مين. القاهرة ١٩٣٦

ـ الطقوس اليومية لعبادة الاله في مصر. باريس ١٩٠٢

ـ س. سونـيرون: الاعيـاد الـدينيـة في اسنـا في القـرون الأخيرة الوثنية. القاهرة ١٩٦٢

الديانـة:

ف. دوماس: الآلهة في مصر، مجلد ٢ باريس ١٩٧٠

س. مورينز: الديانة المصرية. باريس ١٩٦٢

ج. فانديير: الديانة المصرية. باريس ١٩٤٩

تاريخ وحضارة:

ـ ف. دوماس: حضارة مصر الفرعونية. باربس ١٩٦٥

ـ ي. دريـوتـون وج. فانـدريير: مصر في عهد فتوحات الاسكندر المجلد السادس، باريس ١٩٨٤.

ـ آ. ايرمان. هـ. رانك: الحضارة المصرية، باريس ١٩٧٦

ـ ج. بوسنـير س. سونـيرون ج. يويـوت: قامـوس الحضـارة المصـرية، باريس ١٩٥٩.

الفهـــرس

من داخل النصوص المصرية، وبشهادات المؤلفين الكلاسيكيين، يجيب العالم التاريخي «سيرج سونيرون» عن جميع التساؤلات التي تدور حول (الكهان) خدم الآلهة المصريين.

لندخل معه في أعماق الحصون الالهية المسماة «المعابد»، بصحبة كبار أحبار طيبة، ومع جمع من الكهان المتواضعين من مختلف المراتب؛ لنكتشف شخصية الحكيم بيتوزيريس المشهور في عصره بفكره الروحي السامي، وشخصيات أخرى أقل شأناً ضالعة في فضيحة «اليفانتين»؛ ولنتابع معه داخل حرم المعابد، ماهو مألوف عن الأموات، وتوالي طقوس الخدمة اليومية الشبيهة بالشعوذة، التي تمنع العالم المخلوق من العودة إلى الفناء؛ لنحضر بتواضع سر الولادة الالهية، ولندفع محراب بيت الحياة، ولننظر كيف يعمل كتبة المعبد، ولنبحث بين الكتابات المحفورة عن فهارس كتب الطقوس والكتب السرية.

وفي نهاية الرحلة، وبعد طي صفحة كهان مصر القديمة، نكون قد ذهبنا بعيداً جداً داخل نظام فكري؛ وفهمنا بشكل أفضل الأخلاق الانسانية العميقة لواحدة من أهم وأعظم الحضارات القديمة.

جان بيير كورتجياني
عالم الآثار المصرية


السعر: ١٦٠ ل.س